

شوقي عبد الحكيم

الفولكلور والأساطير العربية



**مدخل لدراسة
القولكلور والاساطير العربية**

شوقي عبد الحكيم

مدخل لدراسة
الفواكاور والاساطير العربية

حقوق الطبع محفوظة

لدار ابن خلدون

بيروت - كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا سنتر

هاتف ٣١٢٣٣٥

ص.ب ١١٩٣٠٨

مقدمة

في القسم الاول من هذا الكتاب ، أردت التعرض بالدراسة لمحاولة رصد ملمح لأطلس عربي للأساطير والفولكلور . لذا آثرت من البداية التعرض للمشاكل والعراقيل التي تقف في وجه أي محاولة ، تجيء من منطلق الدراسة الشاملة لتراثنا الفولكلوري والأسطوري العربي ، وموقعه من الرقعة الكونية .

وبالطبع هناك ندرة ملفتة الجهود المبذولة في هذا المجال أو الحقل على المستوى القومي ، بصرف النظر عن الدراسات المفتقدة الى المنهج ، ويمكن القول سيول الدراسات الغيبية والمفلوطة وغير المدركة للمدى الذي قطعتة حركة الدراسات السامية والتي يشكل عالمنا العربي الواسع رصيدها الاعظم .

ومن هنا جاء تركيزي ، على هذه المشاكل المتراكمة الى اليوم ، للمعرفة بالاصول والمكونات الاولى لهذا التراث ، سواء من حيث ضياع وافتقاد المدونات ، أو من حيث تهافت المناهج الدراسية القومية ، وسواء من منطلق إعادة التعرف على المنابت الاولى ، لجزئيات ومواضيع وعبارات وخصائص هذا التراث المتوارث المتراكم الحلقات ، تراكم الصخور الجيولوجية .

من ذلك توصل الدراسات الفولكلورية والأسطورية المقارنة ، الى ان هناك أساسا أسطوريا وفولكلوريا عقائديا ولأهوتيا مشتركا لأغلب الشعوب العربية ، بل السامية ، منذ أكثر من ألفي عام ق.م ، سواء فيما بين النهرين ، أو في الجزيرة العربية والشام ولبنان وفلسطين .

فمنابع الميثولوجيا العربية تضرب بجذورها على مدى ٦ آلاف عام ، أي منذ السومريين غير الساميين .

وعلى هذا أفردت جزءا خاصا للتعريف بهذه المنابع الاولى ، خلال وعبر حركة تنقلاتها وانتشارها ، ما بين حضارة - لا سامية - مندثرة ، لأخرى قادمة ، واصلت اكتمالها - لغويا - وبالتالي تراثيا اليوم .

كذلك كان من المفيد عمل المأمة للتراث الاسطوري والفولكلوري لبؤرة العالم القديم في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

وكذا المأمة للتراث العبري - السامي - ودور اليهود في تدوين هذا التراث ، خاصة في مجموعة التلمودات ، البابلي ، أو الفلسطينية ، أو الحجازي ، بالإضافة الى بقية المدونات من مقدسة ، ومحظورة Apocriha ، ومدى تجانسه ، ولنقل توحيده مع تراث عرب الجزيرة لما اصطلح على تسميتهم بالجاهليين .

وبالطبع كان من المفيد أيضا التعرض لهؤلاء الجاهليين ، ودورهم الحضاري ، استنادا الى ما كشفت عنه نصوصهم الحفرية في اليمن وجنوب الجزيرة ، وما سادهم من خرافات وخزعبلات الجن وقوى الطبيعة الخارقة ، التي ما تزال متواترة ، تفت في عضد العقل الغيبي والاسطوري العربي ، بما يعوق كل محاولات الاخذ بشعارات العقلنة ، وبناء طاقات الانسان العربي الذي أصبح يعاني أزمة حضارية محققة .

وأعقبت هذا الفصل ، بدراسة مقارنة بين التراثين المتلازمين السوداني والمصري .

ثم اخترت مجموعة - محددة - من المداخل أو الانساق أو المنطلقات ، كمقدمة لدراسة الفولكلور - متضمنة الاساطير العربية - كأساسيات عامة لا غناء عنها لأي باحث في هذا الحقل . بل هي قد تكون ألزم للباحث الاجتماعي في علم وتاريخ الانسان الثقافي - الانثروبولوجيا - بنفس درجة لزومها لجامع وباحث الفولكلور .

فلا خلاف على ان الذاكرة الشعبية الجماعية ، هي ما حفظت

لنا هذا التراث المتواتر منذ طفولة البشرية الاولى ، وهو الفولكلور .
وللذاكرة الشعبية - تحت تأثير العداة والتوارث - حضورها
واعجازها لمن خبر التعامل معها ، ذلك انها مخزون متواتر الحلقات ،
تحفظ أدق دقائق شعائر وممارسات الولادة والموت الاولى الى
أيامنا ، بنفس درجة حفظها بما يصاحب التنفس والتأثب ، وكل
ما يتصل وصاحب الانتقال من النيبء والمطبوخ بالنسبة لمطبخ
البخار المصري . كذلك فهي ذاتها الذاكرة الشعبية أو الشفهية
التي أسهمت في الكشف عن الكثير من تراث البشرية ، التاريخي
أو الحفري الأركبولوجي ، وما من مكتشف أثري - مثلاً - لم
يستهد ويستفيد من مخزون الحكايات الشعبية والحوادث
وفابيولات الكنوز - المقابر - المدفونة ، وعالم ما تحت الأرض ،
منذ د. فلاندرز بيتري الذي دأب على تأكيد ان هذه الخرافات التي
كان يجمعها ويستمع اليها من فلاحى الفيوم والدلتا قادمة الى
اكتشاف - كنوزه - من الآلاف المؤلفسة من البرديات الادبية
والفولكلورية والتاريخية التي ينظر اليها اليوم بكل تقدير . والشيء
نفسه أشار اليه ماريت ، وماسبيرو ، وكارتر مكتشف عصر
توت عنخ آمون ، وغيرهم من الرواد الاثريين الذين عملوا في
حفائر ومكتشفات العالم العربي ، خاصة بسوريا والعراق ، أمثال :
كلوديوس ريش ، وسير هنري ليارد ، اللذين استفادا حتى من
ألف ليلة وليلة ، والنصوص الشفهية لفلاحى العراق لألف ليلة وليلة
في مناطق أو مديريات الموصل ، وجلجاميش ، ونمرود ، وبقية
رحاب العراق .

كما انه لا خلاف على أن اللغة هي حاملة التراث من فولكلوري
وثقافى ، لذا وجب مراعاة جامع الفولكلور ، لدقائق اللهجات وطرق
النطق والصوتيات ، بالإضافة الى علوم صناعتها .

كذلك ففي انقسام حياة أي شعب من الشعوب الى مباح
ومحظور ، أو حلال وحرام ، وهو ما تعارف عليه بالتأبو ، ما يدعو
الى تناوله بالدراسة ، وهكذا بالنسبة لبقية الانساق أو الابنية
المختارة موضوع هنذا الكتاب مثل خصائص فولكلور القبيلة

والحرب ، وصراع الطعام والادام والكلا ، سواء في الصحراء
الليبية أو الادومية بالاردن ، أو في اغوار الجزيرة العربية المترامية .

وقد يبدو للوهلة الاولى انني انما أهرب من حقل الدراسات
الفولكلورية والاسطورية ، لحقلي التاريخ الثقافي - الانثروبولوجي -
أو الاثنوغرافي بعامة ، وبين المنهج التاريخي ، وحقل الدراسات
التاريخية بعامة .

والنظر للفولكلور باعتباره « ماض حي » ، أو النظر اليه
باعتباره ثقافة منحدره ، أو مجرد بقايا قديمة ومخلفات ، تواصل
توالدها الذاتي وفرض سلطاتها تحت تأثير العادة والتوارث وغياب
العقل في مجتمعات ما قبل العقل والعلم .

وهذا كما هو واضح يستلزم الاتجاه نحو علم الاجتماع ،
وبالتحديد نحو علم الاجتماع البنائي ، وما يستتبعه هذا من تحليل
بنائي ، أي فهم الظاهرات والعلاقات الاجتماعية عن طريق الاستعانة
بالنماذج الفولكلورية ، سواء تلك التي توصلت الى جمعها من أفواه
الناس ، وحافظت - قدر جهدي - على فونيماتها ولهجاتها وأساليب
نطقها ، ثم يلي هذا - بقدر الامكان - محاولتي للتعرف على النبتة
الاولى - الشفافية - على ضوء المدونة ، وعلى ضوء مضاهات
هذه المواد من شفاهية ومدونة ، لما أمكن التوصل اليه حفرًا
أو اركيولوجيًا .

وهو على أية حال نوع من « الدراسة الشاملة لحالة واحدة » ،
وهو ما يفسر لنا وجود العلاقة الحميمة بين حاجة وتكاتف البناء
الاجتماعي وعلم ما قبل التاريخ والآثار ونظريات الانتشارية مع عدم
اغفال التأويلات السيكولوجية ، والنزعة الوظيفية التي ترى في
كل موتيف فولكلوري ، سواء أكان مثلاً أو ممارسة ، أو كلمة أو
عملاً أو شميرة - يخضع لنظام التابو - داخل أي مجتمع أو
جماعة ، وله في النهاية دوره وهدفه الوظيفي لخدمة أغراض طبقية
مباشرة ومحددة .

ولعني حاولت جاهدا الاستفادة من نتائج هذه المناهج سواء

التاريخية الجغرافية أو الانثروبولوجية أو الشمسية أو الوظيفية ،
أو التطورية ، والديموقراطية ، لدراسة فولكلور بلداننا - التي
تتكلم العربية - عن طريق التعرض لمكوناته الرئيسية أو أنساقه
أو منطلقاته ، من لغة ، وقرابة ، وتابو ، وذاكرة جمعية ، وأنيمزم
- روحانيات - ، على اعتبار أن مثل هذه البناءات أو الانساق ،
تلتزم باحث الفولكلور ، وإن كان أول من نبه إليها - بحق - هو
الباحث الاجتماعي أو الانثروبولوجي .

ولقد اعتادت الدراسات الانثروبولوجية النظر للفولكلور
لا باعتباره علما مستقلا ، بل على أنه مجرد فنون كلامية أو فنون
قول أو آداب شفوية أو الحكايات والاساطير الشعبية .

بل وصل الأمر ببعض دارسي الثقافة والنظم الاجتماعية
والانثروبولوجيون عامة ، إلى حد المغالاة بطرد « مصطلح » فولكلور
وأخراجه من مجال العلوم الاجتماعية .

وظل هذا هو الحال السائد منذ أواخر القرن الثامن عشر
والتاسع عشر ، في ربط عجلة الدراسات الفولكلورية والاسطورية
بالدراسات والاجتهادات الأدبية أو الفلسفية .

وهو موقف أميل إلى الخطأ ، ذلك أن المغالطة تتوقف
عند مجرد استبدال تسمية فولكلور ، بالانثوجرافيا كمصطلح
جديد شائع داخل العلوم الاجتماعية . فإذا ما كانت الانثوجرافيا
هي دراسة الحضارة بعامة ، أي كافة نواحي السلوك الإنساني ،
من لغة ومعتقدات ودين وفلسفة وشعائر وممارسات وفنون ،
بالإضافة إلى ما يعترى كل هذا من تحولات .

فهذا بذاته هو حقل الفولكلور والاساطير ، بل إن هذا بذاته
هو مفهوم تيلور ، في مؤلفه الهام عن الثقافة البدائية ، وغوصه في
حقول الخرافات والحكايات وخوارق الجان والمأثورات الشعبية ،
فرغم التوسع في استخدامه لمجالات الفولكلور ، إلا أنه لم يستخدم
مصطلح فولكلور . ونفس الشيء يمكن ملاحظته بالنسبة لموسوعة
فريزر « الفصن الذهبي » ، وموسوعة روبرتسون سميث عن

«الاديان السامية» ، وغيره وغيره من كلاسيكيات العلوم الاجتماعية
أو الانثروبولوجيا .

هذا برغم ما أسداه الفولكلور - كعلم - لحقل الدراسات
الاجتماعية ، ولعله من المفيد تصور مدى اسهام الفولكلور في ارساء
وتقدم علم الاجتماع ، منذ ان ارسى قوائمه دوركايم ، وما تفرع
منه مثل علمي الانثروبولوجيا والانثولوجيا ، وهما العلمان اللذان
يوليان اهتمامهما الرئيسي لدراسة علم الانسان الثقافي ، مشتملا
على كافة نواحي السلوك الانساني ، على اعتبار ان المجتمعات قد
عاشت وواصلت استمرارها ونموسوها في ظل مختلف البيئات
التاريخية ، ومرت بمختلف التحولات ، الا انها لم تتخلّ كلية عن
خصائصها الاولى ، ولنقل طواطمها وتابواتها ، التي تعرضنا لها
بالدراسة . وكما أجمع علماء العصر الفيكتوري منذ ماكلينان ،
وروبرت سميث ، وفريزر ، انها - أي الطوطمية - ما تزال تحيا
وترتع - كرموز ذهنية بدائية - تحت مختلف الاشكال المتكاثرة
لحياتنا الحديثة ، فأنت تجدّها اليوم في أعلام وشارات السدول
الحديثة يستشهد في سبيلها ، كما تجسدها تطلّ برأسها في
شارات المحافظات ، والمطبوعات ، والاضرحة ، والملابس والماركات
والمطبخ الحديث الخ ...

ولقد أغفلت التعرض بالدراسة لعلاقة الطوطمية بالفولكلور ،
يهدف إعادة التعرض لهذا الموضوع على حدة ، خاصة وان المناهج
البنائية قد حققت بدراستها للطوطمية نتائج رياضية ملفتة ،
وبالتحديد ما توصل اليه العالم البنائي الفرنسي كلود ليفي
شترأوس ، الذي انصبت دراسته على علاقة الطوطمية بالظواهر ،
أو علم الظواهر . ففي رأيه ان الطوطمية كظاهرة حضارية ، تجيء
كاستجابة أو حتمية لظروف ومكونات طبيعية وبيئية . وان هناك
علاقة شعائرية أو دينية بين الانسان وطوطمه ، وكثيرا ما تتمثل
في الاشياء والمناهج المقدسة ، ولها سلطاتها الملزمة ، وان نظم
الزواج في المجتمع الطوطمي لا تخضع لارادة الافراد بقدر خضوعها
للقرابة .

فمنذ عام ١٩٢٠ رصد فان جنيب {١} نمطا مختلفا للطوطمية

في أستراليا وحدها ، وأثبت ان الكثير منها ما يزال ساريا ، برغم ان جذورها الضاربة ترجع الى الالف الثامن قبل الميلاد . فالطواطم ما هي الا ارواح أسلاف تحيا في الخلفاء ، محافظة على توارث أسماء القبائل الامومية والابوية ، كما أثبت « جنيب » ان الطوطمية ما تزال تتحكم متسلطة على نظم الزواج والطلاق والميراث والقرابة ، عند عديد من شعوب العالم خارج الغرب .

وفي طرح التساؤل عن علاقة الطوطمية بالحيوانية والنباتية ، يشير شتراوس بأن الحيوان والنبات يمدان الانسان بطعامه ، والاحتياج للطعام يستلزم المكان - أو الوطن - في المفهوم البدائي ، كما ان الحيوانات والطيور والنباتات - في بعض الحالات - تبدو اكثر قوى من الانسان ، فالحيوانات قوية ، والطيور - على رأسه ريشة - تطير محلقة في السماء ، والسماك والحيوانات البحرية تعوم في أعماق البحار والمحيطات .

فشتراوس يسألنا منذ رادكليف براون ، ويقدم تفسيراته المخالفة لتثقيفية فريزر ، وأنيمزم تيلور ، والبحث عن الاصول عند ماكلينان ، وروبرت سميث ، وأخيرا توظيفية مالمينوفسكي . فجميع هؤلاء قدموا تفسيراتهم عن البدائيين ، لكن شتراوس ربط الطوطمية بالتخلف ، حتى داخل مجتمعات ما فوق التصنيع .



على ان علاقة الفولكلور واستقلالته كعلم ، بالانثروبولوجيا ، ليست بأكثر قربا أو تطفلا منها عن علاقة الانثروبولوجيا - من جانب ثان - بعلمي التاريخ وما قبل التاريخ .

ذلك ان الفوائد الكثيرة التي يسديها الفولكلور كعلم ، لكلا علمي التاريخ وما قبل التاريخ ، تتوازي أو قد تتساوى ، مع كم استفادة الفولكلور والاساطير - بالتالي - من علم التاريخ .

وطبيعي أن يؤدي الامر في تضافر هذه العلوم الى كثير من النتائج المفيدة ، لعل أبسطها ان أي نص شفاهي أو شعيرة أو ممارسة في حياتنا المعاصرة أمكن بالفعل رصدها وتحليلها الى أدنى عناصرها أو إخضاعها للبحث والاستقصاء ، من بحث مقارن ،

وأبحاث تاريخية ، والتوصل في النهاية الى منابتها الاولى ، وهجراتها ، وما صاحبها من تحولات خلال وعبر مختلف البيئات والعصور .

واذا ما قصرنا الامر على مجتمعاتنا وحضاراتنا العربية السامية ، يمكن القول بأن الجسد الاكبر من أساطيرنا وفولكلورنا، أمكن العثور على قنوات منابعه الاولى عند السومريين اللاساميين الذين توارثهم الساميون الاوائل من بابليين وأشوريين - سوريين - وفينيقيين لبنانيين وعبريين وعرب من شبه الجزيرة ، من شماليين وجنوبيين .

فما من شك في مدى الافادة التي عمت الدراسات الفولكلورية، كعلم ، من المكتشفات الحفرية التي أجريت في مختلف بلدان عالمنا العربي ، من سومرية لاسامية في العراق ، لبابلية اشورية فيما بين وادي الرافدين ، لفينيقية في لبنان وفلسطين ، مثل مكتشفات رأس الشمر في فلسطين أو أوغاريت في سوريا (اللاذقية) عام ١٩٢٩ ، ومكتشفات البحر الميت الهامة في اسرائيل ، ومكتشفات بيبلوس الاغريقية أو جبيل بلبنان ، ومكتشفات بعلبك، بالإضافة طبعا الى مئات المكتشفات والنصوص السومرية والبابلية والاكادية بالعراق ، ومكتشفات الحفري جوزيف هالفي ود. أحمد فخري في اليمن والجنوب العربي الخ ...

وفيما يتصل بالنظريات والمحكات ، التي يمكن أن ترسي الفولكلور كعلم ، فيكفي بالطبع التقدم الكبير الذي قطعته بعض المناهج الكبرى من جغرافية وتاريخية ، ومقارنة ، في كل مناشطه، من أحاجي وحكايات وملاحم وخوارق وأغان وبالاد ، ولعب أولاد ، وممارسات ، سواء على مستوى الجمع والتنميط أو التصنيف ، أو البحث والاستقصاء بهدف تحديد كل جزئية أو فكرة أو نميطة أو ايتم أو تضمينة ، تأخذ مكانها في الترقيم على رقعة العالم أجمع .

واذا ما أخذنا بضعة أمثلة ، يمكن ملاحظة ان أساطير خلق العالم المتشابهة عند معظم الشعوب خاصة السامية وما يستتبعها

من خلق الانسان الاول أو القديم من أديم الارض ، أو طين العمق اللاذب ، أو الصلصال أو العلق ، حين أرسل الله رسله الطوطمية - الحشرية - الثلاثة ، لاحضار مادة الخلق ، ونفخ فيها فخرج من دبره ، وهي افكار حفظت في لعب الاطفال بالطين والعجين ، عن طريق النفخ فيها ، والنطق بنص " كوك كوك " .

وكيف ان فكرة الاطفال الموعودين ، الذين يسبق مولدهم أو يصحبه مجموعة خوارق ، لا يخلو منها بطل أسطوري أو ملحمي أو شعائري ، منذ ايل أو كرونس ، حتى ابراهيم ويوسف وموسى ويونس وادونيس وشعيب ، والعشرات غيرهم ، ممن تصادف تضميناتهم أي جامع ودارس فولكلور بالآلاف المؤلفة .. ونفس الشيء بالنسبة لافكار : الجارية المضطهدة - هاجر والعذراء - واربعة أركان التابوت أو الدنيا أو العالم ، أو ملائكة العرش الاربعة ، وهم في معتقدنا الشعبي المصري والعربي الاقطاب الاربعة : قطب الفوص - أو الفوث - ، وقطب البلاوي ، وقطب الرجال ، وقطب المتسولي .

فيكفي الفولكلور كعلم ، انجاز مهامه وهي كثيرة شائكة حقاً . فباحث الفولكلور مثله مثل باحث علم الحشرات ، عليه ان لا يتأفف من البحث والتشريح في حكايات ومأثورات الطيور والحشرات والهوام من ناموس لنمل لهداهد لجعارين لضفادع لديدان ، خلفت حضارتها واقوامها بنفس الاسم في حضارات عالمنا العربي ، مثل الحميرية والكلبية ، بشقيها العربي والعبري ، « كالب » Kaleb بالاضافة الى حضارات ، سوس ، وديدان ، وآلاف الحضارات الطوطمية الماثلة اليوم .



ولو ان النظرية أو التناول الذي يرى في الفولكلور - الآداب الشفاهية - نوعاً من التعبير « الفوقي » للطبقات المتوارثة صاحبة السلطة أو الارستقراطية - الثقافية والحضارية - التي كانت تورثها وتبعث فيها بالانتشار وما يخدم مصالحها مورثة أياها جماهيرها ، أو ما عرفها تونبي بالبروليتاريا الداخلية أو جماهير

الشفيلة ، وهو الرأي الذي طرحه منذ منتصف الستينات استاذنا
المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفه (١) .

وأجدني أميل الى جانب الرأي المقابل للمدرسة الروسية
المستهدفة البحث عن ملامح الاحتجاج والثورية « للمهانين
المضطهدين » ، برغم ان مثل هذا المدخل لا يحقق أقصى منفعه
في حالة التعامل مع تراثنا المصري - العربي والعبري - والسامي
بعامة .

فما أندر آداب وفنون الاحتجاج والثورية في مثل هذا
التراث الضاغط المتجبر ، المتسق كل اتساق ممكن ، وعلى كافة
أبنيته ، لخدمة أهدافه في التجهيل بمصالح جماهير المهانين
المضطهدين ، وعلى كافة أبنيته من كوزمولوجية قرابية ، وتشريعية
تولي اهتمامها الأقصى لاتساق التورث والتوارث ، والتراث
بعامة ، بما يحقق البنية الطبقية وتراكيبها .

ولعل بداية تعرفي على حقل الفولكلور والاساطير ، صاحبت
البداية التقليدية طبعا ، أي الشغف بجمع المواد الفولكلورية ،
سواء أكانت شفاهية ، أم مدونة تزخر بها وتفيض كتابات
الكلاسيكيون العرب أمثال : ابن الكلبي ، ووهب بن منبه ، والطبري ،
والمقرئزي ، وابن النديم ، وابن اسحاق ، وغيرهم .

فما ان بدأت تحقيق موادي التي جمعتها من شفاه فلاحى
مصر على طول قرى مصر الوسطى في الفيوم والجيزة وبني سويف
والمنيا ، حتى هالني ان معظم - ان لم يكن كل - هذه المواد يمكن
فعلا تعقبها - خلال الزمان والمكان - أي على كلا المستويين
التاريخي والجغرافي ، وردها بالتالي لمنابتها وأصولها الاولى .

وان معظم - ان لم يكن كل - فولكلور الشعب المصري ،
ينتمي في مجمله لتراث البلدان العربية المتاخمة والمجاورة . أي ان
هناك حقيقة عربية تتمثل أول ما تتمثل في هذا التراث المتجانس

(١) في تقديمه لأدب الفلاحين - شوقي عبد الحكيم - القاهرة ١٩٥٧ .

الواحد ، الذي يلتقي تحت لوائه المصري القديم ، جنبا الى جنب مع السوري - أو الاشوري - واليمنى القحطاني مع العربى العدناني في السعودية .

بل انه وبنفس هذا المنهج يتلقانا العالم من حولنا ، على خرائط وأطالس الفولكلور العالمية . فلا تفرد هذه الأطالس دراسة مصر بمعزل عن العراق ، ولا الشمال الافريقي بمعزل عن دول الخليج العربى وهكذا .

فلقد أصبحت حقيقة لا تقبل الجدل ، يقول بها عديد من علماء وشرح العالم القديم ، وهو انه لكى نتفهم ونستكشف دور الحضارة المصرية الفرعونية - بفولكلورها وأساطيرها - على الوجه الصحيح ، يجب أن نتسلسل بادئين بدراسة حضارة وموروثات الشرق القديم عامة ، والشرق الادنى بشكل أخص - أو مجموعة الشعوب السامية في اطار حضارة البحر الابيض (١) .

ويتحمس لهذا الراى كثير من العلماء ، منهم : برسند وجوردن تشايلد وارنولد توينبى ، والعالم الاثري المصرى أحمد فخري ، والعالم العراقى الكبير د. جواد على .

ففي الوقت الذى يجنح فيه توينبى الى عدم جدوى البحث عن بقايا مصر القديمة خلال ثنايا مصر المعاصرة ، يرى كل من د. برستد ، ود. أحمد فخري ، انه من المحتم معرفة حضارة الشرق القديم مجتمعة ، ثم الافاضة او التخصص في أي حضارة محددة من هذه الحضارات على حدة ، مثل الحضارة المصرية او القحطانية او العبرية او الكنعانية الفينيقية وهكذا .

وهو ما حاولت - جاهدا - الاخذ به والسير على هداه ، في محاولتي الدراسية هذه ، المستهدفة تعرف ملامح وموروثات شرقنا القديم أو مجموعة الاقوام السامية ، بقصد تحديد دور ومكان تراثنا المصرى الفولكلورى منها .

ويمكن الجزم بأن الاخطاء أو المفاططات أو الغموض ، الذى قد

(١) اقتصاد الحضارة - برستد - ترجمة أحمد فخري ص ٢ .

ينتاب أي حضارة مفردة منها يؤثر في مجموع حضارات الشرق الأدنى القديم عامة .

ومعنى هذا ان ضياع المدونات التاريخية لبعض هذه الحضارات المتاخمة يؤثر على بعضها الآخر ، أي ان غموض وعدم وضوح الحضارات القبلية القديمة لشبه الجزيرة العربية بقسميها الشمالي الاسماعيلي العدناني الرعوي ، في مكة والحجاز ونجد ، والجنوبي القحطاني أو اليقطاني في اليمن والجنوب العربي ، يؤثر مباشرة في الحضارة المصرية القديمة المجاورة تأثيرا مباشرا ، وكذا يؤثر في حضارات الشام وفلسطين وما بين النهرين وهكذا .

خلاصة القول انه قد تعارف علماء الفولكلور والانسانيات ، على النظر ودراسة عالمنا العربي كمنطقة متجانسة التراث ، تعرف بمنطقة الفولكلور والاساطير السامية ، والسامية هنا تعريف لغوي - اثنولوجي - اكثر منه تعريف جنسي ، بمعنى انه يتمثل في اصول اللغوية المتجانسة أو الواحدة التي تصل روافدها المبكرة الى عشرات ومئات اللهجات ، والتي اكتملت اليوم في العربية والعبرية وبعض السريانية .

فلقد اتفق علماء الاساطير والفولكلور على تقسيم قارة آسيا الى خمس مناطق متجانسة التراث ، أقربها إلينا منطقتان هما : منطقة الفولكلور والاساطير الآرية وتضم الهند وفارس - ايران - ، ومنطقة الفولكلور والاساطير السامية ، وهي تشمل الشرق الأدنى القديم ، أو الشرق الأوسط المعاصر ، أو مجموعة الشعوب التي انتهت إليها وتبلورت اللغات واللهجات السامية ، التي اكتملت اليوم في العربية والعبرية .

وطبعا كان لزاما عليّ التعرض بالدراسة لكلا التراثين العربي والعبري بالإضافة الى المؤثرات الآرية للهند وأواسط آسيا وفارس ، وبالإضافة أيضا للتراثين الهليني والروماني ، نظرا لدورهما المؤثر في مصر والعالم العربي عامة ، ولوجود امبراطوريتهما وبالتالي مؤثراتهما التراثية والحضارية قرابة ١٠٠٠ عام .

وعن هذا الطريق يمكن معرفة تراثنا المصري واعادة تفهمه ،

ونفس الشيء بالنسبة لتراث الشعب الليبي ، والعراقي وهكذا .
أي ان المدخل العلمي للوقوف على أدق خصائص الملامح
المحلية لأي شعب من شعوبنا العربية ، لن يكتمل الا في اطار المعرفة
الشاملة لخصائص المنطقة ككل متجانس ، أقرب الى التوحد منه
الى الاختلاف والتناقض .

فمعظم السير والملاحم والقصص الشعرية الطقوسية التي
يجمعها جامع ودارس الفولكلور في مصر ، يمكن أن يعثر على
متنوعاتها زميئله التونسي والعراقي والليبي في بلاده مثل :
سيف بن ذي يزن ، وسيرة الهلالية أو بني هلال ، وسير وملاحم
التباعدة - جمع تبع - مثل الزير سالم ، وعزيرة ويونس ، ويوسف
وزليخة ، وسارة وهاجر ، والقميص - قميص النبي محمد - ،
وزرقاء اليمامة ، وبراقش ، وعلي الزبيق ، والاميرة ذات الهمة .

وكذا كل ما يتناقل شفاهيا ، عن قصص وحكايات الخلق
والسقوط والطوفان واغتيال الاخ لاختيه ، وكل ما يتصل بولادة
وتربية الانبياء الموعودين : ابراهيم ، ويوسف ، وموسى ، وداود ،
وادم ، ويونس ، والخضر ، وشعيب . أي يمكن الحصول على
مترادفات وتنوعات هذه الاساطير والملاحم والقصص والبالاد
والخرافات على طول العالم العربي .

كما ان من المفيد معرفة ان معظم هذه السير والملاحم
والقصص الطقوسية هي في حقيقتها أشلاء أحداث تاريخية
ومناسبات أريد بها الحفظ والتذكير ، كأعياد العيد الكبير والصغير
وعاشوراء ، والجمعة الحزينة ، وبشر زمزم ، وشم النسيم ، وعديد
من المناسبات التقويمية .

فهذه الملاحم والانشيد الروائية ينظر اليها كمدونات تاريخية
» وهكذا دخلت في المؤرخات الاولى عناصر الملحمة والقصة
الشعبية « كما يقول عالم ما قبل التاريخ جوردن تشايلد (١) .
» بل ان الرواية الادبية التقليدية العربية ، استفادت من الرواية
الدينية والتاريخية ، وما اصطنعت من ضوابط « (٢) ، كما يقول

(١) التاريخ - جوردن تشايلد - ترجمة عدلي برسوم ص ٥٣ .

(٢) الهلالية في التاريخ والادب الشعبي : د. عبد الحميد يونس ص ٨٢ .

الدكتور عبد الحميد يونس .

ولعل المشكلة الرئيسية التي واجهتني في محاولة عمل المأمة سريعة لتاريخ منطقتنا هذه التي نعيش أحداثها العنيفة المتجددة ، تبلورت في غياب وجود تتابع تاريخي واضح الى حد ، أو هو متواز مع تاريخ الشعب المصري أو العراقي القديم .

من ذلك افتقاد شبه الجزيرة العربية لتاريخها المبكر السابق على مجيء الاسلام ، وهي الفترة التي يطلق عليها اعتبارا بالجاهلية ، وان كانت - هذه الجاهلية - تزدهر بالعديد من النشاطات الابداعية الحضارية المرصودة اركيولوجيا أو علميا ، تصل الى قرابة ٤ آلاف عام قبل الميلاد . وللجنوب العربي في اليمن ودول الخليج حضارته وتراثه الاسطوري والعقلي - الموغل في القدم والعراقة .

وليكن واضحا انني لا أكتب تاريخا بقدر ما انا أبحث عنه محاولا استخدامه لارساء ضوابط ومحكات تراثية أو حضارية على قوائمها يمكن ارساء معالم تتابع تراثي ، عصرا اثر عصر ، أو جيلا اثر جيل ، ان شابه شيء فهو أقرب الى تتابع الصخور الرسوبية بعضها فوق بعض .

فكما هو مفهوم يصبح الفولكلور بلا قيمة تذكر ، ما لم يتحدد تاريخه ومنبته الجغرافي ، وهجراته ، وما طرأ عليه من تغييرات خلال الزمان والمكان .

وعلى هذا أدت المناهج البنائية ، التي موجزها تكاتف مجموعة علوم ذات أهداف ومستويات استراتيجية ، في الكشف عن ظاهرة أو مجموعة ظواهر .

وبهذا أصبح لا غناء لعلمي الاساطير والفولكلور عن علمي ما قبل التاريخ ، والتاريخ .

كما أصبح في مقدور علم الفولكلور اعسادة انارة وتوضيح المدونات التاريخية واعادة ضبطها وتحريكها من أقدم مواقعها .

فما من اضافة كشفية اركيولوجية أو حفريّة ، لم تسهم بشكل ايجابي في اعادة توضيح وتكامل جزئيات هذا التراث الهائل لشرقنا الاوسط ، الذي وهب العالم أديانه الثلاثة الكبرى : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .

وما من اضافة مدونة كانت أو شفاهية ، لم يترتب عليها دوام الهدف المستهدف - أصلا - لتوالي البناء واستقامته .

وعلى هذا فالعلاقة وثيقة بين التاريخ وبين التراث الاسطوري والفولكلوري ، أو بين الانثوجرافيا وبين الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ويمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية - محتوية - أو متضمنة الاساطير ، أحد المركبات الهامة اليوم ، في إعادة بناء تاريخ الجسد الحضاري لأي شعب أو مجموعة من الشعوب .

ففي مقدور مثل هذه الدراسات الجديدة الشابة ، تلك التي تستهدف أول ما تستهدف ارساء أكبر قدر من التسامح القائم على الفهم ، كما يقول أحد روادها الاوائل - سير جيمس فريزر - في نهاية موسوعته المعروفة بالفنن الذهبي البالغة ١٤ مجلدا .

في مقدور الدراسات الموضوعية البعيدة عن محاولات نطش جدران التعصب ، أن تعيد ارساء وتشكيل معالم تاريخ جلي واضح لحضارات شرقنا العربي ، الموغلة في العراقة .

على ان هذا التاريخ الثقافي أو الفكري سيكون مرتبطا أشد الارتباط وأوثقه بحركة جماهير شعوب منطقتنا العربية أو السامية ، وصراعاتها المستهدفة للتوحد والتجانس .

ومفهوم طبعاً ان مثل هذه العلوم الانسانية ، قطعت مرحلة كبيرة من الرصد والجمع والتصنيف على مستوى العالم اجمع ، وتوصلت الى نتائج علمية وصلت الى حد استخدام الاجهزة التكنولوجية ، من عقول أليكترونية وآلات حاسبة ، ومناهج رياضية ، فأصبح هناك اليوم عقول أليكترونية متخصصة : فسي أفرع الفولكلور والاساطير المختلفة ، عقل أليكتروني متخصص في حكايات الحيوان ، وآخر للزواحف ، وثالث لخرافات الجان ، ورابع للحشرات والهوام والنبات وهكذا ، وهو ما ينجز بتوسع في دول شمال أوروبا ، وفرنسا وأيرلندا .

وما أحوجنا اليوم الى الاستفادة من حركات عقلنة التراث التي تجري من حولنا بهدف مضاعفة التنمية ، من مادية وبشرية وعقلية .

كما انه ما احوجنا - هنا في مصر - الى قيادة حركة تنوير
حقيقية ذات جذور ، تبعث باشعاعاتها على طول منطقتنا العربية
وتسهم بشكل علمي حقيقي في شعارات اعادة بناء الطاقات العقلية
للانسان المصري والعربي ، استجابة لشعارات الدولة العلمانية ،
واعادة بناء الانسان الاشتراكي المصري الصاعد .

وكم سيكون مفاجعا ان تكتشف الاجيال القادمة مدى سيطرة
الخرافات على العلم ، ومدى تعنت الاساطير وجبروتها في الدفع
والتحكم في حركة التاريخ ، كما يقول فريزر .

شوقي عبد الحكيم

الفصل الأول

مثلاً كل التراث العربي السامي

من المؤكد أن عديداً من المشاكل تعترض الباحث في تتبع أصول أساطير وفولكلور هذه المنطقة التي نتنفس أحداثها ، وهي منطقة الشرق الأدنى أو الأوسط ، خلال الزمان والمكان ، ومرجع هذه المشاكل عدة عوامل أو صعوبات ، أولها قلة الجهود التي بذلت في هذا الحقل البكر ، سواء منها ما يتصل بالبحث في المصادر الأولى أو المصادر الأم من وثائق ومدونات حفريّة ونصية ، أي ما أوضحت الكشوف الحفريّة أو المسماريّة الآثار العراقيّة وحضاراتها المتعاقبة ، من سومريّة - لا ساميّة - إلى البابليّة والاكاديّة والآشوريّة . وما أوضحت الحضارات القبائيّة في الجزيرة العربيّة ، بقسميها الشماليّ العربيّ البدوي - في السعوديّة اليوم - والجنوبيّة القحطانيّة الحميريّة الزراعيّة ، في اليمن والجنوب العربي . وما أوضحت الكشوف الحفريّة للحضارة الكنعانيّة الفينيقيّة وطليعتها البحريّة في لبنان وفلسطين ، بالإضافة إلى ما ضاع وانقرض ، من مدونات نصية - غير حفريّة - التي وردت في شكل نصوص مدونة في الكتابات المبكرة في كتب الكلدانيّين والآراميين واليهود والسريان والانباط والحرانيّين والتي منها انحدرت فرق ونحل الملل المنقرضة مثل الدهريّة والصابئيّة والثنوية والديصانيّة والمجوسية والنشابة ، والمثبات غيرهم . هذا

بالإضافة الى المئات من كتب ومؤلفات العلماء والكتاب والرواة من العرب وغير العرب ، مثل وهب بن منبه ، والالوسي ، وعبيد بن شرية الجرهمي ، وكعب الاحبار ، ومحمد بن اسحاق ، والدميري ، والازرق ، والبلخي ، والقزويني ، والهمداني ، والساجستاني ، وابن وحشية الكلداني ، والطبري ، وابن قتيبة ، وابن النديم ، وابن كمونة .. وهكذا .

وكتابات هؤلاء أصبحت اليوم مصادر شديدة الاهمية بالنسبة لدارسي حضارات وأساطير الشرق الادنى القديم ، تجيء أهميتها مباشرة بعد المدونات التاريخية الاركيولوجية .

وعلى سبيل المثال : فقد كان اكتشاف الجزء الثامن من كتاب « الاكليل » للعالم العربي الكبير محمد الحسن بن يعقوب بن يوسف ابن داود المشهور بالهمداني ، والذي يصف فيه قلاع اليمن القديمة وقصورها وجانبها كبيرا من حياتها الاجتماعية ومعتقداتها ، وهو الكتاب الذي أجلى الكثير من الغموض والذي « يتضمن محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ، ومراثي حمير والقوريات » . وكذلك اكتشاف الجزء العاشر من نفس الكتاب الذي يتحدث فيه الهمداني عن قبائل اليمن ومملكة سبأ وحمير التي دان لها العالم اجمع منذ بداية الالف الثالثة قبل ميلاد المسيح .

هذا رغم ان ثمانية أجزاء كاملة فقدت تماما من هذا المدون النادر ، من بينها الجزء السابع الذي تناول فيه الهمداني الاساطير والخوارق - والحكايات المستحيلة - لليمن الغابرة ، وكذلك جزءه الثالث عن « فضائل قحطان » .

وهذا يقودنا للحديث عما فقد من مدونات التراث الحضاري للعالم العربي النادرة ، من كتب « الاشارة في السحر » و « أسرار الكواكب » و « الحياة والمسوت » و « القرابين » و « الاصنام » و « كتاب هرمس في النشر والتعاويد والعزائم » و « نوادر جحا » و « نوادر ابن احمر » و « كتاب الفأل لاهل فارس » و « حديث ابن الدكساني » ، وأغلب مؤلفات المدائني ، وابن وحشية الكلداني - وهو من ولد سنحاريب ملك آشور - وكتبه في السحر ،

ومذاهب النبط أو الانباط ، ومذاهب الكلدانيين ، وكذلك كتب علي بن زين النصراني « في الآداب والامثال على مذاهب الفرس والروم والعرب » . كما فقدت أغلب كتب ابن طالوت وصالح بن عبد القدوس وعلي بن ثابت وأبو عيسى الوراق وسهل بن هارون وعلي بن داود ، وشيلي - صاحب مذهب الشيليين - وتلميذه بابك بن بهرام وابن اسوري أو أشوري وغيرهم .

بل ان خزائن كتب ومكتبات بكاملها قد ضاعت وانقرضت تماما ، وكان يمكن لهذه الكتب والمدونات لقاء بعض الضوء على ما انقطع من أحقاب تاريخية بكاملها أصبحت لدى الدارس الحديث مظلمة مسدودة قاحلة .

منها على سبيل المثال : اخبار وأساطير القبائل العربية ، التي يرجعها البعض الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، والتي بيدت دون اثر ولم تخلف ما يدل على تراثها وملحمها ، مثل قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم من القبائل التي محيت من الوجود وانتهت بكامل أسمائها وأنسابها ، وتعارف عليها باسم العرب البائدة ، أو الغابرة ، أو العاربة .

وعلى هذا تعارف المؤرخون والنساب ، على بقايا القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية باسم العرب « الباقية » أو المتعربة ، أي عرب الجاهلية الاولى والثانية .

وقسموهم الى قسمين : شماليين أو عدنانيين أو اسماعيليين - في نجد والحجاز - وجنوبيين هم القحطانيون ، نسبة الى قحطان - أبو اليمن - وهو قحطان بن عابر أو النبي هود أبو الملوك اليمنيين ملوك دول سبأ وحمير ومعين ، والدولة الاخيرة امتد سلطانها حتى شواطئ البحر الابيض المتوسط والخليج العربي وبحر العرب ، الى جانب استيلائها على جميع مناطق شبه الجزيرة العربية .

يقول ابن خلدون في تاريخه عن ملوك حمير : « كانت الدولة والملك فسي بني قحطان متصلة من يعرب ابن قحطان ، وكان من اعظم مسلوكة اليمن ، ثم تسلسل الملك الى سبأ بن يشجب بن يعرب ، ثم فسي دولة كهلان وحمير ، ثم اولادهمسا » .

وقبل التعرض بتفصيل ، عن ممالك سبأ وحمير ، وما خلفته حضارتهما في تراثنا الشفهي المعاش اليوم ، نعود الى استكمال ما بدأناه عن مشاكل الدراسة شبه الدقيقة لتراث هذه الشعوب السامية التي اتفق علماء اللغات - الاثنولوجي - على تقسيمها الى ثلاثة أقسام :

يعرف أولها بالقسم الشرقي أو البابلي الآشوري في العراق .
والثاني يعرف بالقسم الغربي أو الكنعاني أو الآرامي في الشام وفلسطين .

ويعرف الثالث بالقسم الجنوبي أو الغربي في الحجاز واليمن .

وقد اتفق اللغويون والمستشرقون ، نظرا لظروف جغرافية واجتماعية وتطور طبيعي ، على إعادة تقسيم المجموعة السامية الى ثلاثة أقسام لغوية هي :

القسم الغربي ولغاته ولهجاته الكنعانية والاخلامية والفينيقية والبنونية والآرامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والموآبية والأمورية .

أما القسم الجنوبي ، فتنقسم لغاته الى لغتين :

أولاهما العربية ولهجاتها هي : العربية القديمة - أو الآرامية - والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية .

وثانيتهما الحبشية أو الجعزية ، وهي لهجة حضرموت القديمة التي نشرها اليمنيون في الحبشة منذ منتصف السنوات الالف قبل الميلاد ، حين غزت جبال الحبشة جفوع من حضرموت ، واستوطنت فيها ، ونشرت اللغة الجعزية التي ما زالت سارية ، يمكن تلمسها في بقايا الطقوس الدينية للكنيسة الاثيوبية ، بعد أن حلت محلها اللهجات التيجرية والتيجرائية والإمهرية والهررية .

وتندرج كل هذه اللغات واللهجات - التي اندثر مجملها ولم يتبق منها سوى العربية والعبرية - تحت منطقة أساطير وفولكلور

ما يعرف بالشعوب السامية أو العربية بحسب ما يراه سبرنجر
« من ان جميع الساميين عرب » .

واذا ما تناولنا القسم الشرقي للاقوام السامية أو العربية في
العراق وما بين نهري دجلة والفرات عامة ، وهي الاقوام أو
الحضارات الاكادية والبابلية والآشورية ، التي توارثت حضارة
السومريين . واساطيرهم وآلهتهم ومعتقداتهم . وترجع أولى
بدايات ممالك هؤلاء الساميين الى منتصف القرن الرابع والعشرين
قبل الميلاد من حوالي ٢٣٥٠ ق.م .

وعن هذا القسم الشرقي السامي ، أي البابلي ، سرى تراث
الاقوام السومرية الاكادية المندثرة - مثلها في ذلك مثل العرب
البائدة - الى بقية الاقوام السامية الاخرى ، من امورية وكنعانية
وآرامية وعبرانية وعربية في ربوع الشام وشبه جزيرة العرب
بقسميها الجنوبي القحطاني في اليمن ، والشمالى العدناني فسي
الحجاز ونجد ، الى جانب بقية الاقوام السامية المتأخرة في الشام
وما بين النهرين ، مثل قبائل كهلان المتفرعة من صلب سبأ بن
يشجب بن يعرب بن قحطان أبو اليمن - اول من تكلم العربية -
والذي منه جاء الحميريون التابعون ملوك اليمن ، وآخر ملوكهم كان
الملك سيف بن ذي يزن الحميري ، بطل السيرة والملحمة الشفاهية
المعروفة .

ومن كهلان - شقيق حمير - جاءت أشهر بطونها قبائل الازد
- الذين تفرقوا عقب خراب سدود اليمن ، وكان أهمها سد مأرب ،
وسد الخانق بصعدة الذي بني في عهد الملك سيف بن ذي يزن ،
وسد ريعان « لابن ذي مازن » ، وسد سنان وعنس وجيرة ،
وسدود يحصب ، التي يقول عنها الهمداني : « وهي على ما كنت
أسمع ثلاثون سدا ، وقيل ثمانون ، ومنها سدود سحر ، وذو
سمال ، وذو رمين ، ولحج ، ومفاضة ، وهران ، والشبماني ،
والمنهاد ، ولطاف » ... الخ .

ومن قبائل كهلان ، جاءت قبائل الفساسنة ملوك الشام ،
وايضا قبائل الاوس والخزرج الذين هاجروا من اليمن ونزلوا

المدينة ، ومنهم جاءت قبائل خزاعة - ملوك الظهران - الذين نزلوا
الظهران وأصبحوا ملوكها .

كما ان من قبائل كهلان جاءت همدان ، ومن أصلاب الهمدانيين
انحدرت قبائل كندة وطيء وخثعم وبجلة ولخم وجدام ، ونصر بن
ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

ويقال ان النخل او التمر ، كان من أعظم العوامل التي
اجتذبت هؤلاء الساميين الرعويين المعدمين من شبه الجزيرة
العربية الى أرض بابل ، وبناء على ما رواه المؤرخ سترابون الذي
ذكر ان الفارسيين قالوا في النخيل شعرا « عدّ فيه نحو ثلاثمائة
وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والانتفاع بها » .

ويبدو ان ثروات واخصاب دلتا الفرات لعبت دورها الجاذب
لتلك القبائل البدوية غير المتحضرة . يقول هردوت :

« على ان بابل كانت كمصر ، كثيرة الترع والقنوات ، ومنها ما كان كافيا
لتسيير السفن المتجهة جنوبا من الفرات الى دجلة حيث تقع « نينوى » الشهيرة
بخصبها ووفرة حنطتها * ولشدة الخصب كان عرض ورقة النبات يبلغ اربعة
فرايط » *

ولقد اتصلت الجزيرة العربية منذ فترات مبكرة بما يجاورها
من حضارات زراعية أو نهريّة ، مثل الحضارات البابلية والفارسية
وحضارات جزر البحر الابحدي ثم الرومان ، وأخذوا عنهم الكثير
من تراثهم الحضاري والعقائدي . ولعب قيسام مملكتي الحيرة
والفساسنة على أطراف الدولتين الفارسية والرومانية اثره بالنسبة
لهاتين الحضارتين المتميزتين ، أي حضارة النهر والزرع
والاستقرار ، وحضارة البدو والوبر والاغارة والاستقرار .

ولقد تبدى هذا التمايز أو التناقض بين الحضر والبداءة ،
في كلا الترائين المدون والشفاهي ، وكذلك تبدى بشكل متواصل
في الحياة الاجتماعية للشرق الأدنى عامة ، مثل الصراع بين العرب
العدنانيين أو المعديين سكان الحجاز ، والقحطانيين سكان اليمن .

فتبدى أسباب الصراع بين الحضارة والبداءة ، في الاغارات

المتوالية على موارد المياه ، وتمثل هذا الصراع أكثر - فيما بعد - بين عرب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون ، وأهل مكة العدنانيون ، ويدور الصراع بين أبناء الأب الواحد مثل صراع بني هاشم وبني أمية بمكة ، وعيس وذبيان من قيس ، وبكر وتغلب من ربيعة ... الخ . ولقد أيدت بعض الكشوف الحفرية المتأخرة ، ما جاءت به المصادر العربية عن ملوك اليمن القديمة ، الذين يعرفون بالعرب البائدة أو المندحرة ، وهي قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجهرم وغيرها من القبائل الموغلة في القدم ، والتي ما من شك في أنها ترجع الى ما قبل الالف الثالث ق.م . ، وهي القبائل التي أهلكها التناحر القبلي المتواصل لأسباب غريبة لا تتعدى القحط والجذب والعصبية القبلية العمياء وعبادة السلف . فمثلا أفنت قبائل عاد معاصريها قبائل بني عفير بن لقيم بسبب جور رأس بني لقيم ، سالم بن هزيمة ، الذي أذلّ امرأته شقيقة لقمان بن عاد ، وعندما نشبت الحرب بين القبيلتين ، هزمت قبائل عاد قبائل لقيم حتى أفنواهم عن آخرهم ، ولم يتركوا منهم أحدا الا امرأة يقال لها صنيعة من بني عمرو بن لقيم ، كانت متزوجة في قبيلة ثمود رجلا من أشرافهم ، فولدت له رجلين يقال لهما الوضيع وغانم .

المهم ان هذه المرأة ، التي بيدت قبيلتها عن آخرها ، عادت فحملت انتقامها وسارت بولديها لاجئة الى « أختها من قبائل ثمود بن عابر بن ارم بن سام ، وهم يومئذ أمنع العرب وأعزهم » وتسببت هذه المرأة في اشعال لهيب حرب جديدة انتقامية بين عاد وثمود « فقتلتهم ثمود جميعا حتى أفنواهم عن وجه الارض » .

وطبعا كان لهذه القبائل المندثرة التي نحن بصدد الحديث عنها بقايا أساطيرها العرقية الضمنية ، التي تقول بأن الصحيفة التي أنزلها الله على آدم ثم نوح وابنه سام وابنه عابر أسلمها بدوره لابنه يعرب ، قائلا : « أنت يا ابني صاحب الصحيفة ، سيقال لك وتقول فاضرب بما في يديك » ، الى أن تبليت اللسان في حادث بناء مدينة بابل وبرجها الكبير ، « وانقسمت اللسان الى ٧٢ لسانا وأجرى جبريل على لسان كل أمة لفتها » ، فنطق الناس باللسان العجمي والعربي ، وأفصح يعرب بالعربية ، وهود

أبوه « أما قبائل عاد و ثمود وطسم وجديس وعملاق ورائش فانهم نطقوا مع ابن عمهم عابر بالعربية فأدركتهم بركتها ، وشرفوا وتغلبوا على جميع من كان معهم من اللسن ، حتى زهوا على الناس ، وأظهروا فيهم الطغيان ، وأشرفوا على الناس ، وكانوا كذلك الى حين والناس اذ ذاك ببابل » .

يقول الطبري مؤكدا قدم هذه القبائل ، انه وبعد ان خلق الله العالم « خلق مـدينتين (عاد و ثمود) بالسريانية ، ومركيسيا وبرجيسيا ، ولكل مدينة منهما عشرة آلاف باب بحرآسهم ، ولولا جلبتهم وضجيجهم ، لسمع الناس من جميع أهل الدنيا هدة وقعة الشمس حين تطلع وحين تغرب ، ومن ورائهم ثلاث أمم : منسك ، وتافيل ، وتاريس ، ومن دونهم يأجوج ومأجوج » .

ومرة أخرى يشير المسعودي ، بما يؤكد ان بقايا هذه القبائل البائدة أو المندثرة ، أي جرهم والعماليق ورائش ، كانت أسبق في الوجود من نظائرها أو أشقائها من العرب العدنانيين ، الذين هم من نسل اسماعيل - أعظم صيادي البرية - ابن النبي ابراهيم من هاجر المصرية جارية سارة أو ساراي « زوجة ابراهيم وابنة عمه وأخته في الرضاعة » ، وما هو معروف عن صراع هاتين الضرتين ، فلما كانت سارة الزوجة الحضرية - أم القبيلة - عقيما وولد لابراهيم اسماعيل من هاجر فقارت سارة ، وحمل ابراهيم هاجر وابنها اسماعيل الى مكة فأسكنها بها وتركها وابنها عائدا وشاكيا « ربّ اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » .

يقول المسعودي :

« فأنس الله وحشتهم بجرهم والعماليق ، وجعل افتدة من الناس تهوي اليهم » .

ومعنى هذا ان بقايا هذه القبائل المندثرة ، أي جرهم والعماليق ، كانت موجودة ، بزمان سابق على وجود أشقائهم العدنانيين ، وكذلك العبريون نسبة الى الفرع الانثوي أو الاموي ، وتواصل أسطورة أرض ميعاد يعرب بن قحطان ابن النبي

هود ، الذي ارسله الله الى ارض بابل نبيا (والى عاد اخاهم هودا) وكيف ان هودا رأى رؤيا « كأن آتيا آتاه ففسال له يا هود ، اذا ضربت رائحة المسك اليك والى أحد من ولدك من ناحية من نواحي الارض ، فلتتبع تلك الناحية من رائحة المسك ، ذلك النسيم حتى اذا كف عنه نزل ، فذلك مستقره » .

يقول وهب بن منبه الحميري : « وان يعرب بن قحطان بن هود ، وجد رائحة المسك ، فقال له هود : أنت ميمون يا يعرب ، أنت أيمن ، ولدي مر فاذا سكن عنك ما تجده ، فانزل بأرض اليمن لا تمر ، فانها لك خير وطن » .

خلاصة القول ، انه ما من شعب أو رهط أو قبيلة ، لم يحفظ لها تراثها وتاريخها أسطورة أرض ميعاد ، تحدد لها أرضها ووطنها . لكن مشكلة المشاكل ، هي في ضياع وافتقاد هذا التراث ، على مرّ عصور الاضمحلال الطويلة الثقيلة القاسية .

الفصل الثاني

« أساطير السومريين عند العرب الساميين »

واذا ما حاولنا تتبع المراحل التي قطعها تطور الآلهة والأساطير السومرية ، بعد أن توارثها الكلدانيون والبابليون والآشوريون ، أي الفرع السامي سكان الحضر في دلتا العراق ، ثم كيف انتقلت عبرهم إلى القبائل العربية أو السامية الأخرى في مكة والحجاز واليمن والشام وفلسطين ، وما لحقها وطراً عليها من تغيير وتبدل وإضافات ، نجد الآثار السامية قد كشفت أن الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون بأوثان الآلهة السومرية التي توارثها الكلدانيون من أسلافهم السومريين اللساميين القدماء .

فلقد كانت بابل وآشور هما بمثابة المنبع الأكثر خصوبة وتحضراً والذي فاض على ما يجاوره من تخوم وقبائل ، مثل القبائل العربية ، على طول شبه الجزيرة ، بل ومن نفس أور الكلدانيين بين النهرين خرجت ونزحت قبائل إبراهيم وآشور السامية إلى الشام وفلسطين قبل انتهاء الألف الثالثة قبل الميلاد .

وكشفت الدراسات الأسطورية المقارنة عن أن هناك أساساً أسطورياً عقائدياً بل لاهوتياً مشتركاً لأغلب هذه الشعوب السامية منذ أكثر من ألفي عام قبل الميلاد ، سواء فيما بين النهرين أو في

مكة واليمن والشام وفلسطين . فاذا ما أخذنا مثالا بسيطا : فالاله الكلداني البابلي بعل الذي من اسمه تسمت بعلبك في لبنان ، ظهر منذ بداية الالف الثالثة ق.م. عند البابليين باسم « بل » ، وعنهم أخذه الكنعانيون ولقبوه بالسيد ، أي « زوج » ، وجمعها بعليم « قضاة - ١١ - ٢ » والضيغة المؤنثة منه هي بعليت أو بعلاية .

وعرفت ديانة البعل - كاله ولقب - في سوريا وفلسطين منذ بداية الالف الثانية قبل الميلاد . ثم تطورت ديانته ودخلت في اللاهوت المحلي ، بعد ذلك الزمن ، فأصبح لكل مدينة بعلها أو ربها الحامي ، وتنوعت ألقابه ، فالالهة « ميلكارت » كانت بعل طيرة ، بينما أصبحت « عشتروت » هي البعللة الانثى في بيبلوس . وعندما نزل الساميون الاوائل فلسطين ، وجدوا عديدا من الاماكن - غير السامية - المقدسة ، مثل الاشجار والجبال وآبار الماء ، فأطلقوا على كل منها اسم بعل ، وعن هذا الطريق عبد سكان كل مدينة بعلها المتفرد كاله محلي ، وبتوالي العصور دخلت ديانة البعليم لدى كل شعوب الشرق الادنى القديمة ، فأصبح الها للسماء ، بل انه توحيد بالسماء ، وانزال المطر ، وعرف ببعل شيم عند شعوب آسيا الغربية ، كما توحيد مع حرارة الشمس التي منها ينبت النبات ويكثر الاخصاب ، كما ان من ألقابه التي عرف بها اله التنبؤ . ومن اسم بعل جاءت تسمية البطل القرطاجني هانيبال - وقرطاجنة كانت من أقدم المستعمرات الفينيقية ، كما ان من أسمائه الاخرى بعل قبيلة جاد ، وبعل زيفون ، وبعل زيبوب أو الذباب . كما ان البعل توحيد بالاله السومري الذي توارثه الساميون وهو الاله ميردوخ أو مردوك ، والذي أصبح الوريث الشرعي لسلطان الاله الآشوري آشور ، الذي تضاعف نفوذه عقب اضمحلال آشور ، وكان يعرف باسم « بعلو » .

يقول « أورث » في كتابه « ديانة البعليم » ان بعل العبري هو بنفسه الاله « هبل » اله قبيلة قريش في مكة . . وقال : « وفي اعتقادي ان عبادة البعليم ليست بعبادة فلكية أو تنبؤية في منبتها الاصلي ، ذلك لان علم النجوم لم يعرف في آسيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين » .

ويرى المستشرق تولدكه : « ان اللقب الالهي بعل - أي السيد او الزوج - كان معروفا لدى الساميين الشماليين ، وعنهم توارثه عرب شبه جزيرة سيناء ، فعرف عندهم باسم « بعلو » ، ووجد في النقوش عقب أسماء الاعلام مثل « عبد البعلي » و « أوس البعلي » و « جرم البعلي » .

يقول ابن حزم ، ان في بعض كتب اليهود تفسيراً لتيه بني اسرائيل مع موسى في سيناء « حتى ماتوا كلهم ، انما كانت لان فرعون كان قد بنى على طريق مصر الى الشام صنما سماه بعل صفون ، وجعله طلسماً لكل من هرب من مصر ، يحيره ولا يقدر على النفاذ منه » .

ويرى تولدكه ان عرب شبه الجزيرة العربية ، اخذوه عن عرب شبه جزيرة سيناء وعنهم « عرفوه لفظاً ومعنى » ، ووجد في التنزيل « اتدمعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين » .

ويقال ان أول من استقدمه الى مكة هو عمر بن لحي الجرهمي ، فقد قدم بصنم يقال له « هبل » ، وكان هبل من أعظم أصنام قريش ، فنصبه على البئر في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل اذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، « وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة « الاخسف » والعرب تسميها « الاخشف » ، كما يقول الازرق في أخبار مكة .

ونظراً لان الساميين بعامة قدسوا موارد المياه ، واعتبروها مهبط عرش الله . فان اقامة هذا الاله الجديد ، بعل أو هبل ، على بئر ماء يشير الى علاقته بالرزق والاختصاص عند العرب ، كذلك عرف بكونه الاله واهب النعم ، لدى القبائل العبرية .

وكان العرب يقسمون به كرب للارباب ، كما كانوا يضربون القداح عنده قبل اقدامهم على حفر بئر جديدة ، وضرب القداح عند العرب يشير الى القضاء والقدر والمكتوب والوعد والحظ والقسمة والنصيب ، وغلبة الزمن والدهر ، كما كان عندهم آلهة للبخت اخذوها عن الحرائين .

وينسب لعمر بن لحي الجرهمي ، انه اول من جاء بأصنام
هذه الآلهة من الكلدانيين - العراقيين - والانباط ، ونصبها
حول الكعبة .

وكان تمثال الاله « بعل » أو « بيل » عند الكلدانيين
الآراميين ، على هيئة ملك جليل جالس على عرشه ، وعلى هذا
عارف عليه العلماء عندما وجدوه في الكعبة ، وعرفوا على الفور
نه الاله دخیل مجلوب من الخارج . يقول الكلبي صاحب كتاب
« الأصنام » : « كان فيما بلغني ، من عقيق أحمر ، على صورة
لإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلوا له يدا من
الذهب » .

وفي إحدى الملاحم الشعرية الكنعانية عن صراع البعل ، كاله
للسماء ، يتبدى البعل كاله للسماء ، « متلفحاً بالسماء لباساً » .
وتروي قصته كيف انه أغري بالنزول الى العالم السفلي ، واحتجزته
الشياطين من أعدائه ، لكنه قاومهم بنبوته المطلسم ، واستطاع أن
يعود ثانية الى عالمه العلوي « عند قمم أشجار السنط المرتفعة » .
كما يتبدى البعل الكنعاني في هذه القصيدة ، وهو يحيا في خوف
دائم من أن تتمكن حيتان البحر من اختطاف بناته الثلاث ، وهن
« اللات والعزى ومناة » .

والملفت ان هذه الملحمة الاسطورية ما تزال تعيش على الشفاه
الى اليوم ، باسم حدوتة « ساعد الدين » .
وفي بعض المصادر العبرية - المداش - يتبدى البعل كقرين
للريح . والبعل هو أصل الاله العبري - يهوه « فالاله يهوه هو
أيضا كان ریح الشمال في الازمان المبكرة ، أي قبل أن يصبح الها
ساميا رفيعا » .

وظل على صورته هذه حتى عصر الملك داود حين خاطبه :
« عندما تسمع صوت أقدام في رؤوس أشجار البكاء حينئذ
احترس ، لانه اذ ذاك يخرج الرب أمامك » .

ويبدو ان العبريين كانوا قد استعاروه من الكنعانيين
- الشوام - الذين عبدوه كاله وحاكم على العالم الآخر الشمالي ،

أما فلسطينيو - عكرون - فقد اتخذوه الها للتنبؤ ، كما أن من ألقابه « سيد الشمال » ومن اسمه تسمت قبيلة زبولون ، وزار وحيه الملك اشعيا ملك إسرائيل في عكرون (الملوك الثاني - ١٠) .

كما يرى البعض أن البعل هو الأصل الذي منه جاء الإله آشور في الميثولوجي الآشوري ، وكان يصور على هيئة نسر له رأسان وجناحان مقدسان ، في هيئة المحارب ، وتظهر عشتروت كثيرا كزوجته وشريكة حكمه . كما يرى البعض أن عاشوراء (أول شهور السنة الإسلامية) أو أهورا الفارسية من بقايا شعائر الإله آشور ، الذي من اسمه تسمى الملوك الآشوريون .

وبعل أو هبل هو الإله الذي عناه الملك الكاهن الجاهلي الشاعر عمر بن لحي الجرهمي بقوله : « أن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة » .

فلقد كان للإله بعل أو هبل ، رب الأرباب في الميثولوجي البابلي ، بنات ثلاث ، هن « إيرشكيجال » إلهة العوالم السفلى أو الجحيم ، وأخواتها الإثنيات « ماماتو » و « عشتار » أو « عشتروت » ، وهن « الآلهات الثلاث اللاتي عرفن بـ « بنات الله الثلاث » .

فاللهة العوالم السفلى والموت والظلام . إيرشكيجال عند السومريين ، والتي عنهم أخذها خلفاؤهم وورثتهم الساميون البابليون ، ولقبت باسم « اللات » للمرة الأولى في إحدى قصائد الفروسية البابلية ، وهي ملحمة الملك ازدوبار الذي يرى البعض أنه هو بعينه نمرود الجبار ، الذي ما تزال تتواتر حواديته على طول الشرق الأدنى ، مع الخليل إبراهيم .

وايرشكيجال هي بروسر بين ملكة المناطق السفلى أو عالم تحت الأرض عند الآسيويين ، سكان غرب آسيا ، أو الشرق العربي بعامة ، كما أنها برسيفون عند الإغريق ، وهي اللات عند البابليين والقبائل العربية ، من مكية ويمنية ونبطية ، ويبدو أنها كانت عند منشئها آلهة شمسية ، مما يؤكد قول عمر بن لحي الجرهمي :

« ربكم يتصيف باللات » من انها كانت الهة فصل الصيف والقيظ والشمس المحرقة بجديها وعطشها ، عند العرب المكيين .

كما ان اللات عندما دخلت الميثولوجي السوري ، أصبحت قرينة الاله « حداد » ، اله المطر ، ولقبت بربة البيت عند الانباط ، كما تشير بهذا حفريات بعلبك . وباختصار فان اللات كالهة للشمس ، كما يرى « ولهوسن » ، دخيلة على العرب المكيين ، كما يرى ابن الكلبي « هي أحدث من مناة » . ويقال ان عمر بن لحي ، قد جاء بها من النبطيين ، وكانوا يعتبرونها الهة الشمس .

اما الاخت الثانية من بنات الله الثلاث ، فهي « العزى » ، وعرفت بدورها تحت هذا الاسم في الميثولوجيا البابلية ، وقيل ان معناها ملك أو اله النار ، فالعزو هي النار في اللغة البابلية ، ومعناها في العبرية الشدة أو القوة (تاريخ كلد وآشور ، مجلد ١ ص ٨) .

وبحسب رواية تيودوروس بركوني ، هي نجم الصباح ، ولها أسماءها المختلفة باختلاف اللسان ، « فطيء دعته عوزي » ، واليونان افروديت ، والقدشيون طشقमित ، والكلدانيون بلتي أو بلثي ، والآراميون استيرا ، والرادانيون ملكة أشعيا ، والعرب ناتي » .

ويمكن القول بأن العزى عند العرب هي في منبتها الاصلي « اينانا » عند السومريين ، والتي اشتهرت باسمها الاكادي عشتروت عند البابليين ، وأناثا - أي أنثى - عند الكنعانيين ، وايزيس في مصر ، وافروديت عند اليونان ، وفيينوس عند الرومان ، وكوبيلا عند الحثيين .

يقول نولدكه : « ان الشاعر السوري اسحاق الانطاكي الذي كان يعيش في أوائل القرن الخامس الميلادي ذكر احتفاء العرب بعبادتهم العزى أو نجم الصباح أو الزهرة - فيينوس - ، كما يقال انهم كانوا يقدمون لها التضحيات ، فالمنذر ملك الحيرة قدم لها قربانا من الاسرى ، وقيل انه - أي المنذر - ذبح ابن حليفه المسيحي الملك الحارس ، قربانا لها » .

« ان ربكم يشتمو بالعزى لجرّ تهامة ، الهة فصل الشتاء
والاخضرار والخصب والجنس » (١) كما يقول الملك الكاهن ،
عمر بن لحي .

فكانت العزى الهة للجنس والاختصاب عند العرب ، كما كانت
عند البابليين . ويعتبر الحمام والغزال منطيورها وحيواناتها
المقدسة ، وهما نفس شعائرها عند البابليين والسوريين والنبطيين ،
وكان العرب الجاهليون مفرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال .

يقول الالوسي : « كانت المرأة من العرب اذا عسر عليها خاطب
النكاح ، نثرت جانبا من شعرها ، وكحلت احدى عينيها ، وحجّلت
على احدى رجليها ، ويكون ذلك ليلا ، وتقول : يا نكاح ابغي النكاح
قبل الصباح » . أي انها تريد الزواج أو المخالطة الجنسية قبل
ظهور نجم الصباح أو الزهرة . وتحفل المواويل والاغاني الشعبية ،
بالآلاف القطع الشعرية التي تتغنى الى اليوم بنجمة الصبح .

ويضيف سميث : ان عبادة الزهرة - أو نجم الصباح -
انتشرت في اليمن ، وخلال اقامة شعائر اعيادها كانت تقام
الاحتفالات والافراح المختلطة ، أو ما عرف عند معظم الشعوب
والاقوام السامية ، بالعرس المختلط ، وما تزال بقاياها سارية حتى
وقت قريب ، خلال الاحتفالات بالموالد المحلية ، على طول مصر
والعالم العربي ، وربما ما تزال أيضا تقويمات العرس المختلط
سارية يجري التعامل بها .

يتضح من هذا ان منابع الميثولوجيا العربية تضرب بجذورها
على مدى ٦ آلاف عام ، أي منذ السومريين غير الساميين ، الذين
توارثهم العرب واليهود الساميون .

(١) البدء والتاريخ للبليخي ج ٣ .

الفصل الثالث

اساطير وفولكلور بر الشام سوريا — لبنان — فلسطين

واذا ما حاولنا التعرف على القسم الغربي أو الكنعاني للاقوام السامية في سوريا ولبنان والاردن وفلسطين ، الذي يرجع البعض الى هجرات سامية ، جاءت بالاموريين الى الهلال الخصيب وتألفت من هذه الموجة الكنعانيون ، الذين سكنوا غربي الشام وفلسطين حوالي ٢٥٠٠ ق.م. .

أما الساحليون منهم فهم الذين سماهم الاغريق بالفينيقيين أقدم شعوب العالم اقتحاما للبحار والمحيطات .

وطبعا كان لهذه القبائل الكنعانية أو الفينيقية ، أسطورتهز الام ، التي ترسم وتحدد لهم أرض ميعادهم في الشام وفلسطين بنفس ما حدث مع شقيقاتها — من الاقوام — السامية الاخرى مثل أسطورة أرض ميعاد يعرب ، التي حددت لها الميثولوجية القحطانية أرض اليمن أو أرض المر ، « وأسطورة أرض ميعاد قبيل ابراهيم العبرية في أرض فلسطين ، أرض اللبن والعسل » وكذلك بالنسبة لاسطورة أرض ميعاد كنعان أبو الاقوام الكنعانية وهو كنعان ابن حام ، وخطيئته المعروفة مع أبيه نوح ، والتي

بسببها أصبح وجه الحاميين أسود ، حين غرس نوح كرما - وكان أول من غرس الكرم - وسكر من عصيره وئمل وانكشف ، فشاهده ابنه حام وسخر منه ، وعندما عرف نوح ، لعن كنعان آخر أبناء حام : « ملعون كنعان عبدا يكون لعبيد أخوته » (١) .

وتتفق الاسطورتان ، العبرية والعربية ، في ان كنعان انفصل عن أخوته وبقية قبيلته من أبناء نوح ، مثلما حدث قبلا لجده الأعلى قابيل ، قاتل أخيه ومغتاله هابيل ، هام على وجهه يضرب في الأرض ، فبعد أن أصبح كنعان ملعونا طريدا مبغضا من أخوته ، مرّ منزويا يطلب وطنا آخر وأرضا جديدة ، فنزل أرض ميعاده « أرض كنعان » أو الكنعانية في لبنان ، وانتشر أبناؤه الاحد عشر في الشام وفلسطين وهم « الصيدونيون » الذين أنشأوا مدينة صيدا ، نسبة الى أبيهم « صيدون » ، والحثيون « أبناء حث » ، واليبوسيون « أبناء يبوس » ، والاموريون « أبناء أمور » ، والجرجاشيون « أبناء جرجاش » ، والحويون « أبناء حو » ، والعراقيون « أبناء عرق » ، والسنيون « أبناء سن » ، والارواديون « أبناء ارواد » ، والصماريون « أبناء صمار » ، والحماثيون « أبناء حماة » (٢) .

وهم كلهم الاحد عشر قبيلة أو سبطا ، أبناء كنعان الذين لحقتهم وطاردتهم لعنة جدهم حام ، التي تحمل وزرها من بعده ابنه ، فتعقبته في ذريته . وعلى هذا حوّلهم العرب والعبريون الى سخرة « يقطعون الخشب ويحملون الماء » ، كما يقول توينبي ، على اعتبار انهم أجناس واطئة .

بل ان العرب ساووهم بالبربر والنوبيين ، فكان كنعان أخا لهم كما يقول النسابة العرب ، فبعد اللعنة « ولدت امرأة حام غلاما ، لونه أسود ، وسموه كوشا ، وولد لكوش ، الحبشة بن كوش ، أما شقيقه الثاني الذي لحقته أيضا لعنة أبيه ، وهو ماريع

(١) التكوين ٩ : ٢٠ ، ٢٧ .

(٢) لاحظ أبناء عاد ، ويعرب ، ويعقوب ، واسماعيل الخ . . .

ابن حام ، فقد ولد ثلاثة أولاد - أو أجناس - وهم كنعان وبربر والنوبة .

واستنادا الى أقدم المصادر العربية ، وهو عبيد بن شريح الجرهمي ، الذي يقول : « وأما ولد كنعان بن كوش بن حام ، فهم البربر ، وساروا حتى نزلوا بفلسطين وبيت المقدس » .

ولقد اعتبر العرب واليهود ، ان المصريين القدماء منحدرون من نسل حام وأولاده من البرابرة ، بمعنى انهم أيضا أجناس أدنى من أشقائهم الساميين ، ومن هنا فقد وحدوا بين المصريين والكنعانيين .

والغريب ان الكشوف الحفرية الكنعانية جاءت فأثبتت هذه المعلومة الاسطورية ، فقد اكدت هذه الكشوف الأثرية أو الحفرية أو الاركيولوجية ان الفينيقيين كانوا جزءا من العالم الكنعاني الذي تشكل من الهجرات السامية منذ فجر التاريخ ، وهي تلك الكشوف التي عثر عليها في « بيلوس » الافريقية ، ومكانها اليوم إحدى القرى الصغيرة الواقعة الى الشمال من مدينة بيروت ، وهي ما تعرف اليوم بقرية جبيل أو جبل ، وترجع هذه الكشوف الى الألف الثالثة ق.م .

وكذلك دعمتها كشوف « رأس شمرا » في فلسطين التي ترجع الى بدايات القرن الرابع عشر ق.م . والتي عثر عليها عام ١٩٢٩ . وكذلك أشارت اليه كشوف البحر الميت .

الغريب أن هذه الكشوف الكنعانية الفينيقية الفلسطينية جاءت فأكدت العلاقة الشديدة بين حام وكنعان ، أو بين المصريين والشوام الكنعانيين ، اذ انهم اعتبروا أوزيريس أخا لكنعان « وكان كنعان أول من سمي « فينقس » ، فكانت أعياد - قيامة - الاله المصري أوزيريس ، تقام في مدينة جبل الكنعانية أو اللبنانية ، كما ان في مكان الاسكندرية القديمة ، أو فاروس ، كانت تقام أعياد وشعائر أدونيس الفينيقي « فقد جعلوا من كنعان أخا لأوزيريس ، دلالة على وحدة نسب الامتين » .

وفي إحدى أساطير الخلق البابلية ، التي تتفق مع أساطير

مدينة صيداء، يبدو كنعان أخا لحام، فيقال « ان بعل - كرونوس - ولد بعل آخر هو كنعان ، ومن كنعان جاء كنعان أبو الكنعانيين ا. الفينيقيين ، كما انه أنجب حاماً ، الذي يسميه اليونان أسبول وكان أخا لمصراييم ، وأبا للثيوبيين والمصريين » .

ويمكن القول انه بقدر ما ناسبت أو تقاربت الاساطير والتراتيل الحضاري بعامة لبابل وآشور أو حضارة ما بين النهرين بالإضافة الى حضارة العرب القحطانيين من جانب وبين جيرانهم من الفرس الآريين من جانب آخر ، حدث نفس القدر بالنسبة للحضارتين المتجاورتين ، المصرية القديمة ، ولاحتتها الحضارة الكنعانية - الفينيقية في مدن - دول - الشام وفلسطين . وهي الحضارة التي ترجع أرهاصاتهما الى بداية الالف الثالثة قبل الميلاد ، والتي عرفت أماراتها أو مدنها الدول في مدن صور وصيدا وبيبلوس ودمشق وبعبك ، جوهر الهلينية كمجتمع ثقافي مستنير هدفه الأخير الانسان : حقوقه وواجباته ، قبل أن يعرفها الهلينيون أنفسهم بقرون ، تصل الى ٢٠ قرناً ، كما يحددها د. توينبي بل استمد اليونانيون عنهم تراثهم ودعائم حضارتهم . فمن المعروف ان فينيقيا استعمرت الجزر القرطاجينية فسي البحر الايجي ومركزها جزيرة كريت ، في مرحلة ما قبل الهلينية بقرون طويلة أي ان الميثولوجي الهليني جاء كنتيجة شبه مباشرة لنظيره وسابا الفينيقي ، بعد أن نقله الفينيقيون خلال تجارتهم البحرية الواصلة التي كانت مضرب الامثال على طول تاريخ العالم القديم ، المستعمراتهم في جزر البحر الايجي ، والساحل الافريقي عامة .

فالباشيون الفينيقي هو نفسه الباشيون الايجي ، والآلهة الفينيقية ، هي بذاتها ما جاءت بها الكشوف الحفرية القرطاجية في جزيرتي قرطاجنة في تونس وكريت ، مثل بعل هامان والاله اشمون وأدونيس والاله المصري - بس - اله مصر وغرب آسيا والبعلة ، وكذلك بقية الحكايات والرموز الفينيقية السحرية مثل « خمسة وخميسة » ، والعين الحاسدة ، والنفس الخالق . فيذ ان مؤسس أثينا هو « مكروبس المصري ، الذي استوطن في أثينا

وكان ذلك قبل الميلاد ب ١٥٠٢ عاما ، واثينا هي ما أصبحت موطننا للعلوم والفنون ، بعد أن ألقى فيها مكروبس المصري حياة التمدن ، فعرفهم الدين وسنّ لهم الزواج بعد أن كانوا لا يعرفونه ، وأنشأ محكمة تسمى أريوباجة . وكذلك دانيوس ، وهو مصري آخر ، أدخل الفلاحة في مملكة أرجوس .

كما ينسب لقادموس السوري انه هو الذي عمر مدينة طيرة باقليم بيوتيا ، وعلم أهلها زراعة العنب وعمل المعادن ، كما علمهم الحروف الهجائية .

ويبدو ان الفينيقيين الساحليين سكان المدن الدول صور وصيدا ، كانوا الى جانب كونهم صيادين مهرة قد اقتحموا البحر منذ عصور قديمة ، كانوا صنّاعا حرفيين ، نظرا لعقم الارض الزراعية ، مما دفعهم الى ركوب البحر وعدم النفور منه ، كما حدث مع المصريين الذين كرهوا البحر ، ونفروا منه ، واكثروا من طرائفهم ووساوسهم عنه ، فعده - تابو - وجرم على الملوك والكهنة رؤيته او الاقامة الى جواره .

ومما ساعد الفينيقيين على اقتحام البحر ، وجود الخشب الذي تصنع منه السفن في غابات جبل لبنان ، فنزحت بطش القبائل الكنعانية الى جزيرة قبرص ورودس وصقلية وسردينيا ، وانتشروا في جزر اليونان البربرية ، وحققوا مكاسب هائلة من تجارتهم الواسعة ، فيقال انه لما كثرت عندهم الفضة ، واستثقلوا حملها في بعض الاسفار ، صنعوا منها هلوبا - جمع هلب - لمراكبهم بدلا من الرصاص .

والغريب ان هؤلاء الفينيقيين اتهموا من جانب جيرانهم القدماء ، بتسترهم وتكتمهم لما توصلوا اليه من علوم وخبرات بحرية ، احتكروا معرفتها وحجبوها عن بقية جيرانهم المصريين والبابليين والاشوريين وغيرهم . ويقال ان أحد فراعنة مصر تبنى رحلة بحرية ، قام بها البحارة الصوريون التجار ، لاستكشاف قارة افريقيا ، فساروا في البحر ثلاث سنين وطافوا افريقيا ، وعادوا في نهاية السنة الثالثة من منبع النيل ، حتى مصبه ، لكنهم بخلوا

بنتيجة رحلتهم الاستكشافية المبكرة هذه على المصريين .

فلقد كانت فينيقيا - في أغلب عصورها - واقعة كلية تحت النفوذ المصري ، والبانشيون المصري ، كما سنتناوله بتفصيل أكبر ، فيمكن القول بأن مصر القديمة - كمؤثر حضاري ، كانت المصدر الأم الذي منه حمل الكنعانيون أو الفينيقيون ، تراثه الحضاري - وأضافوا عليه - إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، التي تبدت بعد ذلك في حضارة المدن الدول أو الحضارة الهلينية والرومانية فيما بعد .

وليس هذا بجديد ، إذ أن أحد كبار مصادر الميثولوجيا أو الأساطير الفينيقية ، وهو « فيلو الجبلي » ، حاول اثباته ، أن لم يكن قد أثبتته فعلا ، منذ منتصف القرن الأول الميلادي ، أي منذ عشرين قرنا ، فلقد كرّس هذا المؤلف حياته لاثبات أن الأساطير والتراث الشعائري الفينيقي ، هو ما أخذه اليونانيون وأقاموا عليه تراثهم قائلا : « أن اليونان الذين يفضلون سواهم في التمدن والتحضر ، انتحلوا جميع الاخبار والحكايات الفينيقية ، ورغبة منهم في أن يخلبوا الالباب بمحاسن الحكايات الخرافية ، وأضافوا عليها بكثرة لا حد لها ، كل ما أسعفتهم به مخيلتهم ، ومنهم الشاعر هسيود ، وبقية الشعراء الجوالين الذين ملأوا العالم بخوارقهم وحكاياتهم ، فهم الذين أخذوا عن الفينيقيين علومهم ومعارفهم عن الآلهة ، وحروب الجبابرة وغير ذلك ، أما عن اختلاقاتهم المتوالية التي نشروها في كل صوب ، فقد عودت الناس على الأكاذيب ، وخنق الحقائق .

وكان « فيلو الجبلي » أو البيبلوسي هذا من سكان مدينة جبل أو جبيل بלבنا ، ويرجع البعض انه شخصية أسطورية مثل هوميروس ، كما يقال بأنه استعار تاريخه أو أساطيره أو أعماله هذه ، من كاتب فينيقي سابق عليه بحوالي أربعة قرون ، وهذا الكاتب هو « سنكن يتن » ، بل أن فيلو البيبلوسي نفسه قال عن سلفه « يتن » ، انه كان أول من دوّن هذا التاريخ « البعيد عن الخرافة » ، كما قال « أن سنكن يتن قد وفق إلى العثور على

الكتابات السرية المنقوشة على الاساطين وحجارة الرقى ، والتي
تخبأ وتحفظ في اخفى اماكن الهياكل سرية » .

وبدا فيلو أو « سنكن يتن » تاريخه ، على عادة ما اتبعه
الساميون ، أي بادئا من بدء قصة الخليقة ، وبشكل أدق بفكرة
البيضة الخالقة ، كما جاءت بها أساطير الخلق المصرية ، « فبعد
أن لقيحت الريح البيضة الخالقة وبعثت فيها بالنفس الخالق ،
أخرجت ذرية كنعان من فينيقيا ، الذين ولدوا في ذرية الانسانيين
الاولين أو الخالقين ، وهما يون أو الدهر أو الزمن - وبروتوجون
أو حواء البكر المولودة الاولى ، ومنهما جاءت ذرية فينيقيا وعددهم
مائتان ، فسموهم النور والنار واللهب ، وبعد ذلك أنجب هؤلاء
الكنعانيون اولادا ضخام الاجسام ، طوال القامات ، وسميت الجبال
التي ملكوها بأسمائهم ، وهي « قاسيون ولبنان وانتيلبنان وبراتي ،
وولد من صلب هؤلاء الابطال بعد زواجهم من نساء عاهرات
بلسامين أو شميم روم - أي المرتفع في السموات العليا - وهو
بعل شميم أي رب السموات » . وتزوج عليون بالحسنة بيروت
أو عشتروت ، فأنجب منها اله السماء وأخته الهة الارض ، وأما
عليون فهلك خلال صراعه مع الوحوش الضارية ، وكان ان الهه
أبنائه وعبدوه ، وخلفه ابنه اله السماء الذي تزوج بأخته الهة
الارض ، فولدت له أربعة اولاد ، هم ايل أو كرونس (١) أو بيت
ايل ، وهو ما كان يطلق على جبل لبنان ، وأحيانا على لبنان عامة ،
وداجون (٢) اله الحبوب ، وسيتون وعتل - أي الحزين المضطهد -
ومعناه الذي ما تزال تحفظه الذاكرة الشعبية « عتل الهم » ، أي
كأبده وحمله . وينسب لهذا الاله انه أول من اخترع الملاحة ،
ويرى البعض ان عتل يصنف مع هرمع واخنوع أو ادريس . الخ .
وتحكي أسطورة الخلق الكنعانية هذه عن خطايا متلاجقة ، ارتكبها
- اله السماء - منها زواجه بنساء كثيرات ، أنجب منهن ذرية
لا حصر لها ، ومنها انه هجر زوجته الهة الارض وحاول قتل أبنائها

(١) سباترن اليوناني .

(٢) الهة سومرية .

رارا وبلا هوادة . لكن ابنه البكر ايل ما ان بلغ مبلغ الرجال ، حتى اتخذ الاله « توت » أو « تحوت » اله الكتابة الذي عرفه لساميون - فيما بعد - في الملاك جبرائيل ، كاتباً لاسراره ، ثم شعل حروباً طاحنة ضد أبيه ، لاهانتة لأمه الارض ، وأيل هو عظم آلهة الشعوب السامية ، ومعناه في اللغات السامية القدرة والقوة ، وعند اليونان والكلدان « ايليوس » أي الشمس ، ويذكر بنصه في التوراة على انه الله ، ومن اسمه جاءت تسمية اسرائيل التي تسمى بها يعقوب عقب زواجه من راشيل أم النبي يوسف ، ومعناها بالسريانية ولي الله أو ولي ايل ، كما ان من اسمه جاءت تسمية ملائكة العرش - أو أربعة أركان التابوت - عند كافة الشعوب السامية ، وهم جبرائيل وعزرائيل وميكائيل واسرافيل . فجبرائيل رسول الله ، جبرا معناها رسول وأيل الله ، وعزرائيل عبد الله ، عزرا معناها عبد . وأيل الله ، وميكائيل صفي الله ، ميكا معناها صفي وأيل الله ، واسرافيل ولي ايل (١) .

وبعد أن انتصر ايل على أبيه وتمكن من اصطياذه وحبسه في اعماق الهاوية ، بنى مدينة جبل أو بيبلوس في فينيقيا ، وعرف بعد ذلك بأيل الوهيم ، أو برب الارباب . ويقال انه كان لايل ولد وحيد يدعى شديداً ، توهم فيه الفدر يوما ، فذبحه بيديه ، وبعد ذلك فعل نفس الشيء بابنته ، فكان أن « خافته الآلهة وامتلات قلوبهم رعباً » . وعندما سئم أبوه اله السماء منفاه ، أرسل اليه بابنته عشتروت وأختها رية أو « سميرنا » أو ديونا أو « بعلتي - أي سيدتي » ، للايقاع به ، لكن ايل تمكن من استمالتهن وتزوج بهن ، وولد لايل من عشتروت سبع بنات ، يعرفن في الميثولوجي الكنعاني بالطيطيات أو الترايبات ، كما انه أنجب من رية سبعة ذكور ، وعاد فأنجب من عشتروت ابنين آخرين هما الشقوق والعشوق .

وبعد أن حكم ايل ٣٢ عاماً ، عاد فأوقع بأبيه بعد أن نصب له الفخاخ التي أوقعه فيها ، وحين أصبح بين يديه مزق أطرافه

(١) التيجاني ، ص ١٥٤ ، وهب منبه .

وأعضائه ، وألقى بها مع دمه في مياه الينابيع والآبار والانهار ، ثم
ان ايل وزع ملكه اللامحدود على أبنائه ، فأعطى عشتروت ملك
اتيكه ، وهي جزء من بلاد اليونان ، وأعطى مدينة جبيل للالهة
بعلتي ، ووهب بيروت لبوصيدون اله البحر .

وعندما تفشى الوباء في ممالكه المترامية ، ذبح ابنه الوحيد
ترضية لأبيه السماء ، ويقال انه كان أول من اختتن ، وأمر جميع
أهله أن يحدوا حذوه ويختتنوا ، كما ينسب لایل انه كان أول من
تزوج بجنية مائية اسمها « عين عبريت » أو عفريت ، وأنجب منها
ولدا وحيدا ، ولذلك لا يزال الفينيقي يسمي ابنه الوحيد ، يحييد
أو وحيد . . الا انه عاد فذبحه . وبعد ذلك وهب حكم مصر للاله
توت أو تحوت ، اله الفكر الذي اكتمل في الملك الرسول جبرائيل .

ولقد اختلف المؤرخون البيزنطيون - بخاصة - في التعرف
على نسب ايل اله آسيا الغربية أو الساميين الاوائل الجبار هذا ،
فنسبه البعض الى سام ، ونسبه البعض الآخر الى حام ، ووحده
البعض الثالث مع ابراهيم الخليل ، ذلك ان جميع الشعوب
والقبائل السامية ، ادعت انتماءها الى هذا الاله ، فظهر في آخر
أسمائهم مثل عموائيل واسماعيل - اي سمع ايل - وروفاثيل
ومبخائيل وصموئيل . الخ .

ولقد حدد بلوتارك مكان اقامة ايل « في جزيرة » أو في
« المجسدة » التي هي خلف الاوقيانوس الكروني . وفي بعض
أساطيره ، ان حيتان البراري أسرته واحتجزته في إحدى الجزر
القريبة من الجزائر الانكليزية .

وينسب لایل ، الذي أصبح كرونس عند اليونان كما يقول
فيلو ، انه كان يملك أربع عيون : عينان الى الامام ، وعينان الى
الخلف ، عينان مفتوحتان ، وعينان نائمتان ، ومعنى هذا انه كان
في مقدور هذا الاله ايل « ان ينام متيقظا ، ويستيقظ وهو نائم » .

ولقد أدى استغراق ذلك الكاتب الفينيقي فيلو دفاعا عن
فكرته أو وجهة نظره في اثبات سبق الالهة والاساطير الفينيقية ،

لنظيرتها ولاحتقتها الهلينية اليونانية ، وهو ما اكده بعده سلفه سنكن يتن الذي نقل عنه ، دفاعا عن فكرته هذه التي حاول اثباتها منذ ٢٠ قرنا ، وهي ان الميثولوجي الكنعاني الفينيقي هو الاصل الام الذي اشتق منه لاحقه الاغريقي .

رغم انه فاته التعرض لبقية التراث الشعائري والاساطير الفينيقية ، التي كشفت عنها بالفعل ، كشوف رأس شمرا - اللاذقية - عام ١٩٢٩ ، عن اساطير الاله البعل ، او جوبيتر ، وادونيس او تموز ودانيال ... الخ .

هذا على الرغم من ان كشوف رأس شمرا التي حدد عمرها بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد جاءت فجأت إغموض الكثيف الذي اكتنف كوزومولوجي فيلو الدمشقي الذي ركز أغلب جهوده على أسطورة الاله ايل او كرونس ولم يتعدها الا قليلا ، فمثلا اكدت هذه الكشوف الحفرية التي عثر عليها في رأس شمرا ان الاله عليون جد ايل الذي كان قد تزوج بالحسنة بيروت او عشتروت ، وانجب منها الهي السماء والارض ، لكنه مات خلال صراعه مع الوحوش ، فكان ان مزقته انياب الوحوش الضارية .. فهذا الاله الممزق لم يكن سوى ادونيس ، اله آسيا الغربية ومسيحها الممزق ، المتوارث من السومريين - ٤ آلاف عام ق.م . - اللساميين .

ولقد جاءت نصوص رأس شمرا ، بأسطورة ادونيس ، الذي أصبح السلف المباشر للاله هابونيجا ، وحلّ بعد ذلك محل الهتي الاخضرار « آلين » او « عليين » و « موت » ، وليس هناك خلاف كبير بين نصوص رأس شمرا الادونيسية ، وبين نصوص تموز البابلية ، فكلاهما - ادونيس وتموز - ولد من امه التي سحرت نفسها الى شجرة المر ، ومن جذعها ولد ، وعشقتة افروديت وخبائه من أختها الهة العوالم السفلى عند الآسيويين بعامسة « بروسريين » او « برسيفون » او « اللات » عند عرب الجاهلية الاولى .

ويتوالى الصراع بين الاختين ويحتدم الى أن يصل

مسماع كبير الآلهة زيوس ، فيحكم بأن يقضي أدونيس نصف العام على وجه الأرض ونصفه الآخر تحت الأرض .

وقد تبدت شخصية أدونيس في القرن السادس ق.م . ، متوحدا مع الآلهة الدمشقي أشمون ، ويرجع إلى مدينة بيلوس التي كانت مركزا للآلهة الأدونيسي اشاعته في مجمل العوالم الكنعانية والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين .

وكان أول تدوين لهذه الأسطورة الملخصة لتعاقب فصلي السنة ، أو الجذب والنماء ، قام به الشاعر « بانياس » (١) في القرن الخامس قبل الميلاد ، فجمع أسطورته ، وأعاد نظمها شعرا .

أما الآلهة البعل في نصوص رأس شمرا ، فلم يكن سوى بعل تعفون - الذي تبدى في المفهوم الشعبي على هيئة جوييتر أو بعل لبنان وسيدها . وهو الآلهة حداد اله المطر والرعد ، وكانت أمه الآلهة الاخصاب البحرية عشتار .

وعرف بعل تعفون في الأساطير المصرية باسم ستخ ، وهو رمز أو انموذج سمى به المصريون الآلهة الأجنبية . كما أنهم سموا الآلهة الأجنبية هاتورات ، كما أن العرب عرفوه باسم بعل تعفون .

وكان لبعل حداد الفينيقي بنات ثلاث هن روح الحصاد « موت » ، وروح الربيع « عالين » ، و« أنات » أو أناث أو أناثا بمعنى الأنثى ، الآلهة المحاصيل العذراء ، التي كان يضحي لها في موسم الحصاد ، وهي الآلهة التي حملها الهكسوس إلى مصر ، وقدست في أحيان أخرى ، وينسب لهذه الآلهة أنها هي التي تغطي وجه الأرض بالندى أو الطل «-انها هي - أنات - التي تهب الأرض دسمها » . وكان من ألقابها عند المصريين « قادش » أو المقدسة ، وكان الأسد حيوانها أو شعارها المقدس .

أما الثور فكان الحيوان المقدس لآيل ، ومن ألقابها « الثور آيل » .

(١) يبدو أن من اسم هذا الشاعر ، تسمت مدينة بانياس في سوريا الشمالية ، وبعض المدن العربية .

ونسبت مكتشفات رأس شمرا ، لاله ايل ، انه أنجب ابنا يدعى « كريت » ، وكان كريت هذا ملكا على سدوم ، وأمره أبوه ايل بالقيام بغزوة تقودها الالهة « تيرا » أو طيرة لتأديب شعب زبولون (١) ، وهي قبيلة أصبحت فيما بعد جزءا من اسرائيل ، كانت تشغل المنطقة الواقعة بين جبل الكرمل وبحيرة الجليل . وبعد أن عاد كريت من حروبه - اشترى زوجة - أنجب منها طفلا جميلا كعشتر ، كريما كانات « ويقال انه كان طفلا عجيبا ، اذ انه ما أن ولد حتى دوى صوته صارخا : « أنا أكره الاعداء » . وسمي هذا الطفل « دانيال » ، وعندما كبر أصبح بطلا اسطوريا ، فنبغ في فن العرافة ، وأنجب ابنة أصبحت فيما بعد ملكة كل الاسرار) . ويبدو ان دانيال هذا ، هو ما عناه النبي حزقيال ، حين قال للملك تيرا أو طيرة : « أنت أعقل من دانيال ، ولا سر يخفى عليك » .

ويورد الديميري (٢) ، حكاية غريبة ، عن هذا الطفل الموعود المبكر ، دانيال ، فيقول :

« ان الملك الذي كان دانيال في زمانه ، قد تنبأ له عرافوه ، بأن طفلا سيولد في تلك الليلة ، يفسد عليه ملكه ، فأمر بقتل كل من يولد من الاطفال في تلك الليلة ، ولما ولد دانيال وضعت أمه في أجمة أو حظيرة اسد ولبؤة ، فبات الاسد ولبؤته يلحسانه ، فنجاه الله . ويقال ان ابا موسى الاشعري ، لقي خاتما نقش على فمه اسدان ، بينهما رجل وهما يلحسان ذلك الرجل » ، والمقصود به دانيال .

كما كان من بين مكتشفات رأس شمرا ، الى جانب الاساطير الكنعانية ، مجموعة عظيمة من الملاحم والقصص الشعرية ، والحكايات التعليمية التي تكشف عن فجر الاخلاق ، وكذلك سير وحكايات الابطال وانصاف الالهة الذين تزوجوا من بنات الناس . وهي تلك الحكايات المتصلة بالخلق والخطيئة الاولى ، فبعد أن قتل قابيل أخاه هابيل ، هام قابيل على وجهه ، فولد لآدم شيث الذي حلّ محل أخيه القاتل ، وعليه فقد سمي نسله من بعده بأبناء الله ،

(١) نسبة الى زبولون ابن يعقوب .

(٢) حياة الحيوان للدميري ، ص ٥ .

تميزا له عن نسل أخيه قابيل القاتل الذي من نسله جاء الاشرار الذين عرفوا بأبناء الناس (١) .

ولما كان قابيل قد أقام منزويا في أعلى جبل حرمون أو الحرمان ، فقد عشقت الملائكة بناته ، وأباحوا المعاصي والمحرمات . وتنسب الميثولوجيا العربية ، للقبائل العربية البائدة ، أنها جاءت الى الوجود بعد أن تزواج الملائكة وبنات آدم ، فيقول الجاحظ :

« وذكروا ان جرهما كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم ، وكان الملك من الملائكة اذا عصى ربه في السماء ، أهبطه الى الارض في صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وما كان من شأنهما مع الزهرة ، وهي أناهيد ، فحين هبط جرهم في صورة رجل ، وتزوج بامراته - البشرية - أنجب جرهم » .

وقد وردت بهذه الاساطير والملاحم التي ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أسماء الممالك والقبائل المندثرة ، مثل سدوم وعموره أو ثمود وعاد وتيرا Tyre وعرفات وجرهم . الخ .

وأما عن الالهة عشتروت ، التي وجد هيكلها بالقرب من نهر ابراهيم ، وهو النهر الذي عرفه القدماء بنهر أدونيس . وكان من أسماء عشتروت وألقابها المتعددة اسم بيروت الذي أطلق فيما بعد على العاصمة اللبنانية ، ويقال انه كان لعشتروت ثلثمائة لقب ، منها : « يو - ياه - ديدا - عنت - تنيت - الزهرة - أرتميس - أوربا - بعلي - اللات - الفرقد - حنه - نعمة » وهكذا .

ولقد عبدت الشعوب الكنعانية الفينيقية عشتروت ، باعتبارها الهة بحرية طوفت في كل أنحاء العالم الفينيقي البحري أو الساحلي ، برفقة بوصيدون - نبتون - . وبشكل محدد ، فإن هذه الحضارة الساحلية البحرية الفينيقية ، خلقت آلهتها البحرية ، ومن هنا أصبحت بيروت (٢) مركزا هاما لتأليه البحر ، فكان الكبيران الهين بحريين . كما ان عشتروت نفسها الهة خرجت من زبد

(١) تكوين ٤ : ٢٥ و ٦ : ٢ .

(٢) الجنية المائية ، بيريه .

البحر . وينسب لبوصيدون بكر كنعان انه اول من تسلط على البحر ، بأمر من أبيه ايل أو كرونس . كما ينسب لعشتر البحرية انها خلال طوافها على طول الساحل الشمالي الافريقي ، أسست في ليبيا مائة مدينة ، واسم ليبيا نفسه متواتر من اسم الالهة ليبيا ابنة « يوعشترت » ، وتذكر الاساطير الليبية ، انها هبي « يوعشترت » التي بنت مدن فينيقيا ومصر وبلاد اليونان ، وقرطاجة .

وعندما تملك صيدون ابن كنعان المدينة الدولة صيدا أصبح ملكا على كل فينيقيا ، وتزوج « صور » وأنجب منها بدوره أبناء « كثيرين كرمل البحر » ، منهم قدم ، وفينق أو فينكس ، وفيليق ، وسور ، وتاس ، وسيبول ، وفيني ، ودريال ، وأوروباء ، وتملك هؤلاء الأبناء الآلهة ، بدورهم ، على كل الممالك الكنعانية ، ومصر وآسيا الصغرى ، بحسب ما تشير به أساطيرهم .

لكن اسم صيدون ، ابن كنعان ، هم فشمم كل القبائل الكنعانية ، كما ان التوراة (١) لقبت الكنعانيين بالصيدونيين في أماكن عدة ، وذلك لعدة أسباب منها : ان صيدون كان بكر كنعان الذي تضخم فأصبح أمما بدوره ، ومنها انهم كانوا أمما ساحلية ، تعمل بالصيد والتجارة ، فلفظ صيدون يدل في أصله على « صيد السمك والطيور » .

ويبدو انها تفرقة بيئية قصد بها الساميون الرعاة « أصحاب الوبر » أطلقها للتفريق بينهم وبين جيرانهم أصحاب الصيد والبحر ، كما انهم أطلقوها بعامة على الحاميين والكنعانيين ، ولما كانوا قد اعتبروا النماردة ، حاميين أو كوشيين أو كنعانيين ، أجناسا واطئة . فنمرود الجبار الكوشي أو الأسود الذي حارب ابراهيم (٢) - هو أول جبار في الارض ، وكان جبار صيد أمام الرب ، ولذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب .

(١) عدد ١٣ : ٢٩ - أيوب ٤٠ : ٣٠ - امثال ٣١ : ٢٤ .

(٢) تكوين ١٠ : ٨ ، ٩ .

ويبدو ان كلمة « صيد » استعملت بمعنى اقتناص الناس واصطيادهم ، اذ انه سرعان ما استعملها الرسل المسيحيون بعد ذلك بنفس المعنى وهو اصطياد الناس « اتبعوني لتصيروا صيادي الناس » . يقول القديس أوغسطين (١) : « كانت الحرب في نظر المحاربين الاولين ، صيدا للناس » . كما عرّف أرسطو الفوز بأنه نوع من انواع الصيد .

ونظرا لان هذه المجموعة من الاقوام أو القبائل الكنعانية ، كانت شبه مبددة ، أي انها لم تصل الى الدرجة من التوحد والالتئام الذي سارت فيه حضارات الشعوب الزراعية ، أو حضارة دالات الانهار المتاخمة ، في دلتا مصر والعراق وفارس والهند ، فهي لم تتخط حضارات المدن الدول ، وهو ما كانت الحضارة السومرية التي ترجع الى الالف الرابعة ق.م. في مدن لجش ونيوى والاركاء أو الورقاء ، أو ما أصبحت الحضارة المينوية الموكونية ، في جزر الارخبيل أو البحر الايجي ، والتي توارثتها حضارات المدن الهلينية الدول في اثينا ، وأرجوس ، وطروادة ، فيما بعد . وعلى هذا ، فلقد كان لكل مدينة من هذه المدن الكنعانية الفينيقية ، تراثها الاسطوري المتميز والمتوحد - الى حد - في ذات الوقت .

فمثلا أيدت الكشوف الحفرية في جزيرة قرطاجنة بتونس ، انه كان للفينيقيين سكان مدينة صيدا ، اله يسمى صيدا ، وآخر يعرف بصيدون ، كان يكتب اسمه على نقود المدينة الدولة صيدا : « وهو من نسل صيدون بن اجبت «أي الاجبثيين» ، أو «المصريين» كما يقال ان صيدون هذا جاء من مصر الى فينيقيا أول ما جاء ، وهزم القبائل الكنعانية التي تسمى بأرض فلسطين ، واستوطنها وبني فيها مدينة صيدا » .

وفي احدى الاساطير المصرية القديمة ، التي جمعها المؤرخ

(١) مدينة الله ١٥ : ٤ .

الهليني « ايسوب » (١) ، يبدو ان الالهين قدم وفينق ، قد جاء اول ما جاء من مدينة طيبة - ثيبه - المصرية ، ليتملكا على مدن صيدا وصور ، وان اوزيريس خلال طوافه في الارض ، اقام الاله بوصير ملكا متوجا على فينيقيا .

أما أساطير مدينة صور فتتركز حول الهها الحامي « بعل شميم الذي أقام بمدينة صور وصنع الاكواح من القصب والخيزران والبردى ، وجرت له مع أخيه عوس منازعات طويلة . فصوص أو العيص ، كما يسميه العرب ، أول من اهتدى الى اتخاذ الثياب من جلود الحيوانات التي كان يقتنصها ويقتلها بيديه » .

وفي سلسلة النسب العبري ، يتبدى عوس ، أو عيسو أو العيص ، كشقيق توأم ليعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل . وهو الرجل الاشقر ، كما تحدد أوصافه أساطيرهم المتعددة ، التي قد تتشابه أو تتطابق مع قصتنا المصرية المعروفة منذ الدولة الوسطى بقصة الاخوين .

وتحكي أساطير هذين الالهين الشقيقين التي عشر عليهما بمدينة صور ، ان حريقا هائلا شب في مدينة صور ، فأقام هذان الاخوان الهياكل لآلهتي الريح والنار ، وبعدما مات هذان الاخوان أو - الكبيران - عبدهما أبناؤهما بعد ذلك .

وخلف عوس ابنه دأمر - أي النخيل أو التمر - ، ثم أعقبه هرقل أو هرقل ، « أول من اخترع الارجوان وقلد به عشتروت » . ويبدو ان هرقل هذا هو أول من غزا جزيرة قبرص وفتحها « وكان تحت امرته مقاتلون من الفينيقيين ، والعرب ، والافريقيين واليونان وغيرهم » . وبعدها فتح بلاد اليونان وصقلية ، وقتل « فونا ملك ايطاليا الذي كان يذبح الغرباء » ، ووهب لابنائه « سرد » جزيرة سردينيا التي تسمت باسمه . وغزا هرقل بلاد

(١) « ايسوب » ، أهم مؤرخ ومصدر للأساطير والملاحم والبالاد الشعرية ، والحكايات الخرافية ، ويقال انه كان عبدا اغريقسيا يعيش في القرن السادس ق.م. ، ويرى البعض انه شخصية خرافية ، مثله مثل الشعارين هوميروس وهسيود .

الغال - أي فرنسا - واسبانيا ، « حيث التقط تفاحات الذهب » .
وخلال صراعات هرقل السوري هذا وفتوحاته ، لدغه التنين
ذو الرؤوس السبعة ، فأشارت عليه آلهة دلفي بأن يدهن جروحه
بورق شجرة تشبه التنين ذا الرؤوس السبعة ، موجودة في مدن
الشرق . وينسب لهرقل السوري انه أول من بنى مدينة عكا .
وذلك بعد أن عثر بها على النبات الذي شفيت به جروحه الدامية .



أما عما وصل إلينا من تراث واساطير مدينة دمشق أو ما
كان يعرف قديما بسوريا العليا ، فجاء تراثا مخالفا - إلى حد ما -
لتراث العالم الكنعاني أو الفينيقي . ذلك لان سوريا كانت تنتمي
إلى القسم الشرقي ، أو البابلي الاشوري ، أي حضارة ما بين
نهر دجلة والفرات بعامة في أغلب أحقابها التاريخية ، كذا
تواتر إليها وساد تراث ومعتقدات التراث البابلي ، المتأثر بدوره
بتراث العالم الآري ، وبشكل أخص التراث الفارسي المجوسي ،
أكثر من تأثرها بتراث القبائل الفينيقية الكنعانية في ربوع الشام
وفلسطين ، والواقع بدوره تحت النفوذ الاشعاعي للحضارة
المصرية القديمة .

لذا لم يكن هناك اختلاف طويل بين ما وصل من آلهة
ومعتقدات متوارثة من حضارات ممالك كلدة وآشور وبابل ونيوى
في العراق ، وهو التراث الحضاري بعامة الذي توارثته هذه
الحضارات من سابقتها الحضارة السومرية اللاسامية ، وبين
تراث مدينة دمشق .

فكان الإله هدد ، أو حداد ، هو اله سوريا ، وكانت سميرنا
التي اتخذت اسمها لقبا - فيما بعد - الملكة الإلهة سميراميس ،
التي حكمت وتمكنت على بابل .

وهي الملكة التي خالطت الاساطير التاريخ في منشئها
واختفائها على السواء . وكان طائرها المقدس هو الحمامة ، ونسب
لها تشييد مدينة بابل والحدائق المعلقة ، كما نسب إليها السوريون
الاقبية التي عثر على بقاياها بالقرب من نهر بيروت وأبراهيم في

لبنان ، كما نسب اليها القديس صفرون الدمشقي انها هي سميراميس التي سوّرت مدينة دمشق .، ويقال ان سميراميس كانت ملكة سوريا في منشئها ، ثم تملكت بعد ذلك « بلاد آشور وآسيا الصغرى والجزيرة العربية » .

ومعنى اسم الالهة سميرنا ، اي أم الحمام التي منها جاء اسم الملكة سميراميس ، أو كاهنة الحمام ، ذلك انها حين ولدت من رحم أم سماوية. كانت قد تركتها في الخلاء عقب ولادتها ، فتعهدها بالرعاية سرب من الحمام ، كما انها حين ماتت ، تحولت الى حمامة ، ولهذا تتوحد سميراميس مع راشيل زوجة يعقوب ، وأم النبي يوسف ، التي تسمت أيضا بالكاهنة الحمامة .

ولعل هذا يفسر لنا مدى احتفاء الادب الشعبي بالحمام والفناء له : « ما تطخي يا بندقية ، ورا الحيطه حمام » ، وحمام الحما وعبد العال في ملحمة السيد البدوي ، يتحول الى حمامة .

وعندما كبرت سميراميس أحبها وتزوجها حاكم سوريا ورئيس مجلس شيوخها . ولما كانت سوريا جزءا من العالم الاشوري ، فقد رآها الملك نينوس ملك آشور وأحبها خلال احدى حروبه ببلاد بقطريانه ، حين كانت برفقة زوجها القائد حاكم سوريا . وأحبها ملك آشور وهام بها لانها لعبت دورا حربيا هاما رجع كفة الاشوريين في الحرب ، فطلب من زوجها حاكم سوريا التخلي له عنها ليتزوجها ملك آشور الشيخ ، على أن يهبه ابنته بدلا منها زوجة له . ولما رفض زوجها القائد : « انني أرفض أن أصبح صهرا لملك آشور الذي يسلبني زوجتي » ، هددته الملك بخرق عينيه ، فكان أن انتحر زوجها القائد ، وتزوجها الملك نينوس ، وبعدها قتله انتقاما لزوجها السابق ، واتسعت فتوحات سميراميس بعد ذلك في فارس والهند وأرمينيا ، الى جانب كل شواطئ البحر المتوسط . وكما يقول اسطفان البيزنطي ، فإن سميراميس فتحت مصر ، وزارت الاله آمون - المشتري - لكي تستوضحه نبوءة عن نهاية حياتها ، فأنبأها آمون بأنها ستختفي مثل حمامة، وتفوز من أكثر الشعوب الآسيوية بتقدير لا يمحي .

وخلاصة القول ان هذه الالهة السورية سميرنا أو سميرام السورية هذه ، التي نسب اليها المؤرخ سترابون أغلب خوارق غرب آسيا ، تتشابه الى حد كبير ، خاصة في تضمينه قتلها لعشاقها عقب الجماع ، مع الملكة البابلية سميراميس .

كما ان سميرام ، أو سميرنا السورية هذه ، تتطابق مع سير أساطير بلقيس ملكة سبأ الحميرية اليمنية ابنة هود أو الهدهاد بن شرحبيل ، وكذلك تشابه سيرها وحكاياتها ، مع ما دار حول « ميرنا » ملكة « الامازون » الليبيات ، بحسب روايات ديودوروس الصقلي :

« ان ميرنا ملكة الامازون الليبيات ، جندت جيشا قدره ثلاثون ألفا من المشاة - الامازون - واثنا عشر ألفا خيالة ، وطافت افريقيا ، وعندما مرت بمصر ، صادقت حور بن ايزيس ، الذي كان ملكا متوجا بها ، ثم زحفت من هذا على العرب وذبحتهم ذبحة عظيمة ، وعادت بطريق الشمال وغزت سوريا » .

أما ما تبقى من تراث وأساطير المدينة الدولة هليوبوليس ، أو بعلبك ، التي استمد اسمها من الاله الشمسي بعل ، فانه يؤكد أكثر سيطرة التراث العقائدي والاسطوري المصري ، على فينيقيا ، وبحسب ما يقول عالم الاساطير المقارنة ماكروبولوس ، الذي أشاد به فريزر في أكثر من مكان في موسوعته الفولكلورية الانثروبولوجية « الفصن الذهبي » ، فان أصل هذا الاله الشمس ، قد جاء الى بعلبك من مصر : « حمل من مصر ومن المدينة التي تسمى أيضا بهليوبوليس » . وما عساه ماكروبولوس هو الاله الشمس المصري رع ، الذي كان مركز عبادته مدينة هليوبوليس ، أو عين شمس .

وكان الاله تيفون واحدا من الآلهة الهامة التي ورد ذكرها في الميثولوجي الفينيقي الكنعاني . وتيفون اله مشؤوم لا سامي ، اذ انه كان اله القبائل الرعوية اللاسامية ، الذين عرفوا بالهكسوس .

ويرى روبرت جريفز ، أحد علماء الانثروبولوجي ، ان الهكسوس قبائل رحل رعوية ، جاؤوا من ارمينيا وما يجاورها ، فغزوا سوريا وفلسطين ، ثم دخلوا مصر حوالي عام ١٧٨٠ ق.م . وأقلموا انفسهم على الاستقرار في دلتا النيل وشمال مصر عامة .

وجعل الهكسوس من الههم الحامي تيفون أخا لاوزوريس ، الا ان المصريين وحدوا تيفون بست ، قاتل اوزوريس ومفتصب عرشه ، فكان تيفون ، الاسم المستعار لست ، من الد أعداء اوزوريس . ولقد رمز به المصريون ، الى عالم الظلام والشر ، اذ انه عندما رأى قدر أصدقائه ، جدف منزعجا بكلام أشبه بنهيق الحمار ، وبسبب كلماته الخبيثة أصبح شيطانا ، وظلّ خصمًا لابن حورس ، وسببا دائما لآوته السنوي أو الموسمي .

ويذكر بلوتارخ عن طرد الهكسوس من مصر ، بقهر اوزوريس لتيفون وطرده من مصر ، بل من غرب آسيا عامة : « ان تيفون بعد أن غلب وفرّ من المعركة ركب حمارا ، ولم يصب الا امان الا في سابع يوم لهروبه » .

فلقد لعب هذا الاله الشرير الذي وحده الساميون مع الحية « فتن » ، التي من صدرها رضع تيفون « أدوارا متعددة لدى الشعوب الآسيوية بشكل مجمل ، فتروي عنه الخرافات الفينيقية انه كان تنينا هائلا » . وعندما ضرب بالصاعقة ضربات هائلة غاص في قاع الارض ، فحفر مجاري الانهار ، وفجر الينابيع ، حتى فاضت مياهها فمالت مجاري الانهار ، لذا سمي النهر طيفون » .

وفي حكاية أخرى ، نقلها سترابون عن المؤرخ السوري « بوسيدون » ، يقال انهم « عثروا في سهول مقره بفينيقيا ، على حية ميتة ، شغلت جثتها فدان أرض ، وأما ضخامتها فشيء عظيم ، فيمكن لفمها أن يبتلع حصانا براكبه » . وفي حكاية فينيقية أخرى « ان تيفون تسبب في اشعال حريق هائل باشعاله غابات أرض لبنان ، حتى عمّ الحريق آسيا بأسرها ، ووصل الى الهند » ، وذلك بسبب ما كان ينفثه حلقه من لهيب .

وارتبطت بعلبك بالاحتفالات السنوية المأجنة ، بعيد قيامة الاله الممزق ادونيس ، ثم ديونئوس خلال حكم اليونان ، وأخيرا باخوس بعد مجيء الرومان ، وكانت الاحتفالات تقام في السهول الممتدة حول بعلبك ، حيث الكروم والخمر التي « أسكرت الناس وثنيات السهول الخصيبة » .

ولقد وحد الفينيقيون بين النخلة ، التي اعتبرها الساميون بعامة شجرة الحياة في جنة عدن ، وبين الهة الاخصاب الجنسي والتعشير عشتروت أو عشار ، فالنخلة كانت شجرة الميلاد أو شجرة العائلة عند كل شعوب غرب آسيا ، في مصر وبابل وفينيفيا والجزيرة العربية ، كما ان من اسمها جاءت تسمية فينيقيا أو فينيق أبو الفينيقيين ، بمعنى « الدامي » ، اذ ان شعوب البحر الابيض عامة ارتبطت وربطت بين عمليات اخصاب النخيل ، أو ما يعرف بـ « الطلوع » أو التلقيح التي بدونها لا تطرح النخلة أو ثمر ، فهناك علاقة بين النخيل ، وبين الموت ثم القيامة ، أو توالي الولادة والاستمرار .

وكانت النخلة هي شجرة عشتروت المقدسة ، فمن ثمرها — أو ثمرها — تسمت عشتروت ، كما ان من اسم ثمرها جاء اسم الاله « دامور » أو « تامور » أو « تامير » أي التمر ، ووجدت آثار هذا الاله في جزر البحر المتوسط التي استعمرها الفينيقيون ، فكان يصكّ على النقود في شكل أو شعار نخلة وافرة الثمار .

فلقد سمى اليونان فينيقيا والشرق الادنى القديم عامة ، ببلاد النخيل ، كما ان من اسم النخلة تسمت مدن « تدمر » في كل من الشام واليمن والحجاز ، كذلك فقد عبد العرب نخلة نجران ، كالهة ، وكانوا يزينونها سنويا بأزياء نسائية (١) ملونة ، كما يقول جريفر .

ودخلت النخلة الميثولوجي الاغريقي ، فكل من الآلهة أبولو ، ونبتون ، وذيولين ، ولدوا تحت نخلة ، وكذلك المسيح في الميثولوجي السامي .

وتضيف أساطير بعلبك ، ذات الاصول أو المنابع المصرية ، ان طائرا يسمى فينيق أو النخيل كان يحجّ الى هليوبوليس ، أو بعلبك ، فيموت بها ثم يعاود الحياة من جديد . . فيقال ان فينيق

(١) وهو تقليد ظل ساريا حتى عصر الفاطميين في القاهرة الفاطمية ، بل والملوكيسة .

هذا هو بعينه الطائر المصري الخرافي « بينو » ، وهو طائر خرافي لم يتشكك الاقدمون في الايمان به ، فعبدوه في هليوبوليس كروح لاوزوريس ، كما ربطت عبادته بعبادة رع ، وعدّ في أغلب الاحيان صورة ثانية له ، ووحده الفينيقيون بطائرهم فينقس ، الذي وصفه هردوت (١) بأنه كان يشبه العنقاء ، وقال بأنه يظهر في مصر مرة واحدة كل خمسمائة عام ، وما أن يولد « فينقس » في أعماق الصحراء أو الجزيرة العربية ، حتى يطير رأسا حاملا جثمان أبيه ، ليحط على مذبح معبد هليوبوليس ، وهناك تحرقه أعشاب المر ، ويتم هذا في احتفالات ضخمة هائلة تحشد لدفنه ، وتتم في جو جنازي كبير . ويعدّ موت هذا الطائر فينقس أو بينو أهم حادث لاهوتي في كل مصر .

وفي إحدى الحكايات التي أوردها القديس هيرونيم عن هذا الطائر ، الذي لقبه الفينيقيون باسمهم فينيق : « أن هذا الطائر يعيش في الهند لمدة خمسين عاما ، ثم يجيء إلى فينيقيا ، ليجمع طيوب لبنان ، ويصنع منها عشا فيفطي كاهن معبد هليوبوليس ، هيكل الاسرار ، الذي يلقي عليه فينيق بطيوبه الممزوجة بالعنبر . لكن ، ومع شروق الشمس ، يخفق فينيق بجناحيه ، فيلتهب العنبر بواسطة أشعة الشمس ، وتشتعل الطيوب فتحرق فينيق ، لكنهم في اليوم التالي ، يرون دودة متولدة من رماده ، وفي اليوم الذي يليه ، ينبت للدودة أجنحة ، وفي اليوم الثالث يطير « فينيق » عائدا إلى وطنه .

وفي الاساطير العبرية : « أن فينيق طائر يعيش ألف سنة ، وبعد انتهائها ينبعث في عشه لهيب فيحرقه ، لكن تبقى فيه بيضة يعاود منها فينيق الحياة ، وان هذه القيامة أعطيت لفينيق من عند الله ، لانه كان الطائر الوحيد الذي استنكر أكل حواء من الشجرة المحرمة » .

وواضح انها هي بعينها فكرة تقديس الجمران في اللاهوت المصري القديم ، من حيث المفزى المتمثل في الموت ومعاودة القيامة .

1 — Larousse p. 46 — Diction of Mythogy .

وبحسب تفسير د. مرغريت مري ، فان الجانب الصلب الذي كان يتبقى من الجعران الميت ، يصبح بعد ذلك وعاء يبيض فيه جعران جديد ، اي ان من الموت نبت الحياة .

ولقد لعبت هذه الشعيرة الفينيقية ذات الاصل المصري ، اهم ادوارها بعد ذلك فيما يتصل بمعتقدات الموت والفناء . ثم معاودة الحياة ، او الولادة ، او القيامة ، فلقد امتدت مناقشات لاهوتية لا حصر لها حول هذه الفكرة الزراعية عن الموت والقيامة ، وموجزها البذرة التي تفسد لتنبت وتزهر . واتسعت هذه المناقشات والمجادلات في القرون السابقة على ظهور المسيحية بل وعقبها ، واشترك فيها من المؤرخين والمفكرين - فيما قبل المسيحية - بليني وسولون الابدري وفيلسترات ، ومن اللاهوتيين المسيحيين ، اقليم الاسكندري ، وأوريغان ، وأوناب ، والقديس غريغور النزنيري ، والقديس كيرلس الاورشليمي ، والقديس هيرونيم ، والكثيرون غيرهم .

ويبدو ان احتفالات موت فينيق وقيامته الهائلة كانت تقام بمدينة بعلبك ، لمشاهدة شعائر موت واحتراق ذلك الطائر فينيق ، ثم قيامته المظفرة « حيث كان يرتقي الاعشاب العطرية ، ارتقاءه عرش الخلود ، فتجرقه أشعة الشمس على مرأى من الملوك والعظماء ، والكبراء والكهنة والاحبار ، وعدد لا يحصى من الشعوب المتقاطرة ، لمشاهدته من جميع جهات آسيا ، ولا يلبث قليلا حتى يحيا ثانية من بين رماده ، ويطير مجددا شبابه السماوي الخالد » .

كما يبدو ان ثمة علاقة غريبة ، لم يتنبه اليها أحد بالدرجة الكافية ، وهي العلاقة بين الاسم فينيق أبو الفينيقيين ، وبين نباته أو شعاره المقدس أو طوطمه ، الذي هو النخلة ، وكذلك بين معتقدات الموت والفناء ، ثم معاودة البعث والقيامة التي كان يمثل أطوارها ذلك الطائر المقدس المسمى فينيق .

والذي أود أن أتلسمه وأشير اليه ، هو ان من ثمر النخلة ، أو بلحها ، كان سكان الشرق الأدنى القديم يصنعون خمرهم المعروف بالجة أو العرقي ، وكانوا يشربون ويسكرون ، قرى بأسرها

تشرب وتسكر وتنام كلما خيم الليل » وذلك مخافة الانزلاق والتفكير في معميات الحياة والموت والفناء .

وهي واحدة من لمسات أبو التاريخ هردوت وتفسيراته التي دوّنها في كتبه التسعة خلال طوافه بشعوب شرقنا الأدنى القديم الفابر .

وفي ملاحظة أخرى تتصل بعلاقة - عرقي - البلع بالموت ، يضيف هردوت : « ان المصريين كانوا يخرجون أحشاء الميت كلها ، فينظفونها ويفسلونها بنبيذ التمر » (١) .

ولقد تداخلت الممالك أو المدن الدول الكنعانية الفينيقية ، مع مايتاخمها ويجاورها من شعوب وقبائل سامية ، أي الآرامية المنحدرة من نسل آرام أكبر أبناء سام ، في ممالك . . آرام دمشق « التي يقال ان مؤسسها هو عوص بكر آدم ، وممالك صوبه وحماه وحمص ورحوب في سهل البقاع ، وكذلك جشور ، ويطور ، نسبة الى يطور بن اسماعيل بن ابراهيم من هاجر .

فالكنعانيون : « ملعونو العهد القديم » جابوا البحار ونشروا تجارتهم الواسعة ، على عكس ما فعله الآراميون سكان الجبال الذين خافوا ركوب البحر واقتحامه وعدّوه محرما أو تابوا ، كالمصريين القدماء .

ولقد واصل اليونان والرومان بعد ذلك اتهام هؤلاء الكنعانيين بالخسة والوضاعة ، مثلما فعل جيرانهم الساميون من العرب واليهود ، فقال عنهم شيشرون : « انهم ولدوا للعبودية » ، وكذلك نظر اليهم سقراط . وكان من بين أمثلتهم : « سوري ضد فينيقي » بمعنى خبيث ضد خبيث .

والواقع ان الامبراطوريتين الاغريقية والرومانية استفادت أشد الاستفادة من تمزق هذه الشعوب القبلية العرقية المتنافرة في الشام وفلسطين من فينيقيين وآراميين وسريان وعبرانيين وأنباط وعرب .

(١) « هردوت يتحدث عن مصر » ، ص ١٩٥ .

الا ان الشيء الهام الذي خلفه النسل أو الرهط — اللعين بحسب اعتقاد القدماء — هو اللغة الكنعانية ، التي منها جاءت العبرية القديمة لغة الكتاب المقدس ، والتي لم تكن الابجدية الفينيقية سوى احدى أفرعها ، والابجدية الفينيقية « هي ما أصبحت اللغة اليونانية ، التي كتب بها اليونانيون منذ القرن الثامن ق.م. كما يقول توينبي » .

ولقد حفظت هذه اللغة الكنعانية العريقة ، بعد الفتح العربي « في لغة الطقوس الدينية المسيحية عند الموارنة والسريان في لبنان » (١) .

ولقد خلفت هذه الشعوب السامية ، أسماء أسلافها وأسماءها على كل مكان وطئته .

وبحسب قول عبيد بن شريه الجرهامي ، فان قارة افريقيا سميت هكذا ، نسبة الى الملك الحميري « أفريقيس بن أبرهه » ، الذي يقال انه عندما غزا المغرب — شمال افريقيا — متجها اليه من أرض البربر ، فرأى بلادا كثيرة الخير ، قليلة الامل ، فنقل البربر من بلادهم فلسطين الى مصر . فلما بلغ افريقيس حيث بلغ من فتوحات أمر ببناء مدينة بتلك الأرض من افريقيا ، فبنيت مدينتها وانما سميت باسم افريقيس ، وكذلك تسميها بربر اليوم ، فأما العرب فتقول افريقيا » (٢) .

واسم الشام (٣) ، نسبة الى سام ابن نوح ، وأصله في العبرية والسريانية « شام » أو « شم » ، كما أطلق اسم آخر أبناء سام ، وهو آرام ، على معظم لبنان وسورية وما بين النهرين ، أي آرام النهرين ، كما انهم أطلقوا على مصر حام ، وأما ابنه كنعان ، فقد سموا به المنطقة الممتدة من الأردن الى البحر الابيض ، كما انهم أطلقوه على لبنان ، وبشكل خاص على الريف الفينيقي الزاخر بالكنعانيين . كما ان تسمية اليمن ، تتصل بعرب بن قحطان ،

1 — Larousse p. 498 .

(٢) أبو الفدا — ص ١٠٢ .

(٣) تكوين ١٠ : ٢٢ .

الذي كناه أباه بأيمن « أن أيمن يا يعرب » . وكان العرب يعنون باسم اليمن ، كل ما هو واقع على يمين القبيلة ، ولذلك شملت تسمية بلاد اليمن الشام بأسره .

كما تنسب تسمية أرمينيا - بالاتحاد السوفياتي اليوم - إلى هجرات آرامية يقال إنها وقعت في القرن السابع قبل الميلاد إلى أرمينيا التي كانت تعرف قبلا بأرض أراط .

كما أن الميثولوجيين الساميين سمووا كل ذوي البشرة السوداء كوشيين (١) ، وذلك نسبة إلى حام - ابن اللعنة - الذي تحمل أبناؤه فيما بعد وزر أو خطايا أبيهم حام ، حين عصى حام أباه نوح ، وجامع امرأته خلال حجهم للبيت ، فلعنه نوح : « اللهم سود وجهه ووجه من عصى ووطىء امرأته » . وعندما ولدت امرأة حام غلاما ، جاء أسود اللون ، وسموه كوشا ، وولد لكوش الحبشة ابن كوش ، أما شقيقه الثاني الذي لحقته لعنة أبيه أيضا ، وهو « ماريع بن حام » ، فقد ولد ثلاثة أولاد أو أجناس ، هم كنعان بن ماريع ، وبربر بن ماريع ، والنوبة بن ماريع .

وكذلك فقد خلفوا حضاراتهم على أعلى قمم جبال لبنان (٢) وفلسطين ، مثل جبال السامرة والعربية وطمعاد واليهودية ، إلى جانب جبال شعيب صاحب مدين في الشام وسيناء ، وشعيب بن حضور بن آلوت نبي القحطانيين في اليمن ، وأيضا جبل ضهر في اليمن الذي وحدوه بالنبي هود : « لن نطيع الدهر هودا » ، وجبل حرمون ، أو الجبل الشرقي في لبنان ، أي جبل الحرمان ، سمي كذلك بحسب تفسير القديس « هيرونيم » الذي فسر حرمون أي بالموت حدادا على هابيل ، ذلك لأن جنوبي هذا الجبل ، يطلق عليه اسم هابيل .

ولقد أورد زكريا القزويني ، حكاية غريبة بسهل عكا قسي أطراف لبنان ، فقال أن :

« بها عين البقر ، وهي بالقرب من عكا ، يزورها المسلمون واليهود

(١) التيجان - وهب بن منبه ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) تاريخ لبنان - الأب مارتن اليسوعي ، ص ٨٩ .

والنصارى ، ويعتقدون ان البقر الذي ظهر لآدم فحرث عليه ، لأول مرة ، اخرج من هذه العين » ، وهي نفس العين التي سماها الفرنسيون بعد ذلك في القرن السابع عشر ب : « عين العذراء مريم » .

ونهر القاسمية ، كان يسمى نهر الليطاني أو الممنوع أو الملعون أو الحرام ، وكذلك نهر قديشا أو المقدس الذي سموه « ايطا » وفسروه بالشرير ، أما نهر الاولى ، أي نهر المدينة الاولى ، فقد سماه العرب قديما بنهر الفراديس ، وكذلك فقد استبدل العرب نهر أدونيس ، باسم ابراهيم ، ويشنير « رينان » الى وجود علاقة بين ابراهيم وأيل اله جيل ، بل ان العرب خلطوا بين ابراهيم وبين الاله « بل » اله الكنعانيين .

واستنادا الى ما يقوله أحد قدامى الرحالة الفرس (١) ، فان أحد سهول بيت المقدس وهو سهل « الساهرة » ، اعتقد العامة في انه سيكون ساحة القيامة والحشر : « ولهذا يحضر اليه خلق كثيرون من أطراف العالم ، حتى يموتوا ، فاذا جاء وعد الله ، كانوا بأرض الميعاد » . كما انهم اعتقدوا في ان هذا السهل ، هو « بيت فرعون » وسموه « وادي جهنم » .

ومن أماكن اليمن المشؤومة جبال ختا أو خياف ، والجبل الاشيب سيد جبال النار ، وقطب اليمن ، فيقال ان ذلك الجبل ، يظهر عليه أهل النار والخراب ، وتعوي فيه الدئاب ، كما ان من بين الأماكن الملعونة نجران وصعده ، وبكلي ، ويروى عنها الكثير من الخرافات ، وأما جبالها المقدسة فهي جبال حضور ، وحنين ، ورأس جبل علي ، ورأس صبر ، وتعكر ... الخ .

وباليمن وادي يعرف بوادي عشار « كثير الاخصاب » ، نسبة الى الالهة ايشار أو عشتروت ، كما ان اليمنيين نسبوا أقدم قصور اليمن ، وهو قصر « غمدان » ، الى سام بن نوح الذي « ابتداء بنائه واحتفر بثره » . وتنسب حوله الخرافات ، ان طائرا اختطف المقرانة وطار بها ، وتبعه سام ، لينظر أين أوقعها الطائر ، ثم أقام البناء » .

(١) سفر نامه - ناصر خسرونامه .

كما اعتبرت مدن الشام وقراها ، مسرحا لما لحق الخطيئة الاولى . . فيقال : « ان آدم لما أخرجه الله من الجنة (نعيم عدن) سكن جبل حرمون - جبل الشيخ - وان ولديه - قابيل وهابيل - أقاما طويلا شرقي الفردوس في سهل البقاع ، ويستدل على صحة هذا التقليد اليوم من قبور هابيل وقابيل وشيت المقامة في المحل المشار اليه » (١) . ويقال ان تسمية دمشق ، نسبة الى اراقسة دم قابيل لاخته هابيل . ويقول القديس هيرونيم : « ان معنى دمشق شراب الدم » . كما يقال انه من ارض دمشق هذه قيل لقابيل : « والآن فملعون أنت من الارض التي فتحت فاهها لتقبل دماء اخيك من يدك » .

ويقال ان هذا التقليد ، كان منتشرا بكثرة في أيام الحروب الصليبية ، كما يقال بأن باني دمشق هو « اليعازر » خادم النبي ابراهيم ، في نفس الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل .

أما دمشق فهي ارض « آدم » التي منها جاءت تسمية آدم ، بمعنى اديم الارض أو القدم ، ويبدو ان تسمية أدوم كانت تشمل جزءا من الاردن . وهي الارض التي نزلها عيسو أو العيص بن اسحاق (٢) .

فيبدو ان أدوم كانت تشمل أيضا جزءا من الاردن . ويؤكد هذا الكشف الحفري التي توصلت اليها البعثة التي أعلنت بعض نتائج اكتشافاتها في يوليو ١٩٧٤ .

وينتشر بين سكان جبل قاسيون ، شمال دمشق ، اعتقادا بأن جريمة « القتل الاولى وقعت في أعلى قمم الجبل » . وينسب القزويني لاحدى صخور دمشق الكبيرة ، انها كانت المكان الذي قدما عليه قربانهما « حين تقبل من صاحب الزرع ، ولم يتقبل من صاحب الرعي » . وهناك حجر عليه مثل آثار الدم ، اعتقد الدمشقيون القدماء في انه الحجر الذي هشم عليه الاخ اخاه ، لذا سميت المغارة المجاورة لهذا الحجر « مغارة الدم » .

(١) البطريرك اسطفان الدويهي في تاريخه .

(٢) المصدر السابق ، في تفسير نبوة حزقيال (٨ ف ٢٧ : ٨) .

وبينما يرى المسلمون ان الجريمة وقعت داخل « أغوار » (١) صحراء شديدة الجذب ، ومنذ ذلك اليوم لم يقرب الندى جذب هذه الصحراء ، يرى اليهود ان الجريمة وقعت في احدى قرى جبل قاسيون ، وهي قرية بسيمة .

ولقد وحد الاقدمون بين قابيل والشيطان « اشمودي » الذي ينسب له تشييد مدينة بعلبك ، التي اعتبروها اول مدينة في العالم . اذ ان قابيل ابن آدم عندما اعتراه الارتعاش امر بنائها ، ولقبها باسم ابنه اخنوخ - النبي ادريس - واسكن فيها الجبابرة والمهترجة ، وكثرة فواحشهم ارسل الله عليهم طوفان المساء « او طوفان نوح » .

ويسمى وادي البقاع بسوريا بسهل نوح ، وبه قبر نوح بالقرب من زحلة ، وان ملكا هو الملك الظاهر - عام ١٢٥٨ م - أعاد بناء القبر فجعله « واحدا وثلاثين مترا » .

وبالنسبة لابراهيم ، فان في مدينة القدس صخرة يقال ان « عليها آثار سبع أقدام » (٢) . وسمعت ان ابراهيم كان هناك ، وكان اسماعيل طفلا فمشى عليها ، وهذه هي آثار أقدامه . « ويرى البعض ان قبر نمرود الجبار ، الذي حاربه ابراهيم ، موجود بجبل لبنان » ، الا ان هناك من يقول ان في قرية « أرواد » أربعة قبور لأربعة من أبناء كنعان .

ويعتقد سكان قرية كفر ناحور بلبنان ، ان قبر كنعان موجود على احدى الصخور الموجودة هناك ، كما يقال ان النمرود بن كنعان هو باني قلعة بعلبك . وفي بعلبك بقايا آثار قصر سليمان ، ودير الياس ، وجبل سعيد الذي على قمته أقدم ابراهيم على ذبح ابنه وبكره اسماعيل .

وفي مدينة عكا ، توجد قبور « عك » باني المدينة ، وعيش ، وشمعون ، وذي الكفل ، وهود ، وعزيز ، وشعيب ، وابنته زوجة

(١) تبعد ٩ كيلومترات عن دمشق .

(٢) خسرونامه ، ص ٦٤ .

النبي موسى . وفي قرية اربل ، أربعة قبور لاربعة من أبناء يعقوب ، وكذلك غار ، وجد به قبر أم موسى ، ويشوع بن نون ، بالإضافة الى سبعين نبيا .

أما في جنوب بحيرة طبريا فيوجد بحر لوط ، ويقال ان مدينة لوط (١) كانت تقع على شاطئه .

موجز القول ان الاقوام السامية قد خلفت أساطيرها ومعتقداتها الخرافية في عصور الظلمات أو عصور ما قبل العالم على آثارها ومنشأتها ومعالمها الطبيعية بشكل غاية في الافراط .

(١) سدوم وعموره ، مدينتا البحر الميت ، وهو ما أشارت اليه وأكدتته كشوف أو نصوص البحر الميت الهامة .

الفصل الرابع

تدوين التراث

لم ولن تكون الميثولوجيا العبرية والتراث اليهودي عامة ، حكرا ووقفا على اليهود ، ذلك انها الجانب التسجيلي المبكر لمجرى الاحداث المبكرة لتاريخ الشرق الادنى القديم ، بهجراته ومنازعاته ولاهوته ومعتقداته ونكباته . وادق خصائص كل رهط وقبيلة ومدينة دولة وشعب ، لاقوام الشعوب السامية او غير السامية التي تنازعت الوجود على ارض هذا الجزء من العالم ، وهو شرقنا الادنى الموغل في القدم والعراقة والتجدد الدائم .

ودور اليهود في هذا التراث ، لا يعدو انهم كانوا مدونه المبكرين وحفظته من الضياع ، ومن خلال دورهم فيه ، مع عدم تناسي موقفهم الحلقي القبلي المغلق ، الذي ابرز دورهم كقبائل عنصرية فاشية متفوقة « من الاولياء » كما يدعون ، وهي مرحلة حتمت عليهم تلقي مجرى احداث العالم الخارجي من حولهم ، من خلالهم هم بالذات .

الا ان ما يجدر تأكيدده ، هو ان التراث العبري ملك مشاع مشترك لكافة شعوب الشرق الادنى ، نظرا لكونه وثيقة مدونة مبكرة لها أهميتها في التعريف بماضي هذه الاقوام مجتمعة ، تضاف الى بقية الوثائق ، من حفريات أو تاريخية ونصية وشفاهية،

في القاء المزيد من الضوء على ذلك الماضي ، بهدف إعادة انارة
وجلاء مستقبله . فما أحوجنا اليوم الى المعرفة شبه العلمية
لماضينا ومكوناتنا الاولى ، بالقدر الذي يسهم في ايضاح طريق
المستقبل .

لذا فمن الصعب ، بل المستحيل ، أن يتكامل تاريخ حضاري
شامل متكامل لشرقنا القديم ، بمعزل عن المدونات العبرية ، من
مقدسة وغير مقدسة ومحظورة أو ممنوعة وهكذا . من ذلك التوراة
أو العهد القديم والتوراة الشفاهية ، أي التلمودان البابلي العراقي
والاورشليمي الفلسطيني ، والتلمود الحجازي ، والاسفار المحظورة
« الابوكريفا » .

وليس هذا برأي جديد ، إذ ان كثيرا ما ترفض حركة
الاساطير والفولكلور العالمية اعتبار التراث اليهودي العبري بعامة ،
تراثا متميزا مكتمل الشخصية ، على اعتبار انه « في مجمله
ينتمي لتراث البلدان المتاخمة » ، أي ان هناك شرعية في ملكيتنا
أيضا لهذا التراث البالغ الاهمية الذي ينتمي في مجمله لتراث
البلدان المجاورة ، في فلسطين والشام ، ومصر والعراق واليمن .

وكما يقول كامل زهيري ، فان اليهود قوم تكمن مأساتهم في
انهم يمتلكون تاريخا دون جغرافيا ، بمعنى وطن ، أو قطعة أرض .
فهم كجنس تراجيدي غريب ، واصل طوافه المتصل الدائم ، من
مجتمع الى آخر ومن قارة لاخرى ، على طول تاريخهم - سواء
القديم أو الحديث - مما أكسبهم لفولكلور ومعتقدات وثقافات تلك
الشعوب التي عاشروها واتصلوا بها ، منذ خروج القبائل الرعوية
العبرية من أور الكلدانيين في دلتا العراق مع انتهاء الالف الثالثة
قبل الميلاد ، ونزولهم أول أمرهم جيرانا في بادية الشام ، ثم
دخولهم أو مجيئهم الى مصر ، ثم نزولهم الى فلسطين أو أرض
كنعان ، واتصالاتهم وتعاملهم مع الكنعانيين والاموريين ، وامتصاصهم
الدائم لتراث هذه الاقوام وغيرها .

وتجيء بعد ذلك عصور اتصالاتهم بالبابليين والاشوريين
والفرس منذ الالف الاولى قبل الميلاد ، فمن بابل وآشور أخذوا

لمب معتقداتهم عن السحر والحيوانات الخرافية السحرية التي
بدى بكثرة شديدة في رؤى دانيال ومراثي آرميا وحزقيال .

ومن الفرس جاءتهم كل تصوراتهم ومعتقداتهم عن الملائكة
الشياطين والجن ، بمعالمها وأسمائها الفارسية المجوسية ، الى
عانب الثنائية الفارسية عن الخير والشر ، أو الموجب والسالب ،
التي تميز بها هذا التراث الآري المجوسي وسط حضارات العالم
لقديم عامة والتراث السامي بشكل أخص .

ولقد جاءت الكشوف السومرية اللاسامية في العراق ،
أوضحت الكثير من الغموض بالنسبة للتراث السامي بشكل عام،
التراث العبري بشكل أخص . فلقد أوضحت هذه الكشوف
لسومرية - الألف الرابعة قبل الميلاد - عن حقيقة « أصل التوراة
ناتها ومنشئها ، وان هذه المجموعة من الآثار العظيمة لم تجيء الى
لوجود كالازهار الصناعية ، وهي كاملة النمو ، بمعنى انها تنتشر
نتشارا واسع المدى في تراث الاقوام المجاورة » .

وليس بغريب أن تراث العبريين هو على وجه التقريب تراث
وحضارة أولئك السومريين اللاساميين وصل اليهود عن طريق
الوساطة الكنعانية ، مثلهم في هذا مثل بقية الاقوام والجماعات
السامية ، وذلك عقب انتقال ذلك التراث السومري الى الورثة
المباشرين ، وهم الكلدانيون والبابليون والآشوريون والحثيون
والكنعانيون .

وعن الكنعانيين الذين سبقوا العبريين في استيطان فلسطين،
وبعض مدن الساحل الفينيقي ، سرى الى الوجود تراث تلك
الحضارة اللاسامية المندثرة مثلما توارث العرب - خاصة
القحطانيين سكان اليمن والجنوب العربي - حضارات لاحقهم من
القبائل العربية المندثرة التي ترجع الى ما قبل الألف الثالثة قبل
الميلاد ، وهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وغيرهم .

وقد لعبت الحضارة الكنعانية ، وطليعتها البحرية فينيقية -
- نظرا لاقتحامهما المبكر للبحرين الأبيض والأحمر - دور الوسيط

في حمل تراثي مصر وبابل ، والابحار به ونشره على طول سواحل البحر المتوسط .

لذا يرى البعض ان كلا الترائين العقائدين العبري اليهودي والفارسي المجوسي ، بالاضافة الى الترائين الهليني والمسيحي ، جاء جميعه تحت التأثير المباشر الكنعاني ، السوري او الاشوري فيما بعد .

فيبدو ان خليطا عريضا من اجناس واقوام شعوب البحر المتوسط قد استوطنوا المدن السورية على مدى تاريخها ، مما ساعد على اثراء التراث السوري الكنعاني .

ويذكر غوستاف لوبون (١) ان سكان مدن سورية وقراها « مزيج من المصريين والفينيقيين واليهود والبابليين والفرس والافارقة والرومان والعرب والمفتول والشركس والصليبيين والترك ، وغيرهم من الامم التي استولت بالتتابع على سورية » .

ويرى توينبي (٢) ، بالنسبة لليهود ، ان شعب مملكتي « اسرائيل ويهوذا قد رفع نفسه مكانا ساميا ، ابان فترة من تاريخه الذي بدأ في طفولة الحضارة السوزية وبلغ الاوج في عصر الانبياء » .

ويرجع السبب في تركيزي على الحضارات او المنابع الام او حضارات الجيل الاول في دلتا العراق ، حيث الحضارة السومرية الاكادية ، وفي دلتا وادي النيل حيث الحضارة المصرية الفرعونية ، الى محاولة تعرف النبتة الاولى لكل موتيف اسطوري او فولكلوري وامكانية تتبعه ، وذلك نظرا لتعدد المصادر وتنوعها بالنسبة للفكرة او الموتيف الواحد ، مما قد يوقع الباحث في الخطأ وفقدان الطريق ، واعادة هدم ما أوشك في بدئه ، وهو ما أصبح تقليدا ساريا بالنسبة لدارس تراث قلب العالم القديم .

فما من اضافة كشفية اثرية اركيولوجية او نصية ، او

(١) حضارة العرب - جوستاف لوبون ، ص ٧٩ .

(٢) مختصر دراسة التاريخ - توينبي ج ٢ ص ٥٩ .

شفاهية ، لم تسهم في إعادة تكامل جزئيات هذا التراث الهائل ، مما يترتب عليه دوام الهدم المستهدف - أصلاً - لتوالي البناء واستقامته .

فيمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية - محتوية أو متضمنة الاساطير - أحد المركبات الهامة اليوم ، في إعادة بناء تاريخ الجسد الحضاري ، لأي شعب أو مجموعة من الشعوب .

مثل هذه الدراسات قد قطعت شوطاً كبيراً ، خاصة فيما يتصل بالتصنيف ، أي تجميع وتراكم عينات الفكرة أو المقولة الواحدة ، ثم بعد ذلك إعادة تعريف تاريخ حياة كل فكرة على حدة ، والاخذ بمبدأ أن أي فكرة أو مقولة أو شعيرة ، تصبح بلا قيمة ، ما لم يتحدد أصلها وفصلها ، وما طرأ عليها من تغيرات وإضافات ، من عصر لعصر .

وبمعنى آخر فإن فكرة خلق حواء من ضلع الرجل - مثلاً - ترد منحدرية من التراث السومري اللاسامي ، متبدية في التراث السامي عند الورثة البابليين والحثيين ، منتقلة إلى الكنعانيين الفينيقيين ، متبدية في أسطورة الإله « موت » !

فكان أن نقلها العبريون إلى أسطورة الخلق أو سفر التكوين ، وكذلك طوّف بها الكنعانيون وطليعتهم البحارة الفينيقيون إلى الحضارة الإيجية ، ومنها دخلت هذه الجزئية إلى التراث الهليني اليوناني ، ثم الروماني فيما بعد ، ثم اللاتيني في العهد المتأخر .

وبشكل مجمل يمكن القول بأن أسفار التكوين الاثني عشر الأولى ، تنتمي بكاملها إلى الميثولوجيا الكنعانية المتوارثة مباشرة من الحثيين والبابليين .

ومن هذه الأفكار خلق العالم ، وتوحد الخالق بالماء ، وإقدامه على خلق العالم عن طريق رسله الثلاثة ، ثم فكرة خلق الإنسان الأول « يوم خلق الله الإنسان ، على شبه الله عمله » (١) ، وهو ما تتميز به أساطير الخلق السامية ، على تراث العالم أجمع ،

(١) تكوين ٥ .

ومنها خلق المرأة من ضلع الرجل ، وتوحدتها بالحية التي توحدت بدورها بالشيطان ، ثم الخطيئة الاولى ، وكذلك تمشى الاله في الجنة عند هبوب الريح (١) ، كقرين للرياح ، وعمرى آدم عقب الخطيئة . وعقاب الاله للخطاة الثلاثة آدم وحواء والحية ، الذين حسدهم ابليس أو الشر واضلهم فكان أن طردوا من الجنة الى الجحيم - الارض ، وكان أن دخل الموت الى العالم « فان الله خلق الانسان خلداً ، وصنعه على صورة ذاته ، لكن بحسد ابليس دخل الموت الى العالم » (٢) ، وما توالى بعد هذا من عقاب للمرأة مثل ادماء حواء الشهري (الحيض) وتسيد الرجل عليها : « تكثيرا اكثر اتعاب حملك وبالوجع تلدين اولادا والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » (٣) .

وكان أن قهرت المرأة وسلب سلطانها ، خلال توالي هذا التراث الابوي البطركي الذي سيد أول ما سيد الرجل الذكر على المرأة الانثى ، والحق بها وزر الخطيئة الاولى : « فمن المرأة ابتدأت الخطيئة وبسببها نموت جميعا » (٤) .

ثم يعقب هذا سلسلة الانساب المفقودة ، أو المفقدة ، لحين مولد الجبابرة أو العمالق أو النماردة ، ملوك بابل والشام . فمن المعتقد أن أولئك الجبابرة البادئين أو المندجرين ، هم بداتهم الذين حاربهم العرب والعبريون على السواء .

ويذكر ابن خلدون عن الجبابرة :

« وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك اخبارا عريقة في الكذب ، من غربها ما يحكون عن عوج بن عناق ، رجل من العمالقة الذين حاربهم بنو اسرائيل في الشام ، فزعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس » .

ونسجوا حولهم الخرافات والاساطير ، ومنها شخصية

(١) تكوين ٣ .

(٢) .

(٣) تكوين ٣ .

(٤) يشوع بن سيراخ ، فصل ٢٥ .

« عوج بن عناق » ، وهو شخصية خرافية ، فيقال انه المخلوق الوحيد الذي لم يهلكه الطوفان ، كما يقال بأن قاتله هو النبي موسى . ويذكر في التوراة مع الجبابرة تحت اسم « عوج ملك باشان » . ولاستكمال التعرف على هذه الشخصية الاسطورية ، يمكن الرجوع الى دراسة الاستاذ فوزي العنتيل الموجزة الوافية في كتابه القيم « الفولكلور ما هو ؟ » (١) .

كما يقال ان اولئك الجبابرة هم الذين استأصلهم وأبادهم العمونيون والموآبيون ، سكان الاردن ، المنحدرون من نسل لوط ، والذين سبقوا - الاسرائيليين بالتحديد - في استيطان شرق الاردن .

ويضيف الجاحظ ان قبائل وملوك جرهم (٢) - وهم من العرب البائدة - جاءت :

« من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم ، فكان الملك من الملائكة ، اذا عصى ربه في السماء ، أهبطه الى الارض في صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وما كان من شأنهما وشأن الزهرة - أناهيد - ، فحين هبط جرهم في صورة الرجل تزوج أم جرهم فولدت له جرهما » .

وهم المنحدرون من نسل شيث ابن آدم « والى شيث تنتهي أنساب جميع أبناء آدم » .

وتزعم الملل والنحل ، المعروفة « بالصابئة » ، انه ولد لشيث ابن آخر اسمه صابئ بن شيث ، واليه تنسب الصابئة ، وشيث يلقب عند هؤلاء « عاد يموت » . وعاد هذا ، يمكن ان يكون رأس قوم عاد ، الذين أرسل لهم الله هودا ، وكانوا أهل أصنام ثلاثة . وكان عاد وثمود جبارين طوال القامات . وبما يلفت النظر ان نحل الصابئين هذه « كانوا مكذبين لنبوة ابراهيم ومن دونه ، وكانوا مصدقين بنبوة ادريس (٣) الذي هو أيضا احدى صور شيث ابن آدم ، أول من اخترع الكتابة .

(١) « الفولكلور ما هو ؟ » - من ص ١٩١ حتى ٢١١ .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ ، جزء ١٨٧ .

(٣) ابن حزم ، ص ١٠٢ .

وكان الصابئة يقولون بقدم الاصلين « الله والشيطان » ،
أو الخير والشر ، والموجب والسالب ، مثلهم مثل مل المجوس ،
ويعتقدون في « الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ، ويقربون
الدوايح ويصلون خمس صلوات في اليوم والليلة ، ويتصومون
شهر رمضان ، ويستقبلون في صلواتهم الكعبة ، وحرّموا الميتة
ولحم الخنزير ، وكان الذي يدين به الصابئة أقدم الاديان على وجه
الدهر والغالب على الدنيا ، وبقاياهم بحرّان يسمّون الحنفاء ،
ويتفقون مع النصارى في التثليث وفي ان خالق الخلق ثلاثة » .

وقد يلقي التفسير التالي مزيدا من الضوء على قدم حقيقتي
اولئك الصابئة أو الحنفاء ، وهو ان « يهوه » إله القبائل الاسرائيلية
عرف بيهوه صابوات (١) ، « أو يهوه صابىء أي رب الجنود ، أو
يهوه القائد » .

ويبدو تقديس الساميين « أصحاب الوبر » لهؤلاء الاسلاف
من الجبارين « بني الوهيم » ، أو العماليق ، فسي تلك الاسطورة
التي تكشف عن أصل منشئهم . ويلاحظ جيدا في هذا التراث
الاسطوري السامي ، انه ما من شعب أو قوم أو قبيلة أو رهط ،
لم تصاحبه أسطورة التي دفعت به الى الوجود وجاءت به الى
العالم ورسمت له أرض ميعاده .

وسنحاول توضيح هذا عند التعرّض لكل مجموعة أو حضارة
أو شعب بقدر من التبسيط . ونظرا لان هذه الحضارات أو
المجموعات أو القبائل المتجانسة هي ما ستطالعنا بشكل متوال
يفضي بنا الى متاهات علوم الانساب ، أو الكوزمولوجي .

فيرجع سفر التكوين الاسطورة المصاحبة لمولد ووجود هؤلاء
الجبابرة الى ان اتصالا كان قد تم بين الملائكة وبنات الناس « حين
دخل بنو الله على بنات النساس وولدن لهم اولادا ، وهؤلاء هم
الجبارون الذين منذ الدهر ذوو اسم » . وتذكر اغلب المصادر
السامية ان هذا الاتصال وقع على جبل « حرمون » أو جبل الشيخ

(١) التوراة : فؤاد حسنين ، ص ١٢ .

بلبنان وتحت ظلال أشجار أرز لبنان ، شجر عشتروت الهة
الاغصاب الجنسي ، « وهناك ولد الجبارون المذكورون الذين كانوا
في البدء الطوال القامات الحاذقين بالقتال » .

وعلى هذا فرقت الاقوام السامية بينها وبين أولئك الجبابرة،
بل انهم حاربوهم واعتبروهم خارج النسل السامي .

والملفت ان أحد مصادر الميثولوجيا العربية وهو عبيد بن
شريح الجرهومي ، ينسب عادة (١) الى شجرة النسب السامي ، فهو
كما يقول « عاد بن عوص بن سام بن نوح ، وهو الذي أحدث له
عشرة اولاد هم : شداد ، وكان أول ملوكهم الذي بنى مدينة
ارم ذات العماد ، والخلود وهم : رهط النبي هود ، وتيم بن عاد ،
وبهار ، والعنود ، والحقود ، والوصور » ، ثم تجيء بعد ذلك
الاسطورة النوحية ، نسبة الى النبي نوح ، الذي « وجد نعمة في
عيني الرب ، فأقام معه عهدا في نسله ، فأنجب نوح اولاده الثلاثة
حام وسام ويافت » ، ثم حلول الطوفان كعقاب ، وانقاذ نوح للجنس
البشري حين صنع فلكه وحمل معه من كل جنس أو مخلوق
« سبعة سبعة ذكرا وأنثى » (٢) ، وما أعقب الطوفان من انتقال
حضاري منها بداية التعريف بالمحارم : « غير ان لحما بحياته دمه
لا تأكلوه ، وأطلب أنا دمكم لانفسكم » (٣) ، واقامة الله الميثاق
مع بني نوح : « وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق
بيني وبينكم » ، ثم تجيء بعد ذلك أول أفكار القبيلة أو الرهط
الملعون ، متمثلة في خطيئة حام ، حين سخر من عري أبيه نوح
والتي بسببها أصبح وجهه الحاميين - ذوي البشرة السوداء -
أسود في المصادر العربية، ولعن بسببها كنعان ابن نوح في الاساطير
العبرية : « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لآخوته » (٤) .

(١) نبوة ياروخ : فصل ١ - التيجان - اخبار عبيد بن شريح الجرهومي ،
ص ٢٢٦ .

(٢) تكوين ٧ .

(٣) تكوين ٩ .

(٤) تكوين ٦ : ٢ .

وكان أن انحدر من حام ابن نوح « كوش » - أبو الكوشيين في النوبة والسودان - ومصر ايم وفوط وكنعان و « كوش » - أبو الصيادين في البر والبحر - ولد نمرود ، الذي ابتداء أن يكون جبارا في الارض ، « أما ابنه كنعان - ابن اللعنة - » (١) فولد صيدون - مؤسس مدينة صيدا - في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وبكره حثا - أبو الحثيين - واليبوسى والامورى والجرجاشي « وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وآدمة - آدم - وصبويم الى هالاشع » .

ومن نسل سام جاء عيلام - أبو العيلاميين - وآشور ولد آرام - أبو الآراميين - وشالغ وعابر « ولعابر ولد ابنسان اسم الواحد فالج لان في أيامه قسمت الارض واسم أخيه يقطان » .

ويقطان هو قحطان - أبو القحطانيين - ومنه جاء العرب القحطانيون الجنوبيون سكان اليمن ، كما انه أبو العرب العاربة ، وابنه يعرب بن قحطان « أول من تكلم العربية » ، ومن نسله جاء ملوك سبأ ، وكان أولهم الملك عبد شمس بن سبأ ، الذي سمي سبأ لانه كان يسبى أعداءه ، وبحسب ما يشير به نسبة العرب ، فان من نسل سبأ انحدر ملوك حمير ، وكهلان .

فمن حمير ملوك بني قضاعة ، وبنو كلب بن وبرة - وهم الكلبيون - ، ومن كهلان انحدرت سبعة بطون ، تضخموا الى قبائل وحضارات كبيرة فيما بعد ، وهم : طيء ، ومذحج ، وهمدان ، وكنده ، ومراد ، وأنبار ، والأزد . ومن الأزد انحدر الفساسنة ملوك الشام بن عقب خراب سد مأرب - وكذلك انحدر منهم قبيلتا الاوس والخزرج ، ملوك يثرب ، ومنهم أيضا انحدرت قبائل خزاعة ، سدة أو كهنة الكعبة قبل الاسلام .

ومن نسل الاخ الثاني عابر ، انحدر العبريون ، ويقال انه انما سمي عابر لانه كان أول من عبر الارض ، وهو أبو القيسائل

العبرية ، بمعنى ان لفظ عبري تشمل معنى اوسع واشمل من لفظ اسرائيلي او يهودي ، فاسرائيلي ترتبط بشكل خاص بـ يعقوب الذي سمي اسرائيل ، ويهودي نسبة الى ابنه يهوذا ، وهو ما سنتعرض له في حينه .

فالقبائل العبرية الرعوية ، قبائل صحراوية ، وعندما نزلوا فلسطين (١) كانت لغتهم عبارة عن لهجة آرامية ، اقرب الى العربية منها الى اي لغة سامية اخرى ، كما كانت معتقداتهم الفولكلورية واللاهوتية ، نتاجا صحراويا مكتمل المعالم .

ويبدو ان عابر ، كان هو ابو القبائل الرعوية ، او البدو الرحل أصحاب الوبر سكان الصحراء ، اذ ان عابر انجب « رعو » ، بما قد يشير الى رعي او رعاة ، ومن رعو جاء تارح الذي انجب بدوره « ابرام - ابراهيم - وناحور وهاران ، وولد هاران لوطا » ، وهكذا تكتمل بداية اصول قبيلة ابرام او ابراهيم الخليل ، حين هاجرت من العراق الاعلى منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات المعروفة الى اليوم في العراق بـ « اور الكلدانيين » .

وكان اسم امرأة ابرام ساراي ، وكانت ساراي عاقرا ليس لها ولد . وما يهمننا هنا هو هجرة قبيلتي ابراهيم ولوط ابن اخيه هاران ، « فخرجوا من اور الكلدانيين ليذهبوا الى ارض كنعان ، فأتوا الى هاران ، وأقاموا هناك » .

ويؤرخ لهذه الهجرة ابتداء من الالف الثانية قبل الميلاد ، حوالي ١٩٢٠ ق.م. .

ويوحد دارسو الميثولوجيا السامية (٢) بين « ايل » اعظم آلهة الشعوب السامية ، وبين ابراهيم ، فيحفظ سفر التكوين لابراهيم انه اقام « شرقي بيت ايل ، ونصب خيمته ، وله بيت ايل من المغرب وعاي من المشرق . . فبنى هناك مذبحا للرب » (٣) .

(١) مصر والشرق الأدنى القديم - د. نجيب ميخائيل ابراهيم ، ج ٣ ص ١٤٧ .

(٢) التوراة - د. فؤاد حسنين علي ، ص ١١ .

(٣) تكوين ١٢ .

وفي نفس هذا المكان الذي هو بيت ايل ، بدأت اسطورة
أرض ميعاد الآباء لدى القبائل الاسرائيلية ، حين وعد ابراهيم من
الرب - الذي قد يكون ايل - : « لنسلك أعطي هذه الارض » (١) .

وتجيء بعد ذلك سلسلة الاحداث المعروفة ، مثل تغرب
ابراهيم الى مصر حين « حدث جوع في الارض » ، واغتصاب
فرعون مصر ، الذي تصرّ أغلب المصادر العربية على الاحتفاظ
باسمه وهو الوليد بن مصعب ، لسارة « أخت ابراهيم في الرضاعة
وزوجته وابنة عمه » ، وغضب الرب على فرعون هذا ، فكان ان
أكرم ابراهيم ، وأهداه هاجر . ويجيء بعد ذلك حادث انفصال
قبيلة لوط عن قبيلة ابراهيم ، ونزوله الى الاردن « فاختار لوط
لنفسه كل دائرة الاردن وارتحل شرقا » (٢) . ثم يجيء حادث
تخريب مدينتي البحر الميت ، سدوم وعمورة ، وخروج لوط مع
ابنتيه واحتمائهم في احدى المغارات .

وهنا تمهد الاسطورة « اللوطية » الى خروج قبائل الموآبيين
والعمونيين الى الوجود ، سكان الاردن الذين نازعوا القبائل
الاسرائيلية بعد ذلك على طول تاريخ الاسرائيليين في فلسطين ،
فبعد ان احتل لوط بالمفارة مع ابنتيه « قالت البكر للصغيرة :
أبونا شاخ ، وليس في الارض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الارض ،
هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه » . وهكذا تعاقبتا الاضطجاع
مع أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين
الى اليوم ، وولدت الصغيرة أيضا ابنا ودعت اسمه بن عمي ، وهو
أبو بني عمون الى اليوم .

وهي تضمينة أسطورية مهاجرة من أصل مصري ، وترد في
الميثولوجيا المصرية مرتبطة بآلهة الموت « الندابة نفتيس » التي
سماها بلوتارخ ب « أفروديت » و « نيك » ، ومن ألقابها « سيدة
القصر » ، وجاء مولدها في اليوم الخامس النسيئة .

(١) تكوين ١٢ .

(٢) تكوين ١٣ ، وابن حزم ص ١٠٥ وما بعدها ص ٢٢ .

وتروي أساطير هذه الالهة نفتيس : « انها كانت تتمنى أن تنجب طفلاً من أخيها الأكبر أوزوريس ، ولهذا الغرض أسكرته وضاجعته ، وكان ثمرة هذا اللقاء الدنس انجابها للاله أنوبيس . ويعتبر هذا الاله المصري أنوبيس ، بمثابة النبتة الاولى للملاك - الرسول جبريل أو جبرائيل في الميثولوجيا السامية .

وكانت القبائل العمونية - بالاردن - قبائل زراعية ، قريبة لهجاتها من العربية ، بينما كان الموآبيون بدوا صحراويين رحلا ، وهي فكرة ستتكرر بشكل متوال فيما بعد ، وموجزها الصراع الازلي بين الزراعة والبداءة ، أو بين الفلاحين والبدو .

ويقال ان موسى كان قد حرّم على الاسرائيليين ، في سيناء ، قتالهم للموآبيين والعمونيين (١) ، لانهم عبريون من بني لوط « حين نزولهم أرض الميعاد ، على عكس ما أوصاهم وأمرهم باتباعه بالنسبة للاقوام الكنعانية والامورية والحثية ، وما تشعب منها » (٢)

« واما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ، بل تحرّمها تحريما ، الحثيين والاموريين والكنعانيين والغزيبين والحيويين واليبوسيين » .

وبالنسبة للأساطير المصاحبة لقبيلة ابراهيم ، فحين تزوج ابراهيم بهاجر المصرية ، أنجب منها اسماعيل ، ابا القبائل العربية الرعوية سكان شمال الجزيرة العربية ، في الحجاز ونجد ، حين سخطت سارة وفارت عقب انجاب هاجر لاسماعيل فطردته وامه ، فأسكنهما ابراهيم وادي « فاران » أي مكة : « رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ، فكان أن أسكن الله أفتدتهما بقبائل جرهم والعماليق . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في بريسة فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر (٣) .

(١) تثنية ٢٠ .

(٢) تكوين ٢١ .

(٣) تكوين ٢١ .

وتنسب هذه الاساطير لمجموعة واسعة جداً من شعوب وقبائل الاقوام السامية الانحدار من صلب ابراهيم ، فلقد تزوج ابراهيم بنساء ثلاث ، منهن هاجر المصرية التي أنجب منها : اسماعيل ابا العرب ، سكان نجد والحجاز ، وقيدار وحدد ويطور وقدمه الخ . . (١) .

ومن رحم سارة ، أنجب اسحاق ، الذي أنجب بدوره يعقوب ابا القبائل الاسرائيلية الاثنتي عشرة وهم : راوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون ودان ويوسف وبنيامين ونفتالي وجاد وأشير (٢) . وكذلك أنجب اسحاق « بني عيسو » أو بني العيص ، نسبة الى ابنه البكر العيص ، ابي الملوك الادوميين في بادية الشام والاردن وجزيرة العرب .

وكانت زوجة ابراهيم الثالثة ، التي تزوجها عقب وفاة سارة ، امرأة كنعانية تدعى قطورة ، فمن رحمها انحدر ستة ملوك أو اقوام هم : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوفا ، ومنهم جاء ملوك شبا أو سبا ، وددان أو ديدان ، وسيناء الخ . .

ويقال ان هذه الاقوام والقبائل العربية من آدوميين وموآبيين وعمالقة وعمونيين ومديانيين ، وغيرهم من أعراب سوريا ، تحالفوا عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وغزوا مصر تحت اسم « الهكسوس » أو ملوك الرعاة ، وأخضعوها لمدة قرنين .

وطبعاً كان لكل من هذه الاقوام والقبائل ، التي تكاثرت بدورها متمدة متطاحنة ، كان لكل منها أنبيائها وطلائعها ومشرعوها .

فالى قبائل الجبابرة — أبناء الله ومنهم قبائل عاد البائدة — ارسل النبي هود ، الذي يمكن توحده مع الدهر أو المنايا أو المنون أو القدر .

والى ثمود ، ارسل صالح ، وطوطمه المتمثل في الناقة ، أو

(١) اخبار الايام الاولى ١ .

(٢) ٢ اخبار الايام الاولى ٢ . حضارة العرب ٩٠ .

الابل . كما كان أيوب نبيا للادوميين ، أهل أدوم ، في بادية الشام بسوريا .

وكان مثلهم مثل بقية الاقوام الكنعانية ، بل السامية بعامة ، يقدمون التضحيات البشرية وغير البشرية « قدس لي كل فاتح رحم من الناس والبهائم » ، « وأطلب أنا دمكم لانفسكم فقط . من يد كل حيوان اطلبه . ومن يد الانسان اطلب نفس الانسان » .

كما انهم اعتقدوا في الجن والشياطين والعفاريت والارواح الشريرة والخبثية .

ويرى بعض المستشرقين مثل « نولدكه » ، ان معتقداتهم هذه عن الجن والشياطين جاءتهم من الايرانيين .

فانتقال العرش من شاول ، أول ملوكهم ، الى بيت داود ، خطيئة مرجعها طلب شاول الى الجن للسؤال ، ولم يسأل من الرب قأماته وحوّل المملكة الى داود بن يسي .

وهي نفسها الخطيئة التي بسببها جزّ الفلسطينيون رأس شاول هذا « وسمروها في بيت - الهم - داجوان ، اله الحبوب » .

كما ان هذه التضمينة ، عادت فتبدت مع داود ، فكانت خطيئة داود التي بسببها « وقف الشيطان ضد اسرائيل » حين اغوى - الشيطان - داود ليحصى اسرائيل ، ومنها تواترت الفكرة الشفاهية عن « ان العدد يقلل البركة » ، وكان ان غضب الرب وارسل الى داود ثلاث لعنات ليختار احداها ، لينتقم بها من اقدام داود على احصاء شعبه : « اما ثلاث سنين جوع ، او ثلاثة شهور هلاك أمام مضايقيك وسيف اعدائك يدركك ، او ثلاثة ايام يكون سيف الرب ووباء في الارض ، وملاك الرب يعثو في كل تخوم اسرائيل » (١) .

فلقد استغرقت تلك القبائل الاسرائيلية في الخرافات الطوطمية ، ومثلهم مثل القبائل العربية الجاهلية ، اعتقدوا في الجن التوابع ، وحرّموا عتبات البيوت .

(١) اخبار الايام الاولى ١٠ .

فلقد كانت القبائل الجاهلية من « الحمس » أو الاحامس ، متضمنة لقبائل : قريش وخزاعة والأوس والخزرج وصعصعة وأزد شنوءه ، وجذم وسليم وعمر واللات وثقيف وغطفان والفسوث وعدوان وعلاف وقضاعة ، هم أهل الحرم ، المتشددون في دينهم - المتحمسين - ، كان هؤلاء الاحامسة « يعزفون عن المرور تحت عتبات البيوت » ، لذا اخترعوا ودخلوا البيوت من فتحاتها الخلفية ، وفيهم قيل : « ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » ، وهو ما لا يزال شائعاً ومعروفاً بالنسبة للمدخل الخلفي في بيوتنا القروية ، ويطلق على ذلك المدخل - الشعائري - اسم الخوخة الى اليوم .

ويبدو انها فكرة أو تضمينة أسطورية متوارثة منذ السومريين .

كما أن منها الربط بين الخطايا ومدخل البيوت واعتابها ، في الميثولوجيا المسيحية : « خطيئة رابضة عند الباب ، واليك اشتياقها » .

كما حلت القباب الحمر ، محل تابوت العهد عند العرب ، ومنها « قبة مصر الحمراء » أو « القبة الحمراء وهي من آدم » أو « أهل القباب الحمر » ، وهو ما مرّ الحديث عنه . وكذلك المنازعات الطويلة حول رأس عيسو أو العيص أبو الادوميين .

ويلاحظ انه منذ بضع سنين - يوليو ١٩٧٤ - اكتشفت إحدى البعثات الانكليزية ، أطلال مدينة أدوم بالاردن ، وترجع الى ٢٧٠٠ ق.م. .

ومع تسيد الاسرائيليين على جيرانهم ومتاخميهم ، تسيد - بالتالي - طوطمهم ، أو تابوت العهد ، فكانوا يقدمون له القرابين « واحد لأشدود ، وواحد لفزه ، وواحد لاشقلون ، وواحد لعقرون وفيران الذهب - بعدد جميع الفلسطينيين ، وشاهد هو الحجر الكبير الذي وضعوا عليه تابوت الرب » .

ومع انتصار داود على سلفه وغريمه الملك شاول - أول ملوك اسرائيل - وانتقال الملك الى سبطه أو عائلته ، نقل داود التابوت

الى مدينته « مدينة داود » بفرح ، وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات ، يذبح ثورا ، وعجلا معلوفا ، وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب . ويبدو ان انطسلاق داود وتهتكه امام التابوت ، لم يرض الارستقراطية الاسرائيلية الجديدة ، اذ ان زوجته ميكال ابنة الملك شاول الذي خلفه داود - وكان كلاهما من القاع - على عرش اورشليم ، لم ترض ميكال عن تصرف داود هذا حين اطلت من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب ، فاحتقرته في قلبها .

ونصب داود التابوت « في وسط الخيمة التي نصبها له » ، والخيمة هي ما أصبحت بعد ذلك « خيمة الاجتماع » ، مثلما كانت « بيوت الحلفاء » ، أو المعابد المجدولة من الحلفاء ، نواة للمعبد المصري القديم ، ومثلما كانت الكعبة في أدنى أشكالها يسمونها « الاخشف » أو « الفغب » ، وهي المكان الذي نصب عليه الكاهن الخرافي عمر بن لحي الجرهمي ، أصنام مكة التي قيل انها بلغت ٣٦٠ صنما ، بعدد أيام السنة القمرية .

وكانت خيمة الاجتماع هذه بمثابة التمهيد لاقامة المعبد الاسرائيلي ، أو الهيكل الذي بناه المهندسون والفنانون الفينيقيون على نمط المعابد المصرية من حيث المعمار ، والنحت ، والتصوير الاشوري البابلي من حيث التشكيل .

ولقد حدثت حكاية طريفة حول اقدام داود على تشييد أول معبد عبري ، حين قال الملك داود لنathan النبي : « أنا أسكن القصر ، وتابوت الله ساكن داخل الشقق » .

فكان أن غضب « يهوه » أو « التابوت » ، أو « الطوطم السلف » ورد اليه Nathan قائلا : « اذهب وقل لعبدي داود ، هكذا قال الرب ، أنت تبني لي بيتا لسكنائي ، لاني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني اسرائيل من مصر الى هذا اليوم ، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن » . كما قال يهوه لداود : « أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبي اسرائيل » .

وكثيرا ما كان أنبياؤهم ، يمنعونهم من « مضاجعة النساء
المجتمعات في بيت خيمة الاجتماع » .

وفي تلك المرحلة الطوطمية ، كانوا يلقبون النبي بـ « الرائي » ،
أي الذي يرى حجب المستقبل ، وكان « الكهنة من بني لاول ،
حاملي تابوت عهد الرب » يمنعونهم بحسب وصايا موسى من
مضاجعة البهائم والحيوانات ، من على قمم الجبال ، فكانوا
يقولون : « ملعون من يضجع مع امرأة أبيه ، لانه يكشف ذيل أبيه
وأمه - ملعون من يضطجع مع حماته » الخ . .

ومثلهم مثل بقية الاقوام والقبائل الطوطمية ، كانوا يقدسون
الاحجار والشواهد .

ويرد ذكر الاصنام أو الاحجار - المقدسة - أو الشواهد ،
خلال ذكر تاريخ ذلك الطور الطوطمي - الانيمي - الذي مرت به
هذه القبائل أو الاقوام المتنافرة في بعض مدن الشام وفلسطين .

ولعل « اختيار » داود للاحجار الخمسة التي نازل بها
خصمه الفلسطيني جالوت ، له دلالة .

وعندما انتصر الاسرائيليون على الفلسطينيين أخذ الكاهن
النبي « صموئيل حجرا ونصبه بين المصفاة والسن ، ودعا اسمه
حجر المعونة » (١) .

وحين عاهد يشوع القبائل العبرية عامة - قبل وفاته - ألا
يعبدوا الآلهة الغريبة عنهم ، نصب لهم حجرا ، قائلا : « ان هذا
الحجر يكون شاهدا علينا لانه قد سمع كل كلام الرب » (٢) .

فلقد كانوا يقدسون مظاهر الطبيعة من حولهم من آبار ماء
وحيوانات وكهوف أو مزارات وأماكن مقدسة ، لكل منها بعله
أو سيده أو حاميه ، فيقال : « بعل المكان الفلاني » ، « أي اله
ذلك المكان » أو حاميه .

(١) صموئيل الاول ٢ .

(٢) صموئيل الثاني ٧ .

وأورد سير جيمس فريزر ، كثيرا من الشواهد على تقديسهم لمظاهر الطبيعة من حولهم ، ومنها تلك الحيوانات والطيور والأشجار التي ترد بكثرة شديدة عندهم ، مثل حكاية أشجار « يوثام » التي حكاها لهم من فوق أعلى جبل : « اسمعوا يا أهل شكيم ، يسمع لكم الله . مرة ذهبت الأشجار لتمسح عليها ملكا ، فقالت للزيتونة : املكي علينا ، فقالت لها الزيتون : أترك دهني الذي به يكرمون بي الله الناس ، واذهب لكي أملك على الأشجار ؟ ثم قالت الأشجار للتينة : تعالي أنت واملكي علينا . . فقالت لها التينة : أترك حلاوتي وثمرتي الطيب واذهب لكي أملك على الأشجار ؟ فقالت الأشجار للكرمة : تعالي أنت واملكي علينا . . وقالت لها الكرمة : أترك مسطاري الذي يفرح الله والناس ، واذهب لكي أملك على الأشجار ؟ ثم قالت جميع الأشجار للعوسج : تعال أنت واملك علينا . . فقال العوسج للأشجار : ان كنتم بالحق تمسحونني عليكم ملكا ، فتعالوا واحتموا تحت ظلي ، والا فتخرج نار من العوسج وتأكل أرز لبنان . »

وتكشف الكيفية التي اختار بها جدعون - في المرحلة الطوطمية لشيوخ القبائل - رجاله لقتال الميديانيين « سكان سيناء » الذين استعمروهم ، عن كيف ان هذه القبائل ، كانت مفرقة في الطوطمية .

وقال الرب لجدعون : كل من يلغ بلسانه من الماء ، كما يلغ الكلب ، فأوقفه وحده . « وهكذا فرز جدعون هؤلاء - الكلبين - واخذهم وقاتل بهم الميديانيين « العرب » ، وأمسكوا أميري الميديانيين ، غرابا وذئبا ، وقتلوا غرابا على صخرة غراب ، وأما ذئب فقتلوه في معصرة ذئب . »

وكانت النخلة شجرة الميلاد المقدسة عندهم ، كما كانت عند أغلب الشعوب السامية ، مثل نخلة نجران عند عرب الجنوب ، ونخلة تدمر أو تمر ، عند القحطانيين . وكانت النخلة هي الشجرة المقدسة عند الكاهنة دبورة ، أقدم شاعرة عبرية ، « ودبورة امرأة نبية ، وهي جالسة تحت نخلة دبورة بين الرامة وبيت ايل . »

ومثلهم مثل بقية القبائل والشعوب السامية البدائية ،
أكثرها من الاغراق في المعتقدات الفيبية ، مثل السحر والتنجيم ،
والايمان بالحظ او الميسر مثل الجاهليين ، فكانوا يحتكمون الى
القرعة في اغلب ما يخصهم من امور مثل الحرب والاغارة . فبعد
ان شاخ يشوع وتقدم في الايام ، جمعهم وقال محذرا من الاستغراق
في الخرافات . ذلك رغم ان موسى كان قد حذرهم في وصاياه
من العيافة والعرافة واستشارة الموتى ، وغير هذا : « لا يوجد فيك
من يجيز ابنه او ابنته في النار ، ولا من يعرف عرافة ولا عائفا
ولا متفائلا ولا ساحرا ولا من يرقى رقيه ، ولا من يسأل جانا او
توابعه ، ولا من يستشير الموتى » .

ويبدو ان معتقداتهم عن التشاؤم والتفاؤل والعرافة والعيافة،
قد انتقلت اليهم من جيرانهم الفينيقيين ، اذ ان هذه المعتقدات
كانت جزءا حيويا من كيان المعبود الفينيقي ، حيث خصصت
الخجرات السفلى من هذا المعبد لممارسة هذه الطقوس الخرافية ،
بنفس ما كان متبعها بالنسبة للمعبد البابلي .

وطبعا لا حد لاهالة التراب والرماد والطين وتمزيق الثياب
والندب حول طوطم الآباء « فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه
الى الارض امام تابوت الرب الى المساء هو وشيخوخ اسرائيل ،
ووضعوا ترابا على رؤوسهم » (١) .

فما من امر لم يحتكموا فيه الى القرعة قبل تعيين الكهنة
والخزنة والقضاة والحروب واختيار رؤساء الجيوش والغزو
وجهاته وهكذا ..

وكان يشوع عاتيا في ارسائه لتشريعاتهم المفرقة في القبلية،
مثل رجم السارق ، وابادة بيته ، بل وعشيرته . من ذلك ان
أحدهم ويدعى عخان اعترف له باخفائه بعض الاسلاب عقب إحدى
الغزوات ، فكان أن « أخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء
او لسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته ، وكل
ما له وجميع اسرائيل معه ، فرجمهم جميعا اسرائيل بالحجارة

(١) يشوع ٢٣ ، يشوع ٧ - ٤ ، يشوع ٧ - ٥ ، اخبار الايام الاولى ٢٦ .

وأحرقوهم بالنار ، وأقاموا فوق رجمهم حجارة عظيمة الى هذا اليوم » .

فكانت خطايا الآباء تحلّ بالابناء ، ويقع وزرها على رؤوسهم ، ويرد هذا صراحة في وصاياهم : « وقد أخبرته بأن أقضي على بيته الى الأبد ، من أجل الشر الذي يعلم ان بنيه قد أوجبوا اللعنة على أنفسهم » . فلعنة نوح لابنه حام وقعت مباشرة على رأس كنعان ابن حام ، وهكذا .

وكانوا يرمون الابن الذي يعصي والديه ، بحسب وصايا موسى لهم في سيناء .

كما كانوا يشهرون دم العروس « أخذ وشها » ، واذا لم تكن للبنت العروس عذرية « يرميها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة » .

باختصار هو تراث طوطمي قبائلي ، لا يختلف كثيرا عن تراث العرب البائدة ، وورثتهم الجاهليين .

ومن هنا ، فمن العبث دراسة هذه المنطقة ، قلب العالم القديم ، بمعزل عن هذا التراث العبري السامي .

وبنفس هذا المنهج يتلقانا العالم المتحضر ، على اعتبار اننا منطقة متوحدة التراث .

الفصل الخامس

« عبدة القمر »

ويتبنى العرب العدنانيون ، أي المنحدرون من نسل اسماعيل ابن ابراهيم الخليل ، فكرة أو رواية ، مؤداها ان حرب الجزيرة العربية ، كانوا حنفاء بمعنى انهم كانوا على دين ابراهيم الخليل ، موحدين لا يعبدون الاصنام والاثوان ، فمن « كان على دين ابراهيم فهو حنيف . فلقد كانوا يختنون ويحجسون البيت ويفتسلون ، ويتجنبون الاوثان الخ . » .

ويرى بعض الباحثين ان لفظة « حنيف » أو « حنف » من أصل آرامي ، وعنهم أخذها اليهود العبريون والسريان والعرب ، وخاصة سكان اليمن . ويقال انه كان من الموحدين الحنفاء : قس بن ساعدة الايادي ، والشاعر الجاهلي العظيم أمية بن أبي الصلت ، وأرباب بن رثاب ، ووكيع بن سلمة بن زهير الايادي ، والشاعر زهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان العبسي ، وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي وغيرهم ، وهو ما أورده القرآن في سورة آل عمران آية ٦٧ وما بعدها . وكان هشام وابنه محمد الكلبي ، على رأس المروجين لهذه النظرية التي شغلت عددا كبيرا جدا من المستشرقين وعلماء السامية المحدثين .

وينسب ابن الكلبي ، لشخصية ملك أو حاكم خرافي ، هو

عمر بن لحي الجرهمي ، انه اول من جلب الاصنام ونصبها حول الكعبة « فكان اول من غير دين ابراهيم ، وسبب السائبة ووصل الوصيلة » .

ويندو ان عمر بن لحي الجرهمي هذا كان منتسبا الى واحدة من القبائل العربية البائدة أو المندثرة ، وهي قبائل جرهم ، فأمه « يقال لها قمعة بنت معاف الجرهمي » .

وتنسب المصادر الميثولوجية العربية المتمثلة في الرواة العرب ، القبائل جرهم المندثرة مثلها مثل قبائل عاد وثمود وطسم وجديس ، انهم — أي جرهم — كانوا أخوالا للعرب العدنانيين ، وان اسماعيل بن ابراهيم تزوج منهم بعد أن كبر حين تركه أبوه ابراهيم « بواد غير ذي زرع » فأنس الله وحشته وأمه هاجر ، بقبائل جرهم والعماليق . يقول عبيد بن شريه الجرهمي : « فكنا نحن جرهم أصل البلد الحرام ، فنشأ اسماعيل فينا ، وتكلم العربية ، وتزوج منا ، فجميع ولد اسماعيل من بنت معاف بن عمرو الجرهمي ، فاسماعيل وأبوه منا ، وانتسم يا قريش منا ، والعرب منا » .

ويقول الهمداني عن رواية لوهب بن منبه انه « لما أخذ جرهم التابوت — أي تابوت عهد الرب — وبه جثمان آدم ، وهم قبائل عدنان ومن معهم من العرب العماليق ، طسم وجديس ، انهم واروه ودفنوه في مزبلة ، فنهاهم عن ذلك الحارس بن معاف الجرهمي ، والنبي اسماعيل بن الهمبسع بن ثابت بن فيدار بن اسماعيل بن ابراهيم ، فلم ينتهوا ، فأهلك الله الفريقين جرهم وعدنان ، والذين هلكوا مائتا ألف ونيف ، أرسل الله عليهم الرعاف ، فحزن الحارس بن معاف على قومه لما هلكوا ، وسار على وجهه يسبح في الارض ثلاثمائة سنة ، حتى ألمّ به الكبر والهرم والعمى ، وهبوا القائل هذه الاشعار المكتوبة في مقام ابراهيم :

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت

نطوف بذاك البيت والعز ظاهر

وصرنا أحاديثا وكنا بغيطة
كذلك عصتنا السنون الفواير
فسحت دموع العين تجري لبلدة
بها الامن امن الله فيها المشاعر

فيبدو ان ثمة صراعا قد نشب بين القبائل العربية البائدة والباقية ، او بين قبائل جرهم وقبائل اسماعيل او الهاجريين - وبقياتهم الى اليوم بالسعودية - بنفس ما حدث مع عرب الجنوب القحطانيين ، واسلافهم من العرب البائدة عاد وثمود وطسم ، وما حدث مع الكنعانيين والعبريين والعمالقة او العماليق في ربسوغ الشام وفلسطين . بمعنى حلول أحقاب تاريخية او حضارية بحسب تفسير هذا التاريخ الاسطوري التخميني .

ويبدو ان هذا النزاع بين القبائل البائدة والباقية ، الذي قد يكون - على سبيل التخمين - نزاعا ذا طابع حضاري مفرق في القدم ، وانه كان متبوعا بانقلاب أبوي ، اي نقل السلطة من الام الى الاب ، أي من سارة وهاجر الى ابراهيم واسماعيل ، او من « بنت مضاض بن عمرو الجرهمي الى اسماعيل وابنه قيذار وثابت الخ . . » . وهذا ما دعا عبيد بن شريح الجرهمي الى القول بأن « جميع ولد اسماعيل من بنت مضاض الجرهمي ، وأيضا اسماعيل وأبوه ابراهيم وقريش والعرب من جرهم » نسبة الى الالهة الام القبلية .

بل ان الصراع على التابوت ، تابوت العهد الذي أخذته قبائل جرهم كما يقول وهب ، يشير اكثر الى طبيعة ذلك الصراع ، ومعناه ان هذه القبائل السلفية كانت من عبدة جثمان آدم . فيقال ان الجثمان كان مخبوءا في كهف ماكبيل ، وان قبيلة كالب عبدته ، ويقال ان قبائل كالب « العربية والعبرية » كانت تعبد جثمان آدم .

وكالب اسم لقبائل عربية وعبرية وكنعانية ، ومن أسماؤها بن كلب ، بن وبره ، و « بني كلب » بن « ربيعة بن صعصعة » ، و « الكلبيين » و « كليب » الخ . . كما يقال بأن الاشياء التي كانت قد سرقها راشيل - أم النبي يوسف - الالهة القمرية الام لقبيلة

يعقوب ، « ولابان بن ناحور » بعد زواجها من يعقوب ، كان من بينها رأس آدم . ورأشيل - أو الكاهنة الحمامة - هي الالهة الام التي من اسمها جاءت تسمية اسرائيل .

وكانت قبائل كالب ، عشائر أدومية ، ومنها جاءت تسمية آدم بمعنى الرجل الاحمر . وتوجد اشارات في التلمود الى ان رأس العيص ابن اسحاق ، ابو الادوميين ، كانت بدورها مجالا لصراع متواصل . ويقال ان يوسف الصديق تمكن من انتزاع رأس عيسو أو العيص ودفنها في عبرون .

ويرى البعض ان ثمة علاقة بين القبة الحمراء التي كانت تتخذها قبائل قريش وتابعوهم من القبائل المعروفة بالاحامسة أو الخمس أو الاحامس ، أو بنو احمس ، بمعنى المتحمسين لآلهتهم وللكعبة ، وتميزوا بتلك القباب الحمراء حتى أطلق عليهم أهل القباب الحمر من الادم (١) .

واذا ما كانت لفظة - الادم - تعني أديم الأرض ، فقد يشير هذا الى علاقة بين تابوت العهد أو التابوت الذي به جثمان آدم ، بالإضافة الى رأس العيص ابن اسحاق « الرجل الاحمر » أبو الادوميين . مما يؤكد اكثر ان تلك القبائل السالفة البائدة قد ورثت لاحقيهم من العرب الجاهليين عبادة أسلافهم الاول : آدم عند الهاجريين والعبريين ، وابنه شيث ابن آدم أو اخنوخ أو ادريس عند الصابئة ، وابراهيم عند الحنفاء ، وحفيده العيص ابن اسحاق عند الادوميين أشقاء العبريين .

بل ان احداث الصراعات المتوالية حول ما يعرف في أساطير الشرق الادنى بعصا شعيب أو يثرون ، يجعل من تلك العصا رمزا سلفيا مرادفا أو متطابقا مع جثمان آدم ورأس العيص ابن اسحاق وقباب الخمس ، فيقال عن تلك العصا : « انها هدية الرب لآدم عقب طرده من جنة عدن ، وانها توارثت من أب لابن ، الى ان وصلت ابراهيم ، فأورثها ابنه مدين وأمه قطورة بنت مقطور من

(١) ابن مسعود (١ - ٤) - المحبر ص ١٨١ .

العرب العاربة ، فأورثها مدين شعيب ، الذي أورثها بدوره لموسى عقب زواجه من صفورة ابنة شعيب .

وفي رواية أخرى يقال ان يوسف سرقها من شعيب وزرعها في حديقة بيته ، الى أن جاء - الغلام الجعد - موسى فانتزعها . ويقال انها كانت من آس الجنة ، كما يقال بأنها كانت في طول قامة موسى ، وانها هي بعينها ما أصبحت بعد ذلك بقرون بمشابة الصليب الذي صلب عليه المسيح .

فيبدو ان الصراع بين جرهم وعدنان كان في صميمه صراعا بين عبدة جثمان آدم وتابعيهم من الحنفاء الذين حجوا البيت واختتنوا كما أوصاهم ابراهيم (واذا كان آدم وابراهيم ، ما هما الا وجهان لنفس البطل السالف) ، كما يشير روبرت جريفز (١) ، أدركنا طبيعة ذلك الصراع السلفي الابوي أو البطركي ، لتلك القبائل التي تتبع الآلهة والتقويم القمريين .

واذا ما انتقلنا الى نقطة تالية وهي تبعية القبائل البائدة أو المندثرة من عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وجرهم للآلهة « الانثى » القمرية - ذات الاطوار الثلاثة - أو الثالوث الذي أصبح أهم رقم مقدس فيما بعد عند الساميين بعامة . فكان لقبائل عاد اصنام يعبدونها تسمى صداء وبغاء وصمود : .
لنا صنم يقال له صمود يقابله صداء والبغاء .

وتؤكد النصوص الحفرية التي خلفتها هذه القبائل المندثرة ودونت بالخط المسند « انها لم تتجاوز في عبادتها آلهة ثلاثة هي القمر والزهرة والشمس » .

ويدل هذا الثالوث الفلكي في رأي الباحثين في أساطير العرب الجنوبيين على ان القمر كان هو الاله الذكر الاب ، والابن هو الزهرة ، والام هي الشمس .

ويلاحظ ان هذا التعريف النوعي ما يزال محفوظا في اللغة العربية « فالقمر مذكر بينما الشمس مؤنثة » .

1 — White goddess — 212, Robert. graves .

أما الزهرة فكانت تسمى « عثر » أي عشترت أو عشتار
أو عشار بالمعنى الواسع للاخصاب من أرض وإنسان وحيوان .

ويفسر الانثروبولوجيون ، الاطوار الاربعة التي طرات على
تلك القبائل خلال تحولها من الامومية الى الابوية . ففي أغلب
المجتمعات البدائية ، عبد القمر كأسمى آلهة ثلاثية أطلقوا عليها
اسم « نجم » وعند الساميين « هلال » ، ولعبت كاهنة الالهة نجم
دورا في قيادة الهاجريين والانتقال بهم الى طور جديد ، فأصبحت
القاضي والكاهنة والملكة أو الاميرة الام ، وأقيم لها مزار ، كما انها
اتخذت لنفسها حيوانا أو نباتا طوطميا كان يحمى بالتسابو
أو « المحرم » .

ويلقي هذا بعض الضوء على التكونات أو الاتحادات القبلية
العشائرية « القديمة » وهي تواصل تكوناتها وتشكيلاتها ، بحيث
رفعت وعممت الشعيرة - أو الشعار - التي سادت أقوى قبيلة
لتصبح شعارا عاما لآلهة الولاية أو مجموع البطون والعشائر .

وتمثل الانتقال الثاني في ظهور الاله الاب - الذكر - أو المذكر
الذي بنى أيام الاسبوع السبعة عند السومريين - اللساميين -
وكأسطورة شبه متفق عليها عند أغلب المجتمعات البدائية . فقد
تزوجت الالهة الام - نجم أو هلال من مخلوق وهمي أو سماوي -
ومن هنا أصبحت كل شعيرة قبيلة مرتبطة بواحدة من القوى
السبعة للكواكب السبعة السيارة ، وقدم لطوتم الالهة القمرية
- نجم أو هلال - زواج مقدس سنوي ، يقتل فيه الكهنة التجسيد
البشري للاله الذي هو الملك زوج الالهة القمرية الام ، يقتله الكهنة
في نهاية كل عام .

ولقد مرت القبائل اليونانية والايجية - وأبنساء عموماتهم
اليبيون - بهذا الطور ، كما ان د. مرجريت مري ، تضيف بأن
مصريي ما قبل التاريخ ، مروا بهذا الطور ، فأراق الكهنة المصريون
دم الملك الالهي الدييح ، ونشروا رماده بالأرض « قبل موعد شقها
بالمحاريث » أي مع موعد الحرث . ويقال ان الرماد المتخلف من
حرق جثمان الملك الالهي كان يوزع على أقاليم مصر بالتساوي .

وكان الحثيون القوة الرئيسية الكبرى الموازية للمصريين على طول الشام وفلسطين ، والورثة الموازون للبابليين في مناصفة التراث الحضاري السومري بعامة ، بحسب ما يراه ارنولد توينبسي .

كان الحثيون ينثرون دم الملك المقتول المضحى به قبل موعد شق الارض بالمحاريث ، مثلهم في هذا مثل جيرانهم المصريين . أما جسد الملك (١) فكانت تأكله الجنيات ، وهن وصيفات الملكة الالهة القمرية ، وهن مرتديات أقنعة من رؤوس الكلاب أو الجياد أو الخنازير .

وتمثل الانتقال الثالث في ان عشيق الالهة الام أصبح ملكا ووقر على اعتبار انه الهيئة الذكرية للاله الذكر - القمر .

ولقد تبدى هذا خاصة ، في الاله الفينيقي بعل هامان « الذي كان فينيقيو الشام وفلسطين ، يضحون له بقتل طفل سنويا كبديل لقتل الملك الالهي ، وظلت عبادته سارية في الشام وفلسطين الى ما بعد القرن الرابع الميلادي ، وعرفت هذه الملة أو النحلة ب « الاوردجيين أو النشابة » (١) .

وجاء الانتقال الرابع متبديا في تضخيم قوة الملك، واكتساب هذه القوة من الملوك المحليين الذين يعبدون القمر ، فلقد اعتبر هذا الملك الاب نفسه ، ممثلا أو متقمصا لاله القمر ، واتخذ من نفسه ملكا شمسيا في اللاهوت المصري القديم ، وواصل زواجه السنوي المقدس محررا نفسه اكثر من الاعتماد على القمر .

بل ان الملك سلب الملكة أو الالهة القمرية سلطتها ، « فكان يرتدي ملابس نسائية ويضع أثداء صناعية ممثلا الملكة » .

وفي هذه المرحلة حلّ الزواج الابوي بدلا من الزواج الاموي، وتسمى الناس بأسماء آبائهم بدلا من أمهاتهم ، ووحدت القبائل ببطل ذكر سالف ليقدر ، وهو ما حدث مع معظم شعوب العالم

(١) الاشتراكية والفن - ص ٦٠ ، ترجمة اسعد حليم .

(٢) . الفهرست - ص ٣٤٢ وما بعدها .

القديم ، ومنه يونانيو ما قبل التاريخ ، والبلاسجيون ، والليبيون وغيرهم ، وحلّ بالتالي التقويم الشمسي بدلا من القمري ، وأصبحت السنة ٣٦٥ يوما بدلا من ٣٦٠ يوما .

ولقد كشفت نصوص المسند عن ان القبائل العربية أو المتعربة البائدة ، وهي قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق والصفوة الخ . . ، كانت تتبع الآلهة القمرية والانتساب الاموي . وعلى أي الاحوال فان دراسة التراث العربي أو تراث القبائل العربية الجاهلية بمفزل عن دراسة أسلافهم من هذه القبائل المندثرة أمر غير مجد وغير علمي خاصة اذا ما عرفنا ان تراث المندثرين ، قد تواتر كالعادة ، فتوارثه الاحفاد من العرب العاربة ، أي ما تعارف على تسميتهم بالجاهليين كما حلا لهم أن يتسموا ويتميزوا . فمثلا ظلت تقويمات المتعربة الاول أو البائدة سارية لدى الاحفاد حتى الى ما بعد الاسلام ، بل والى اليوم .

فظلت أسماء شهور قبائل ثمود يجري استعمالها في جنوب الجزيرة العربية حتى وقت لاحق للاسلام . هذا رغم ان نصوص المسند كشفت عن ان التفسير الوحيد الذي طرا على تقويمات وأسماء الشهور العربية أو الهجرية لم يقع الا في عام ١١٥ قبل الميلاد ، اذ بدأ ظهور أول تقويم ثابت تعاملوا به حتى قبيل ظهور الاسلام .

من أسماء الاشهر التي ظلت سارية منذ العرب البائدة حتى وقت ظهور الاسلام ، وهي فترة تصل الى أكثر من ألفي عام ، شهور : ذي حجتن أي « ذو الحجة » ومعناه شهر الحج ، وذو تمنع ، وذو اثرات ، ومؤتمر ، وربى ، وعادل ، وناطل ، وورنه ، وموجب ، ومورد ، وهوبل أو دابر ، وذو يمر ، وهو شهر رمضان أول شهور السنة عند المتعربة أو العاربة المندثرين ، اما شهر موجب فهو ما سمي شهر محرم ، ومورد هو شهر صفر .

أما الشهور التي ثبت استعمالها قبل الاسلام وبعده ، فهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الاول ، وربيع الثاني ، وجمادى الاولى ، وجمادى الاخرى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ،

وذو القعدة ، وذو الحجة . ويقال ان أسماء هذه الشهور جاءت مستمدة من أحداث أو شعائر أو انتقالات حضارية رؤي تمجيدها وحفظها .

كما ينسب لكلا بن وبره انه أول من سماها ، وكان منها الأشهر الأربعة الحرم أو المحرمات التي اتفق عليها لتحريم الغزو والحروب والقتال والمنازعات بعامه ، لهذه القبائل المتطاحنة لدرجة الإبادة .

وكان أهم اكتشاف أوضحته نصوص المسند بالنسبة للآهوت وتقويم الجزيرة العربية بقسميها الشمالي العدناني - الرعوي - والجنوبي القحطاني - الزراعي - هو انه بينما كانت القبائل الحجازية أو العدنانية تتبع الآله والتقويم القمريين ، كان القحطانيون سكان اليمن يعبدون الشمس ويتعاملون بتقويمها ، بأيامها ، وأسابيعها ، وأشهرها .

أي ان الانتقال الحضاري الذي تمثل في ظهور الملك الأب الذكر ، جاء عند اليمنيين بشكل أسبق من سكان الحجاز البدويين الرعويين ، ربما بأكثر من ألف عام .

ومن أسماء القمر عند العرب البائدة « سين » ، وهو نفس اسمه عند السومريين اللاساميين ، ويعتقد البعض ان البائدة أخذوه عنهم ، وشهر كان من أكثر أسمائه شيوعا ، خاصة في الحبشة ، فكلمة شهر ، هي أحد أسماء الآله القمري .

في العربية ما يشير الى انها كانت اسما للآله القمرية بعد انتقالها الى الطور الثاني ، أي طور الآله الأب الذكر .

ويرى البعض ان لفظة « قمر » كانت الاسم المتأخر الذي أخفى به الساميون اسم « رب الأرباب » ، أي بعد أن تحولت الآلهة القمرية الانثى الى آله ذكر أب بظهور الملك الإلهي الذي وقر على اعتبار انه الهيئة الذكرية للقمر ، فخطب من أتباعه ومن عبده « ود أب » أو « أب ود » ، كذلك فقد أصبح من ألقابه « عم » وهو ما يشير أكثر الى الانتساب الأبوي .

فالآله « ود » أو « ود شهر » معناه « ود القمر » . ويرى

البعض ان لفظة قمر « هي تسمية متأخرة أطلقها الساميون من أبناء الجيل الثاني لاختفاء الاسم الحقيقي لرب الارباب » .

كذلك فقد تسمت باله القمر قبائل كهلان باليمن ، اذ ان من القاب اله القمر في نصوص العرب البائدة في اليمن اسم « كهل » ، كما انه عرف بهذا الاسم « كهل » في النصوص أو النقوش التي خلفتها وتركتها القبائل البائدة للعرب الشماليين في الحجاز ونجد أو السعودية اليوم .

كما كان من القابهِ عند هؤلاء البائدة « صدق وصدق وحكم وحكيم وعلم وعليم ورحمن ورحيم ونهي ومحرم » ، والاسم محرم وجد بكثرة في النصوص الحبشية .

وكان الاسم « ود » من أسماء الاصنام التي أوردها القرآن (١) . كذلك ورد في شعر النابغة الذبياني :

حيالك ود واني لا يحل له
لهو النساء وان الدين قد عزمنا

كما تسمى باسم « ود » العرب الجاهليون - عبد ود - ، وعبدته قريش وكانت توعده اذا ، وفي احدى الروايات التي تنسب للاهوتي العربي ابن الكلبي ان والد مالك بن حارثة كان يعطيه اللبن ويكلفه بالذهاب الى الصنم « ود » ليسقيه ويستغفره ، فكان مالك يشرب اللبن سرا ويبخل به على الصنم أو الاله القمري « ود » .

ووجد في النصوص المفينية والسبئية والشمودية كتابات مثل « أموت على دين ود » ، و « يا الهى ود احفظ لي ديني وأيده » .

وذهب البعض استنادا الى لفظة « ود » العربية التي ما تزال متواترة بمعنى المودة أو التودد ، الى ان هذا المعبود الذي هو القمر يعني الود أو التحية ، كما وردت صراحة في أشعار النابغة الذبياني « حياك ود » .

(١) سورة نوح آية ٢٢ .

فالاله القمري « ود » ، هو أيضا الاله « المقة » ، ومن هذا الاسم جاءت تسمية مكة ، كما انه عرف وبالتحديد في ممالك سبأ ، وكذلك عرف بنفس اسمه السومري في الالف الرابعة ق.م. « سين » عند الحضرموتيين ، كما انه عرف باسم أو لقب « عم » عند القتبانيين أو العمونيين ، ومن اسمه جاءت تسمية العاصمة الازدية عمان .

وكان هذا الاله القمري « سين » ابن الالهة عشترت في كتابات المسند الحضرموتية .

كما كني عن الاله القمري « المقة » بثور في اليمن ، أي الاله « ثور » ، وكان هذا هو اسمه في كتابات المسند ، كما ان من ألقابه « ثور » بالإضافة الى ان الثور كان حيوانه المقدس ، ووجدت صور رأس الثور في الجزيرة العربية بكثرة شديدة . فكانت الثيران من أكثر الحيوانات التي يضحي بها لاله القمر « المقة » ، كما ان قبائل وعشائر بأسرها تسمت باسم « ثور » .

كذلك كان من أسماء اله القمر اسم « الساهور » أو « السلطيط » أو « التفروور » ، فلقد عرفه بهذه الاسماء عرب الجاهلية ، ووجد مع اله تحت نفس هذه الاسماء في شعر أمية بن أبي الصلت .

ومما يضاعف تأكيدنا في ان ثمة انقلابا حضاريا أو اجتماعيا من مرحلة الامومة الى مرحلة الابوية أو البطركية ، قد يقف فاصلا متمما لنزاعي القبائل البائدة أو العاربة وخلفائهم من العرب العاربة أو العرب الجاهليين ، ويتمثل هذا الانقلاب الحضاري ، في ان النصوص التي خلفتها القبائل المندثرة ، والتي ترجع الى منتصف الالف الثالثة قبل الميلاد ، جاءت فأكدت ان أهم وأعظم الالهة السامية مثل ايل وبعل ، وأدون أي أدونيس ، وملك اله ثمود ، ومولك الالهة المومس عند العمونيين ، كانت تطلق عليهم بصفاتهم الهات أناثا ، وأصبحت بعد ذلك تطلق عليهم كالهة ذكور لدى كل الشعوب والقبائل السامية في آسيا الغربية بل وآسيا الصغرى كما هو معروف .

ومن المهم معرفة انه بالقدر الذي حفظت به نصوص المسند لعرب اليمن البائدة الذين توارثهم القحطانيون ، وهم قبائل عاد وطسم وجديس ورائش ، كذلك فقد حفظت النصوص الثمودية والحيانية والصفوية ، آلهة ومعتقدات قبائل الشمال المندثرة (الصفويين) .

ومما جاءت به النصوص الثمودية - في نجد والحجاز - تركيزها على أعظم الآلهة الساميين بعامة وهو الاله ايل ، مثل « يعذر ايل - صنم ايل - عزرائيل - سعد ايل - ود ايل » .

وكذلك أسماء الهة الخصب « عثر » السى جانب الآلهة « تيم » و « يفوث » و « هدد » أو الاله الفينيقي « حداد » اله المطر ، وشمس ، وعزير ، والآلهة « منى » أو مناة ، وكهل ، واللات ، و « جد » أي السعد ، وكذلك الاله « رضى » الذي يقول عنه العالم العراقي الكبير الدكتور جواد حسني انه هو ما أورده الميثولوجيون أو الاخباريون العرب ، باسم « رضى » أو رضاء ، وانسه كان في منزلة عشترت عند العرب المتأخرين الجنوبيين . وأيضا وجدت أسماء ملوك الرها المندثرين ، الذين تسموا بأسماء الآلهة مثل أبجر ومعن ، بمعنى النعيم أو ال « منعم » وعزير وعبد الملك و « ملك » الذي كان في منشئه أسما للاله ثم أصبح لقباً سياسياً فيما بعد كما هو واضح .

كذلك جاءت الكشوف اللحيانية والصفوية بأسماء الآلهة والآلهات التي عرفها العرب الجاهليون فيما بعد ، مثل « السلات - العزى - مناة - عوض - ديدان - بعل سمين - احرام أو التحريم - جد - صالح - ذو الشرى - رضى - رحيم - سمع - نصر - نسر - مناف - ديان » وهكذا .

وكانت الفرس أو المهرة من أقدم الحيوانات المقدسة للشمس عند هؤلاء البائدة من قدامى الساميين ، وهو ما تردد طويلاً في الشعر العربي ، من جاهلي ومعاصر .

كما كان للانباط سكان البتراء آلهة مثل « ذو الشرى » واللات (وكانت الهة مؤنثة أم لجميع الآلهة) ومنتوا أو مناه ،

وهبل ، وشيع القوم ، أو حامي القوم « وهو اله القوافل ،
والسواقين فيما بعد الى اليوم .

وكانت الاله ممالك تدمر في اليمن هي الالهة بل أو بعل أو
الناقة ، واله القوافل « شيع القوم ، وشمس ، واللات ، وايل » ،
كما كان من القاب وصفات أو نعوت هذه الالهة التي حفظتها
نصوص المسند « رب العالم » و « الله المحسن » و « رب العالمين »
و « الرحمن » و « المتجبر » الخ . .

ويلاحظ عند مقارنة نصوص المسند التي خلفتها القبائل
العربية البائدة بقسميها اليمني والحجازي أو الجنوبي والشمالي ،
مع ما تناقله الرواة والميثولوجيون والاعباريون العرب ، انه لم يكن
هناك اختلاف كبير طبعاً بين التراثين ، المدون والشفاهي ، ومعنى
هذا ان القبائل المندثرة أورثت لاحقتها من العرب العاربة أو عرب
الجاهلية الاولى تراثها فأفاضت الاخيرة اللاحقة عليه .

كما يلاحظ ان الاختلافات ليست كبيرة بين تراث المندثرين
وتراث السومريين فيما بين النهرين عن طريق وساطة البابليين
والحثيين ، كما يقول ارنولد توينبي وغيره .

كذلك يمكن ملاحظة ان تطور القسم الجنوبي اليمني القحطاني ،
عن شقيقه العدناني والحجازي في نجد كان أسبق وأنضج ، اذ ان
اليمن واصلت انتقالاتها من عبادة الالهة الانثى القمرية الى الانقلاب
- الشمس الذي تسمى به ملوكهم مثل عبد شمس بن يشجب بن
سبأ .

اما الملاحظة العامة أو المجملية فتتركز حول عبادة تلك القبائل
المبكرة التي ترجع الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، للالهة
الفلكية أو السماوية ، مثلها هذا مثل بقية الإقوام السامية الزراعية
في مصر والعراق والشام وفلسطين .

كما يلاحظ بشكل أخير ، ان معظم هذا التراث ، ما يزال
يواصل نموه وسريانه في تراثنا المعاصر أو في مجمل حياتنا
اليومية ، الآن وفي هذا المكان .

الفصل السادس

« الغيب والقدر والدهر في هذا التراث »

يستوقف المتصدي لدراسة التراث الفولكلوري العربي المعاصر ، أول ما يستوقف ، ذلك المدى الهائل المتمثل في الاغراق في القدرية ، والقسمة والنصيب ، وأفعال الزمان ومكائده ، وهي القدرية التي قد لا يبرأ منها نص أو فكرة ، شفاهية ، خاصة في تراثنا الفولكلوري المصري والعربي بعامة .

ولقد وصل الامر الى حد ان القدرية والذهرية أصبحت ملمحا مميزا لتراثنا الفولكلوري ، أي انه ما من جزئية أو « فكرة أو موتيفة » تصادف باحث فولكلور في أي منطقة في العالم عن القدر والقدرية ، الا ويمكن له ارجاعها الى موطنها الاصلي الام ، وهو التراث السامي بعامة ، والعربي بشكل أخص ، والاسلامي بشكل أكثر دقة .

ولقد سبق لموضوع القدر أن احتل منزلة واسعة من الجدل والبحث ، خاصة عندما يعرف بعلماء « الكلام » من العرب المسلمين فيما بعد ، خاصة المعتزلة ، وغيرهم أو ما تفرع عنهم من الشيعة مثل الجبرية ، والصابئة ، والمختلطة ، والقدرية ، والمرجئة ، والوعدية - نسبة الى الوعد - أو القدر والمكتوب ، وكذلك الشيعة والخوارج .

وكان المعتزلة يلقبون بالقدرية ، وبشكل مجمل فقد كان القاسم المشترك الاعظم عند تلك الفرق وغيرها ، هو القدر ، فقالوا ان « لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر ، خيره وشره » .

ولقد تعاظم دور هذه الشيع والفرق ، حتى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال عنهم : « القدرية مجوس هذه الامة » .

والقدرية والذهرية والوعيدية والمنايا ، افكار مترادفة وردت بكثرة شديدة جدا سواء في الشعر المنتسب الى القبائل العربية البائدة او عند لاحقيهم من العرب الجاهليين ثم الاسلام ، وكذلك ترد بكثرة شديدة في الآلاف المؤلفات ، بل الملايين من الماويل والشعر الشفاهي الشعبي المعروف بالـمـنـاويل الحمراء ، اي تلك التي تتصل مواضيعها بأفعال وتكائد الدهر والزمن وتقلبات الدنيا والايام وامساكها بالمصير الانساني . الخ .

ولقد عرفت شعوب غرب آسيا ، الابدية التي أطلق عليها العرب الجاهليون مرادف الدهرية ، والدهر ، والمنايا ، والحتف ، والآجال ، والحمام ، والمنون ، والقضاء والقدر ، والمقدر والزمان والايام والليالي والخطوب .

ولقد وحد الساميون الاوائل من القبائل العربية البائدة ، بين القدر أو الدهر أو المنايا وبين الله ، وكذلك سمت آلهتهم باسم « منى » ومناة ، وهي الاخت الثالثة من بنات الله الثلاث كما كانت معروفة بهذه الصفة والاسم منذ البابليين الاوائل (٢٨٠٠ ق.م) وعنهم أخذتها بقية الشعوب والقبائل السامية ، خاصة العرب الجاهليين فيما بعد .

وتؤدي لفظة « مناة » معنى القدر ومنها « الماني » بمعنى القادر ، نسبة الى بن ماني ، الذي قتله الملك « بهرام » ملك الفرس وقال له : « أنت الذي تقول بتحريم النكاح يستعجل فناء العالم » . ومنها جاءت تسمية المذاهب « المنانية » أو « الماناوية » نسبة الى « ماني » وكان راهبا بحرّان وأحدث « دين المنانية » . والمنية تعني الموت ، أو ان الموت مقدر محسوب . ويبدو ان لفظة « منية » كلمة سامية مشتركة ، وردت في أغلب لهجات الشعوب

والقبائل السامية . ويرى البعض انها مرتبطة بالالهة البابلية
« مامانتو » وعنهم أخذها الكنعانيون ولقبوها « منى » ، والالهة
الشمودية « منوات » ثم « منات » عند العرب الجاهليين ، ومنها
« عوض » وهو اسم صنم ، وحده الشعراء مع الدهر ، و « عوض »
كان اسم صنم أو معبود قبيلة بكر بن وائل .

بل ان المستشرق « بولدكه » يرى ان كل هذه المترادفات
للقدر والمنون والدهر والموت ما هي الا أسماء لآلهة دهرية « وليست
أسماء أعلام » .

ولقد وحد قدامى العرب خاصة القحطانيين سكان اليمن ،
بين الدهر وبين الموت الذي يلتهم الرجال ، كما جاء في قصيدة
تنسب « لامرؤ القيس » بن حجر المقصور بن الحرث آكل المزار
الكندي ، يذكر ذا القرنين الصعب ذي مرثد الحميري :

الم يخبرك ان الدهر غول
ختور العهد يلتهم الرجال

وروت أساطير الحميريين وأفاضت عن بحث ملوكهم عن
ماء الحياة الذي يهب الخلود ، ومنها مصاحبة الخضر الذي القرنين
في رحلة عبورية جابا فيها ربوع الأرض ، وعندما وافت « المنية »
ذا القرنين دعا الخضر وأنشد :

لما رأيت من المنون وعيدا
قوضت رحلك سحره تجديدا
هتكت خطوب الدهر عرك هتكة
أمسى حسامك دونها مغمودا
سيموت من تنسى المنية يومه
وتنال بنت الدهر منه بعيدا

ومن أشعارهم التي تنسب لأحد ملوكهم « عبد المسيح بن
بقيله » ، الذي وجد على قبره انه عاش مائة عام وقتل في مبارزة :

حلبت الدهر أشطره حياتي
ونلت من المنى بلغ المزيد

وكافحت الامسور وكافحتني
فلم اخضع لمضلة كؤود
وكدت أنال بالشرف الثريا
ولكن لا سبيل الى الخلود (١)
كما ان من الاشعار المنسوبة لابنه « مضاض بن عبد المسيح »
في رفضه وزهده عيشة الدنيا :
منزلا قد تحكم الدهر فيه
ليس للنازلين فيه ثبات (٢)

وتكشف قبوريات ومراثي اولئك الملوك الحميريين ، عن
موقف غريب معاد في جوهره للدهر كمرادف للموت . بل كثيرا
ما يسخط من قضية الباطشين التي تذهب بالانسان وتغيبه ، ولكنه
كثيرا ما يفرقه التساؤل ، فبأي حق يكون دوام الدهر متمثلا في
تعاقب الليل والنهار دون الانسان ، وهو في النهاية يستصغر من
شأن الدهر وعشوائيته ويصفه بأنه غير جدير بالمعابة ، أي ان
الدهر دون مستوى العتب :

اقول وقد فاضت بعيني عبرة
ارى الدهر يبقى والاخلاء تذهب
اخلاي لو غير الحمام أصابكم
عتبت ولكن ما على الدهر معتب

وفي احدي اساطيرهم ، ما يشير الى ان سام بن نوح أبو
كل الاقوام السامية ، كان جزوعا مرعوبا من الموت كما يقول وهب
« وكان سام جزوعا من الموت ، فسأل نوح الله ألا يميته حتى
يسأل الموت - أي حتى يطلب سام نفسه الموت - فعاش أربعة
آلاف عام ، بنى ألفين وعمر ألفين ، الى أن سئم الحياة واعتلّ ،
فسأل ربه الموت فمات » .

وعندما سئل سام بعد موته عن الكيفية التي رأى بها الحياة
قال :

« كبيت من بابين ، دخلت من هذا وخرجت من ذاك » .

ويورد « الساجستاني » تضمينة مرادفة للفكرة السابقة ،
نسبها الى نوح : « فبعد أن عاش نوح ١٤٥٠ سنة ، أتاه ملك
الموت وسأله : يا نوح ، يا أبا كبير الانبياء ويا طويل العمر ويا مجاب
الدعوة ، كيف رأيت الدنيا ؟ قال : كبيت له بابان : دخلت من باب
وخرجت من الآخر » .

ومما تنائر حول خرافات لقمان ونسوره السبعة وتشبثه
بالخلود ، ينسب لشاعر يدعى « يثم اللات » شعرا يقول فيه :
رأيت الفتى ينسى من الدهر حقه
حذار لريب الدهر والـدهر آكله
ولو عاش ما عاشت للقمان أنسر
لصرف الليالي بعد ذلك يأكله .

ولقد وحد العرب الاوائل في أشعارهم وأقوالهم بين نبيهم
أو الهمم الاب « هود الذي كان قد أرسل الى قبائل عاد البائدة »
وهو الذي سلط على قوم عاد طوفان الرياح وأبادهم من الوجود .
وفي إحدى القصائد الاسطورية التي تنسب الى امرأة كاهنة
تدعى هزيلة ، أجابت قومها حين سألوها عما حدث لقوم عاد ،
فقالت هزيلة : « سأقول شعرا وأرويه الجراداة تسمعكموه » ،
وقالت :

ان عادا آثرت حقا على الرشد الصدودا .
لم تقل في غيها حين عنت قولا سديدا .
بل طفت بغيا وقالت لنطيع الدهر هودا .
عابدين من ضلال صنما يدعى الصمودا .

وفي هذا الشعر يبدو واضحا توحد النبي - الاله « هود »
بالدهر الذي خلف اسمه على قصور ومعابد وقبائل « دهر » ،
والذي من اسمه اشتق « جبل زهر » ، فيقال بأن « من زهر
خرج سبعة فراعنة حكموا مصر » .
بل ان الاسم الكامل لهود قد يزيد الامر وضوحا ، فهو
« هود بن عبد الله بن الخلود بن عاد » (١) .

(١) التعبير ، ص ٢٨٥ .

والغريب ان قائل هذا الشعر - التالي - يتحسر على ان
« بنات الدهر » رمينه غيلة فأصب من مقتلا ، دون أن يكون في
مقدوره الرد على مفتاليه . « وكانوا يصفون الدهر بالرامي أي ذلك
الذي لا يخطيء الرماية » :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أدري
فما بال من رمى وليس برام
فلو ان ما أرمي بنبيل رميتها
ولكنمسا أرمي بغير سهام
وأفني ولا أفني من الدهر ليلة
وما يفن ما أفنيت ملك نظامي

كما تصوروا الدهر ساقيا يسقي الانسان كأس المنايا :
أسلموا للمنون عبد يغوث
وبعض الكهول حولا يراها
بعد ألف سقوا المنية صرفا
فأصابت في ذاك سعد منهاها

ووسع العرب الجاهليون في مفهوم وخرافات الدهر فقالوا :
« يد الدهر » و « ريب الدهر » و « عدواء الدهر » و « غلواء
الدهر » . كما قالوا : « ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا
وما يهلكنا الا الدهر » (١) .

وعلى هذا أنكر هؤلاء الدهريون الخالق والبعث ، وان كانوا
قد ثوسلوا من جانب آخر الى الدهر والزمن والدنيا . والغريب
انهم كثيرا ما ارتدوا واندفعوا يسبون ذلك القادر أو المعطسي
أو « الماني » ، فكانوا اذا وقعت بهم الكوارث يسبون الدهر
ويلعنونه .

ومن هنا يتضح ان الدهر هو ذلك الاله القادر المهيمن والمتحكم
في المصائر والاعمار واستمرار العالم .

(١) الجاثية ، آية ٢٤ .

وفي الاحاديث النبوية يتوحد الدهر بالله تمام التوحد وذلك حين نهى النبي بشدة عن لعن الدهر : « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » . أو فان الدهر هو الله . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا أنا الدهر » . أقلب الليل والنهار » (١) . وكان أصحاب الوبر بعامة من عرب وعبريين لا يؤمنون بالبعث والقيامة ، وهي تلك الافكار التي اكتملت مؤخرا في الميثولوجيا السامية ، خاصة عند البسودو والرعاة ، فقالوا : « فانما حياتنا. ظل يمضي ولا مرجع لنا بعد الموت لانه يختم علينا فلا يعود أحد » (٢) .

وقال البعض ان الدهر اسم من أسماء الله الحسنی ، وكذلك فقد تبدت هذه العقائد القدرية عند أغلب فحول الشعراء الجاهليين ، مثل أمية بن أبي الصلت ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد ، وسويد ابن عامر المصطلقى ، وهو القائل :

لا تأمننّ وأن أمسيت من حرم
حتى تلاقني ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن
بكل ذلك يأتيك الجديدان

والشاعر ابو ذؤيب الهذلي ، الذي قال :
أمن المنون وريبتها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومن تصوراتهم التي أنطقوها الحيوانات والطيور ، حول الموت وحلول القضاء (٣) ، ما فسر سليمان به غناء البلب : « أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء » . والهدهد يقول : « اذا نزل القضاء عمي البصر » . وكل حي ميت ، وكل جديد الى زوال . و « لدوا للموت وابنوا للخراب » . والنسر يقول : « يا ابن آدم ، عش ما شئت فانك ميت » .

(١) تاج العروس ، الجزء ٣ ، ص ٢١٨ . اللسان ، الجزء ٥ ، ص ٣٧٨ .

(٢) سفر الحكمة (الابوكريفا) ، فصل ٣ .

(٣) البداية والنهاية .

ويقول الطبري :

« ان اول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ! فجرى في تلك الساعة بما هو كائن . ويقال ان القلم سأل الرب قال : يا رب وما اكتب ؟ قال : اكتب القدر . فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن الى الابد » (١) .

فيقال ان « الله كتب مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

ولقد دارت حول الملك النبي « داود » عديد من الاساطير التي تكشف جزعه من الموت ، مثل سلفه « سام بن نوح » ، وترد هذه الاساطير والخرافات في صور ومصادر كثيرة ومتنوعة ، منها ان آدم سأل الله عن « داود » فقال له الله : هذا ابنك داود . ولما سأل عن عمر داود ، قال له الله : ستون سنة . فقال آدم : رب زده في عمره . فرفض الله قائلا : لا بل تزيده أنت من عمرك . ولما كان عمر آدم ألف سنة فقد وهب لداود من عمره أربعين عاما . فكتب الله عليه بذلك كتابا ، وأشهد عليه الملائكة ، لكن عندما حضرت المنية آدم وأشرف على الموت ، جعل يخاصمهم في الأربعين سنة التي كان قد وهبها لداود .

وتنفرد إحدى أساطير « الخضر » ، معلة السبب في ان الخضر حي خالد لا يموت ، لانه هو الذي قام بدفن جثمان آدم ، ولهذا أصبح الخضر أطول بني آدم عمرا . و « الخضر » أو « الرجل الاخضر » هو الذي قال عنه الرب في العهد القديم : « أنت الخضر ، وكلما مست قدماك الارض اخضرت » .

ويقال انه عندما حضرت الوفاة آدم ، جمع بنيه وقال لهم : ان الله منزل على الارض عذابا فليكن جسدي معكم بالمفارة ، حتى اذا هبطتم ، فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام . فكان جسده معهم الى ان بعث نوحا ، وضم الجثمان معه ، الى ان وقع الطوفان الذي أغرق الارض زمانا ، فجاء نوح حتى نزل ببابل وأوصى بنيه الثلاثة ، سام ويافت وحام ، أن يذهبوا بالجثمان الى المكان الذي أمرهم أن يدفنوه به ، فقالوا : « الارض وحشة ولا أنيس بها ،

(١) تاريخ الطبري ، ص ٢٤٨ وما بعدها ، المعمرين والوصايا .

ولا نهتدي الطريق » . فقال لهم نوح : « ان آدم قد دعا الله ان يطيل عمر الذي يدفنه الى يوم القيسامة » . فلم يزل جسد آدم حتى كان « الخضر » هو الذي تولى دفنه « وهو يحيا الى ما شاء الله ان يحيا » .

وتربط الميثولوجيا العربية بين أساطير الخلق والبدء وبين أفكار القدرية والجبرية ، والدهر الذي وحده وعبداه الساميون بعامية ، ثم العرب الجاهليون خاصة ، الذين عبدوا الدهر والقدر والماني أو المنايا في هيئة أصنام ، فكان الصنم : منايا أو مناة ، من أقدم المعبودات الجاهلية .

ويذكر هشام الكلبي ، ان صنم الالهة مناة ، كان منصوبا على ساحل البحر ، بين مكة والمدينة (١) ، وكان معبودا لقبائل الاوس والخزرج من أهل يثرب .

ويضيف ابن الكلبي : ان العرب جميعا كانوا يعظمون الالهة « مناة » ، ويذبحون لصنمها الذبائح ، كما انهم تسموا باسمها : « عبد مناة ، وزيد مناة ، وتيم مناة » .. الخ .

والالهة « مناة » من منشئها ، الهة الموت والقدر عند البابليين العراقيين ، وعرفت بنفس اسمها العربي عندهم : « مامانتو » (٢) ، وعن البابليين عرفها الكنعانيون ، والاراميون ، والانباط ، الى ان وصلت العرب فيما بعد ، فعرفوها بنفس الاسم أو ما يقاربه « منى » ، وذكرت منى متوحدة مع الاله « جاد » اله قبيلة جاد في العهد القديم (٣) .

ويشير الجمع بين هذين الالهين ، منى وجاد ، الى ارتباط المنايا والاقدار بالتنبؤ ومعرفة المستقبل ، الذي ارتبطت المعرفة به بالاله « جد » أو « جاد » ، والذي من اسمه تسمت قبائل جاد العبرية .

(١) البكري ٩٥٦ - الاصنام الجزء ١٣ - تاج العروس الجزء ١٠ ص ٣٥١ .

(٢) وكان البابليون يتخاطبون معها باسم « ويا مناة يا الهة الموت والقدر ، أو يا ايها الروح المخيفة وملك الموت » .

3 — Babylonian — Lit. p. 110

(٣)

كما ان الاله جد او جاد كان من آلهة القبائل الثمودية المندثرة قبل منى أو مناة ، وكهل . . الخ . ومن اسم جاد تسمى الالهة « بعل جاد » عند اليهود والاراميين والعرب الشماليين في سوريا، وكان يعرف باله السعد والحظوظ والمستقبل عامة .

ومن هنا يأتي ارتباطه بالآلهة الدهرية والقدرية .

ومن هذه الآلهة الدهرية القدرية الهة القمر السبئي نسر أو نسور ، الذي ورد في نصوص المسند والسيثية باسم « بيت نسور » ، بل لقد أطلق على أهل سبأ بعامة « أهل نسور » . ويبدو انه كان لهم مذهب ديني شبه مميز ، نسبة الى عبادة النسر أو النسور ، وسمي معه أيضا أحد رموز السنة السبئية المتأخرة : « ذي نسور » .

وتشير الاسطورة التي أوردها عبيد بن شريه الجرهومي ، عز الحكيم لقمان بن عاد صاحب النسور أو « ذي نسور » الذي ارتبط موته بفناء أنسره السبعة ، وكانت أسماء هذه النسور على التوالي المصون ، وعوض ، وخلف ، ومغيب ، واليسر أو الميسرة - أي الحظ - ، وانسا - أي لقمان الانس - ، وكان سابعها هو النسر لبـد . وفسر عبيد الجرهومي « لبـد » بمعنى الدهر ، بل ان لقمان نفسه عرف « لبـد » بالابد أو الابدية .

فحين وافت المنية ذلك النسر السابع « لبـد » ، وسقط مشرفا على الموت ، ولم يطق أن ينهض ، وتفسخ ريشه ، هال ذلك لقمان هولا عظيما ، ووقع موته منه موقعا جسيما ، وناداه انهض « لبـد » أنت الابد . وأنشد لقمان يبكي نفسه :

موتني اني اموت اليوم يا لبـد
وحسرتني أن قد تعرم الابد

فطر كما كنت سالما ابدا
تحيا ونحيا معا ونحتفد

ويلاحظ في الاسماء السبعة التي أطلقها لقمان على نسور السبعة انها من الاسماء التي تطلق على الخلفة والذرية ، مثل

« خلف » و « المصون » و « عوض » ، وعوض أيضا اسم للاله الجاهلي - القدري - عوض .

كما يلاحظ ان الاله القمري « نسر » الذي يتوحد بالدهر والزمن ، هو ما أصبح رمزا قوميا لدى أغلب الشعوب العربية والسامية عامة .

كذلك فانه مما يشير الالتفات ، تلقيب لقمان لنسره الخامس باسم الميسر ، أو الميسرة ، وهي كلمة مرادفة للحظ والسعد ، ومنها جاء الميسر بمعنى القمار .

ومن المعروف عن المقامرة « انها نوع من التكهن والاستشارة ، انها جواب الآلهة للسائل » . ولعب الميسر كان في منشئه شعبية فلكية لاهوتية مثلها في هذا مثل القرعة .

فيقال انه كان هناك اعتقاد شعبي شائع لدى المصريين القدماء ، مؤداه ان الايام الخمسة النسيئة المنتزعة من السنة المصرية القديمة بحسب التقويم القرعوني السنوي ، ما هي الا الايام الخمسة التي كسبها الاله تحوت أو هرمس ، اله الكتابة ، حين لاعب الالهة القمرية الام « ايزيس » الدومينو أو السيجة ، وكسب منها ، وكانت هذه الايام الخمسة بمثابة ميلاد للآلهة المصرية الخمسة : أوزوريس ، حورس ، ست ، ايزيس ، نفتيس . فأصبحت بعد ذلك بمثابة أعياد سنوية - خارج الزمن أو الدهر - يجري الاحتفال بها في جزيرة البيت المضيء ، التي عرفت باسم فاروس ، وهي ما أصبحت مدينة الاسكندرية فيما بعد .

والذي أود توضيحه ، هو ان ثمة علاقة دينية بين لعب القمار أو الميسر ، وبين التقويم الفلكي اللاهوتي ، منذ فترات مبكرة جدا عند أغلب الشعوب الاسيوية .

وقد يلقي المسعودي تفسيراً أوضح للعلاقة المبكرة بين الميسر أو لعب القمار أو الزهر - الطاولة - ، وبين « اللاهوتي » الفلكي أو الزمن الذي هو الدهر ، يقول : « وقد ذكر إن أردشير بن بابك ، أول من صنع النرد ، ولعب بها ، وجعل بيوتها اثني عشر بيتا ،

بعدد الشهور ، وجعل كلابها ثلاثين كلبا ، بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصين مثلا للفوز وتقلبه بأهل الدنيا .

وكان منوطا بالاله هبل ، الذي استقدمه الكاهن عمر بن لحي الجرهمي ، ونصبه في جوف الكعبة ، ضرب القداح ، وما من أمر قام به العربي الجاهلي ، لم يستشر فيه هبل . فكان في جوف الكعبة ، قدامه ، سبعة أقداح ، مكتوب في أولها « صريح » والآخر « ملصق » ، فإذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فان خرج « صريح » ألحقوه ، وان خرج « ملصق » دفعوه ، فكان لكل مطلب قدح : قدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وقدح للاختصام والسفر والعمل .

ويبدو ان الجاهليين كانوا قد استقدموا صنمه من خارج الجزيرة العربية ، ويرجح انهم جاءوا به من العراق ، اذ ان تمثاله بحسب وصف ابن الكلبي كان « من عقيق أحمر على صورة انسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلت له يدا من الذهب » . وكان قربان هذا الاله مائة بعير .

ويبدو ان العرب الجاهليين قد أحلوا لشعائر الحظ والميسر والبخت أن تتحكم وتشرع في معظم حياتهم وأفعالهم ، وهو ما نهى عنه الاسلام بعد ذلك ، مثل ما كان يعرف عندهم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والميسر والحام والاستقسام بالازلام ، وكانت تشريعاتهم التي أخذ بها أصحاب الوبر ، غير تلك التي اختصت بأصحاب الحرث أو الزرع ، فكانت البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، شعائر متصلة بأصحاب الوبر ، كأن يسيب أو ينذر للالهة البهائم أو البشر ، فتصبح في حكم المحرمات ، منافعها للرجال دون النساء ، وهو تعبير ما يزال متواترا حتى الآن ، ويطلق على البغايا من النساء ، فيقال مثلا : « ان ابنة فلان سايبة » ، بمعنى انها حق مشاع للرجال .

ولجأوا الى ضرب القداح أو « الاستقسام بالازلام » في كل صفائر وكبائر حياتهم ، مثل الخصومات والحرب وانتساب الاطفال ، وكل ما يتصل بعلاقة الرجل بالمرأة .

وأطلقوا على طريقة تقسيم الذبائح اسم الميسر ، والبدء ،
والنصيب .

وعلى هذا تحكمت الحظوظ والبخسوت ، في كل مصائر
الناس .

وكانت تلك الاقداح التي كتبوا عليها « العقل » و « السعد »
أو « نعم » و « لا » ، هي المتحكم الاخير ، في الحروب والاغارات
وحفر الآبار وتقديم الهبات واختيار الحكام والكهنة وسدنة الكعبة
وهكذا .

وأغلب هذه الشعائر والافعال والمعتقدات ما تزال محفوظة
متداولة في الفولكلور المصري والعربي عامة ، منها الحكايات
الخرافية التي تدور حول « خروج العقل » و « احلال السعد »
و « ضرب الزهر وانكساره » ، ومنها ان شعيرة ضرب الاقداح ،
تحولت الى احدى ألعاب الجط والزهر ، يمكن التعرف عليها في
الموالد الموسمية الشعبية ، في لعبة الكيزان .

وكثيرا ما كان المتعلقون من الشعراء العرب ، يسبون آلهتهم ،
ويسخطون على ما تشير به من اتيان الكوارث والخراب ، ذلك
الذي يخضع بكامله لتلك الحظوظ العشوائية ، التي تحكم نواصيها
الصدفة ، مثلما يتضح من هذه الابيات التي تنسب لامرئ القيس
يسب فيها الصنم الاله ذا الخلصة ، وكان قد نهاه عن الحرب
طلبا لثأر أبيه القتيل :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبور
لم تنه عن قتل العداة زورا

ولا حد لخصوبة معتقداتهم التي ما تزال تتلمس طريقها خلال
حياتنا المعاشة اليوم ، مثل « الهامة » التي تخرج من رأس القتيل
في شكل طائر هائم مرفرف ، يبتغي القصاص ، يظل يصرخ
ويندب : « اسقوني اسقوني » ، الى أن تراق دماء مغتاليه ،
فيروى ويسكن .

وتبدي هذه الفكرة او التضمينة ، عند اليهود في أحد

أسفارهم الممنوعة ، وهو سفر الحكمة . ويرى البعض ان مصدرها القبائل العبرية العربية : بني القريظة ، وبني النضير ، وبني فينقاع .

ومنها ما يتصل بتقاليد الموت المتوارثة ، مثل « النعي » العلني ، أي أن يركب كل ناع أو معزي فرسه ، ويصرخ بعسلو صوته : « أنا فلان الفلاني أنعي الميت فلان » ، والثناء أو الندابة أو النواحة ، وما يتبع مراسيم الموت والدفن والمأتم ، مثل شق الجيوب ، وجنازات النساء ، وتعفير التراب ، وحلق الشعر ، وهي تلك العادات الواسعة الانتشار لدى كل المجتمعات السامية ، بل والمصرية القديمة ، مثل احترام الندب وسبعة أيام العزاء ، واستئجار الندابات ، وهو ما كان معروفا لدى المصريين القدماء والعبريين والبابليين .

وكانوا يقولون للميت وهم يوارونه التراب : « لا تبعد » :

يقولون - لا تبعد - وهم يدفنونني

وأين مكان البعد الا مكاننا

وكانوا يعظمون ، أو هم يعبدون موتاهم وأسلافهم ، فيحجون الى القبور ، ويحلقون شعورهم عندها ، ويدبحون لها ، ويعقدون المناحات والاشادة بفضائل الميت ، ويسكرون ويسكبون بعض الخمر ليشرب الميت ، ومثلهم كان يفعل العبريون : « اذ كانوا يخرجون حصاة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى » .

فكان العرب الجاهليون ، مثلهم مثل العبريين ، مفرطين في هذه المعتقدات ، ومن هنا جاء دور العراف والعائف والساحر ، وراقي الرقي ، والتمايم ، وسائل الجن والتوابع .

وتتبدى هذه الفكرة أو التضمينة ، عند اليهود ، في مرحلة متأخرة ، في أحد أسفارهم الممنوعة . فالهامة التي تخرج من رأس الميت ، عندما انطفأت حياته ، وعاد الجسم رمادا وانحلّ الروح : « كنسيم رقيق ، وزالت حياتنا كأثر غمامة اضمحلت مثل ضباب يسوقه شعاع الشمس ويسقط بحرها » . فالهامة هنا ،

مثلها مثل « النسيم الرقيق » أو « الغمامة » (١) .

كما ان من معتقداتهم الخرافية الجاهلية ، التفرس في وجه الموتى من الاسلاف ، وتصنيف الجن ، واحلالها بين قرني الثور ، وهو ما اتخذته الارض الام - بعد ذلك - التي تستقر على أحسد قرني الثور الالهي . كما انهم افرطوا في اتخاذ العرافة والقيافة وزجر الطير والاحلام وخطوط الرمل ، وسكك الحصى ، والتكهن والحدس والتنجيم ، وكذلك التنبؤ والفراسة والاستقسام بالازلام عند الاصنام ، وهي في مجملها معتقدات عرفت في البابليين والكنعانيين والقبائل العبرية .

فمثلا عرفت القبائل العبرية العيافة ، بمعنى التنبؤ عن طريق ملاحظة حركات وسكنات الطيور والحيوانات ، وسموها « الشاق » ، أي شق أجساد الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها ، واستخلاص النبوءة ، كما كان زجر الطيور والحيوانات في العربية ، يقابله الـ « نبحوشيه » في العبرية ، ومنها نحش ، وحنش ، وهو ما يشير الى العلاقة بين التابوت والثعبان . وكان الكاهن يلعب بالزاجر ، والتكهن يقال له « طيرة » في العربية والعبرية ، والتطير بمعنى التشاؤم والتفاؤل ، وينسب لسليمان وذي القرنين والحكيم لقمان معرفة لغة الطير ، وطرق التطير ، وامكانية احكامه والسيطرة عليه .

وكان للكلدانيين - العراقيين - شهرة لا تبارى في معرفة أساليب التطير ، عن طريق قراءة رثة الطيور وأكبادها وأحشائها .

وكانوا يتشاءمون ويتطيرون من المرأة والدار والفرس ، وعتبات البيوت ومداخلها ، والغراب أو غراب البين ، أو الغراب الاسود ، وحتى العطاس والسفال ، كانوا يتشاءمون منه (٢) .

ولقد أجمع العرب والعبريون على اعتبار الغربان والبوم من الحيوانات النجسة المشؤومة ، وسموا البومة بـ « أم الصبيان » (٣)

(١) - الكتاب المقدس - (المطبعة الكاثوليكية) - سفر الحكم - الفصل الثاني .

(٢) - عمدة القارئ ، ٢١ - ٢٧٥ .

(٣) - اللسان ٨٠٠ - ١١١ . تاج العروس ٦ - ١٩٣ .

« أم الخراب » ، واعتبروها الهامة التي تخرج من رأس القتل ،
تحجبل بلا توقف على قبره ، في طلب الثار والدم .

وترد أعظم الاساطير المتصلة بالاحلام ، عند الساميين ، في
قصص يوسف الصديق ، وكيف ان سبب مأساته مرجعها الى
أحلامه ، حين « حلم يوسف حلما وأخبر اخوته ، فازدادوا أيضا
بغضا له ، فقال لهم : اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فيها نحن
حازمون حزما في الحقل ، وإذا حزمتم قامت وانتصبت فأحاطت
حزمكم وسجدت لحزمتي . فقال له اخوته : لعلك تملك علينا ملكا
أم تتسلط علينا تسلطا » . وكان أن حقدوا عليه واحتسبوا
ليميتوه ، حين أرسله أبوه لهم : « اذهب أنظر سلامة اخوتك
وسلامة الغنم ورد لي خبرا » . فلما أبصره اخوته قادما ، احتالوا
ليقتلوه : « فقال بعضهم لبعض ، هو ذا صاحب الاحلام قادم ،
فالآن هلم نقتله ونطرحه في احدى الآبار ونقول وحش رديء أكله ،
فنرى ماذا تكون أحلامه » .

وتتوالى هذه القصة ، متجمعة ، لتثبت صحة حلم يوسف
وتفوقه على اخوته بل وبيت أبيه بعامه ، وانقاذه لهم من القحط
والجاعة .

بل ان دور يوسف في مصر ، لم يتعد انه كان موهوبا في
تفسير الاحلام ، منها حلما خصيي فرعون رئيس السقاة ، ورئيس
الخبازين ، ثم تفسيره حلم فرعون مصر ، فكان أن جعله فرعون
نائبه : « أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ،
الا ان الكرسي - الذي أكون فيه - أعظم منك » .

كما ان الكلدانيين والعرب والعبريين تشاءموا من بعض
الثيران ومن الحية والثعلب والاعسور والمرأة الطامث ، والرأس
المستطيلة ، مثل الشمامة .

كما قد يتوحد « الهائف » مع الدهر والقدر والزمن والماني
- بمعنى القادر والعاطي - والدنيا الخ . . ولقد شبه العرب
« الهائف » بمعنى الرائي ، وكان العبريون الجاهليون يلقبون النبي
بالرائي الذي يهتف للانسان والكهان بشكل أخص ، وهو ما قد

يتطابق مع الايحاء والوحي ، وما يمكن اضافته هو ان صوت الهاتف لا يرد ، بمعنى انه لا خيار - وبالتالي مرد - لذلك الذي يزوره الهاتف ، ويحط عليه ، ويتكشف له ، فالمعودة أو البغي التي يجيئها الهاتف ويأمرها بترك بيتها وزوجها ، والنزول الى الوعد والمكتوب ، أي ان تصبح سائبة - أو سايبة - مشاعا « للرجال دون النساء » ، ليس في مقدورها الافلات من صوت « الهاتف » .

وفي « شفيقة » ومتولي بشكل أخص ، يزور « الهاتف » شفيقة في قبرها ، بعد أن تموت - أو هي تنتحر - ويهتف بها أن تقوم ، لتواصل قدرها وتفي ما كتب عليها ، قائلا : « اللي عليك ما خلصش » . وكما هو معروف ، تقوم شفيقة من قبرها ، وتعود بعد قيامها من عالم الموتى الى معاودة الحياة المخططة المقدورة لها .

فالهاتف هنا هو اله كامل ، يحقق قيامة البغي ، ولا مرد لقضائه .

فكان يمكن للهاتف ، الامر بواد البنات ، كما كان في مقدوره منع وتحريم وأدهن .

وفي احدي الحكايات التي صاحبت مولد كاهنة قريش الام « سوداء بنت زهرة بن كلاب » ، انه كان من عادة العرب وأد البنات اذا ما جاءت الى الوجود ناقصة التكوين ، كان تكون كسيحة أو عوراء أو برصاء أو زرقاء ، ولما كانت تلك الكاهنة ، « سوداء » ، قد ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك ، أمر بوأدها ، فأرسلها مع من جهز لها في الخلاء ، وهم بدفنها واهالة التراب عليها ، فسمع هاتفها يقول : « لا تئد الصبيسة ، وخلص البرية » فالتفت الحفار فلم ير شيئا ، فعاد ليدفنها فسمع الهاتف يسجع سجعا كهنوتيا ، يمنعه من وأدها ، فكان أن عاد بها الى أبيها ، وأخبره بما أشار به الهاتف ، فتركها حتى كبرت وأصبحت كاهنة قريش ، التي أنيط بها بعد ذلك رؤية البنات عقب ولادتهن ، وقول رأي أخير فيما يتصل بوأدهن أو العكس .

ويقال ان هذه الكاهنة ، هي التي منعت واد آمنة بنت وهب .
كما يقال بأن سوداء بنت كلاب هذه ، كانت اول من ذكر
« جهنم » في العرب .

وليكن واضحا ان مثل هذه الافكار الميثولوجية عن جهنم
والسعير والفردوس او جنة عدن ، باختصار كل ما يتصل بأفكار
الموت والقيامة ، هي افكار دخيلة ، جلبتها هذه الكاهنة العرّافة ،
وغيرها من الشعراء الجاهليين ، مثل عمرو بن لحي ، وأمّية بن
أبي الصلت ، من الشام فيما بعد القرن الخامس الميلادي .

ويبدو ان مفهوم الساميين - والعالم القديم عامة - عن
الحلم ، كان هو بعينه الهاتف ، ذلك الذي لا مردّ لامره ، فهو
الذي كان يدفع بالملوك الى قتل الاطفال الذكور ، مثلما حدث مع
نماردة بابل والشام وملوك الفرس وفراعنة مصر لقتل الاطفال ،
بحسب روايات العرب والعبريين أصحاب الوبر .

ونسب العرب الرؤى او الاحلام أو الهواتف ، لارواح خبيثة
شيطانية ، واخرى مصدرها الالهام الالهي ، وكثيرا ما يأخذ
الالهام شكل متنبّئات أو نساء قدريات ، مثل كاهنة سبأ طريقة ،
وسوداء بنت كلاب التي مرّ ذكرها ، ومنهن أربع فتيات ، لهسن
هيئة الايرانيات في الميثولوجي الهليني ، ينشدن نبوءاتهن بطريقة
شعرية كهنوتية ، ويعرفن في الميثولوجيا العربية بـ « صواحبات
مصاد بن مدعور القيني » .

وعرفت الميثولوجيا الفرعونية « الهاتف » بحسب الرواية
التي أوردها هردوت « بشأن الهاتفين اللذين يوجد أحدهما عند
اليونانيين ، والآخر في ليبيا » . وحكى هردوت عن هذين الهاتفين
أو « الوحيين » حكايات تدور أحداثها حول مصر وليبيا وفينيقيا
واليونان . وفي إحدى هذه الخرافات يكون الهاتف على شكل
كاهنة مقدسة ، وفي رواية أخرى يكون على شكل حمامة سوداء ،
لها صوت آدمي . فيقول هردوت : « طارت حمامتان سوداوان
من طيبة التي في مصر ، فذهبت أحدهما الى ليبيا ، وجاءت
الثانية الى اليونانيين . وعندما حطت هذه فوق سندية ، أعلنت .

— في صوت آدمي — أنه يجب انشاء هاتف لزيوس هناك ، وادرك القوم ان هذا نبأ جاءهم من اله ، وتصديقا له ، أقاموا الهاتف .
أما الحمامة التي توجهت الى ليبيا ، فتقول العرافات ، انها أمرت الليبيين باقامة وحي « آمون » .

ويبدو ان أماكن التزين بالحلى والاحتفاء عامة بالاشياء ، وهو ما يتبدى أكثر عند النساء والاطفال ، مثل العنق والاذن والانف والجبهة والصدر ، كانت أماكن لشعائر ورقى وأحجبة وتعاويد ومنفرات ، اعتقادا فيما يكمن فيها من قوى سحرية خفية ، تجلب البخت والسعد ، وتطرد النحس والشؤم . فالساميون من العرب عبدوا الاشياء من تماثم وأحجار وشجر ونبات وجبال ووهساد ، اعتقادا فيما يكمن ويسكن هذه الاشياء المادية من قوى غيبية ، وعلى هذا علقوا الاجنحة اليمنى لطيور بعينها على صدور الاطفال ، واعتقدوا في رأس الهدهد وسنّ القطعة والدثب والخنزير ، ذات الشكل الهلالي ، نسبة الى « الهلال » أو الالهة الام القمرية .

كما انهم أكثروا من استعمال هذه الطلاسم والرقى والمعوذات أو التعاويد لدفع الاوبئة ، مثل الحمى ولدغ العقارب والحيات ، بالإضافة الى أغراضها الجنسية والعاطفية ، ومنها ما كان الغرض منه اتقاء الحسد و « النفاثات في العقيد » ، وشرور العين ، و « النفس » الشريرة .

وهذه المعتقدات في مجملها ، أمكن التعرف على منابتها الاولى منذ السومريين اللاساميين — الالف الرابعة ق.م. — ، منها الرقى والطلاسم والاحجبة ، والعين الحاسدة أو القاتلة ، والنفس أي النفس الخالق الذي وهب به الاله الانسان ، حين نفخ في حلقه فخرج من دبره وهو — نفسه — النفس القاتل المميت ، فيقال عن المصاب والمريض والمعلول ، انه « منفوس » ، كما قد يقولون « عائن » و « عيون » مثل عين الالهة الاناث عند السومريين والبابليين « حين سلطت عليه نظرة الموت » ، التي أردت بها ابنها قتيلا ، وعين الام سارة ، الحاسدة ، التي كادت أن تقتل بهسا اسماعيل حين سلطتها عليه فأردته قتيلا ، حتى ان أمه هاجر ، وارته تحت الرمل ، وصلت لاصنامها .

فالنفس الخالق ، هو نفسه النفس المميت .

وتنسب احدى اساطير القحطانيين ، وما اكثرها واخصبها ،
لكاهنة عريقة ، تدعى « طريفة » ، انها هي التي وهبت الكاهن
المتنبىء الخرافي الذي لقبوه بسطيح ، ورووا عنه انه عاش ثلاثين
قرنا ، النفس الخالق .

وهي أسطورة قحطانية عريقة ، تستوجب الثاني ، تنسب
أحداثها لهجرات حميرية مصيرية بالنسبة لمجرى وتاريخ أحداث
الشرق الادنى ، ويؤرخ لها بما أعقب خراب سد مأرب .

فعندما وافت المنية الملك الكاهن عمران بن عامر ، دعا أخاه
عمرو بن مزيقيا ، وأنباه بخراب البلاد ، وبأهمية الزواج بالكاهنة
طريفة . ومات عمران .

وعمر و سمي مزيقيا لانه كانت تنسج له في كل سنة ٣٦٠
حلة من الذهب الاحمر ، وكان يأذن للناس في الدخول ، فاذا
أرادوا الخروج خلعت حلته ومزقت ، ولذلك سمي مزيقيا . ويقال
انه أخذ سنته أو شعيرته هذه من ذي القرنين « يوم هتك عرشه
ومزق حلته » . هذا ويبدو انها كانت بمثابة عيد أو شعيرة ،
تتصل بالآلهة الزراعية الممزقة .

وترد بكثرة شديدة في ذلك التاريخ الاسطوري للملوك
اليمنيين ، مرة في كيفية تمزيق الملك لثيابه على مرأى من قومه ،
ومرة في طقوس هتك العرى للشعب أو الملك - أو التبع - لعرشه ،
بطريقة موسمية محدودة .

والملفت ان هذه التقليدية ، ما تزال سارية في الحواديث
والبلاد الشفاهية المصرية والعربية .

وتزوج عمرو بن مزيقيا الكاهنة طريفة « وكان عمرو أعظم
ملك بمأرب ، وكان له تحت السد من الجنات ما لا يحاط به ،
فكانت المرأة تمشي وعلى رأسها « مقطف » ، فلا تصل الى بيت
جارتها الا وهي تملؤه من كل فاكهة ، من غير أن تمس منها شيئا ،
حتى انهم دعوا على انفسهم « ربنا باعد بين أسفارنا » ، الى ان
أرسل الله عليهم السيل ، فخرّب السد ، وهو ما هتف به الهائف
أو « الآتي » وأخبر به طريفة في المنام ، حتى زارها وقال لها :

« ما تحبين يا طريفة ، علم تطيب به نفسك ، أو مولود تقرّ به عينك ؟ فقالت : بل علم تطيب به نفسي . فمرّ بيده على صدرها ، ومسح بظاهر كفه على بطنها ، فعقمت فكانت لا تلد ، واتسعت في العلم وأعطيت منه حظا عظيما . »

وكان زوجها عمرو بن مزيقيا ، يكنى بـ « ماء المزن » أو مارب ، أو « ماه رب » وهي كلمة آشورية بمعنى البلد والسهل والوادي ، كما أن « ماه » بالفارسية تعني القمر .

وكان ابن عمرو بن مزيقيا ، يدعى ثعلبة العنقاء ، وهو « جد الانصار من الاوس والخزرج » .

وأمرت هذه الكاهنة قومها من العرب الفساسنة ، بالنزول الى الشام ، فتملكوا عكا ، بعد أن هادنوا ملكها « سملقة بن حباب العكي » ونزلوا غربي عكا .

ورفض ثعلبة العنقاء قتالهم ، متمثلا قول سلفه يعرب بن قحطان : « ويل للمنزول عليه من النازل » .

الى أن تروى هذه الخرافة ، عن تدخل « جدع بن سنان » وهو من الجن ، فأوقع بين الفساسنة وأبناء اعمامهم أهل عكا ، الى أن قتلهم الفساسنة ونفوهم من الشام ، ثم أشارت عليهم الكاهنة ، بالمسير الى همدان ، فتملكوها ، وهكذا سارت بهم الى نجران ، تستحثهم على القتال وتخطب في المحاربين ، وترسم الخطط ، وكانت تسكنهم قبيلة قبيلة ، فملك قبائل الازد عمان ، وملك الاوس والخزرج « يشرب ذات النخل » أو المدينة ، وأنزلت همدان « نحو العراق بابل » ، وأنزلت علبه أو جفنة بن عامر بن غسان دمشق ، وأنزلت قبائل السراة بن غسان تهامة .

وكانت في كل مرة تقول هذه الكاهنة كلاما مسجوعا ، كأن تقول : « خذوا البعير الشدقم ، فانحروه وخضبوه بالدم ، حتى تأتوا أرض جرهم » . ثم حاربوا قبائل جرهم وبنو اسماعيل « فهزموهم حتى أدخلوهم مكة واستفاثوا بالحرم » .

وكانت مكة آخر مطاف تلك الهجرة القحطانية التي تزعمتهم هذه الالهة الكاهنة الام الملعونة « طريفة » ، مثلما تزعمت سسارة الالهة الام لقبيلة ابراهيم ، القبائل العبرية الرعوية ، وضرتها هاجر

قبيلة الهاجريين والاسماعيليين ، وعبرتا الامازون الليبيات القبائل
الليبية الخ . .

وقبل موتها تنبأت لخليفتها بعد ذلك بقرون ، الكاهن الجاهلي
الخرافي « شق الذي يعلم ما حل وما دق » ، والذي تنبأت طريفة
بمجيئه قبل أن يولد ، مقسمة ب « الاسم والربا ، والعلم والابا ،
والنور والضيا ، انه يولد في - قبائل - تميم ابن عم ، ليس له
مفصل ولا عظم ، يخرج ممسوخا ، ثم تموت أمه لسبع ليال ،
وينبىء - أي شق - بالزيادة والنقصان الى فراغ الحق والزمان ،
وأقسم بالنور والفلق ، ما له رأس ولا عنق » .

وبعد أن ماتت أمه لسبع ليال ، أتوا به طريفة : « ففتحت
فمه ، فنفتت فيه وقالت : لا تسقوه لبن امرأة الى بلوغه . ثم
قالت : أنت خليفتي من بعدي » .

وينسب لطريفة هذه ، انها أول من سمت العروبة ، قبل
موتها :

ان ابنة الخير لها أعجوبة وميتة تقضي لها مكتوبة
تودي بها في ليلة العروبة

وماتت طريفة في « ليلة الجمعة في عقبة الجحفة ، فقبرها
هناك مشهور » .

وروى العرب الجاهليون الخرافات تلو الخرافات حول ذلك
الكائن الذي تنبأت به طريفة فليل : « كان الشق بن انمار بن نزار
هذا شق انسان ، له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكذلك
كانوا يعتقدون - فيما يماثله - وهو سطيح ، بأنه ابن مازن بن
غسان ، وكان يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه الا الجمجمة »
وقالوا بأنهما « كانا شخصيتين بلا رأس ولا عنق ، وكانا من أشهر
الكهنة الجاهليين ، وان كسرى استدعاهما ليفسرا له رؤياه ، كما
انهم تصوروا شقا نصف آدمي ، ونسبوا اليه انه أول من تنبأ
بوقوع غزو الحبشة لليمن ، وظهر الملك سيف بن ذي يزن
الحميري » (١) .

(١) الاساطير الاسلامية ص ٧٠ . بلوغ الارب ٣ - ٣٨١ وما بعدها .

ويربط البعض بين شخصيتي شق وسطيح ، بحسب ما أورده الرواة ، وبين وجود القردة والنسانيس باليمن - القديمة - بكثرة شديدة ، منها ما ذكره الاصطخري : « وباليمن قرود كثيرة ، بلغني انها تكثر حتى لا تطاق بجمع عظيم ، واذا اجتمعت كان لها كبير تتبعه ، مثل اليسوب للنحل ، وبها دابة تسمى العدار ، بلغني انها تطلب الانسان فتقع عليه ، فان أصابت منه ذلك ، تدور جوف الانسان فانشق . ويحكى عن الغيلان بها من الاعجوبة ما لا أستجيز حكايته » (١) .

وهذا ما دعاه . محمد عبد المعيد خان الى الربط بين تصورهم لشكل شق وسطيح ، وبين القردة ، وبقية أفكارهم عن السلعة . أو السلعة ، المتواترة حتى الآن في المعتقد الخرافي المصري .

ويبدو ان ثمة علاقة بين القردة ، وبين معتقد العرب الجاهليين عن الدهر أو القدر ، الذي وحدوه بالخالق والقادر والماني الذي هو في آخر المطاف الله . فقالوا انه « في آخر الزمان ، تأتي المرأة فتجد زوجها قد مسح قردا ، لانه لا يؤمن بالقدر » . كما يقال بأن الجاهليين ، كانوا يسجدون للقرد .

وروا الكثير من الخرافات ، حول أناس خلطوا اللبن بالماء ، فمسخوا قردة ، ومنها حكاية عن رجل حمل معه خمرا في سفينة ليبيعه ومعه قرد ، وكان يفش الخمر بالماء مناصفة ، فسرق القرد صرة نقوده وصعد أعلى السفينة ، وراح يلقي بدينار في البحر ، ودينار في السفينة ، حتى قسّمها نصفين .

ويبدو انهم اعتقدوا في ان القردة والخنازير ما هم الا أناس بشريون ، فلقد تواترت خرافات كثيرة عن ان الجاهليين كانوا يرحمون القردة الزناة . وروي عن الأزدي قال : « رأيت فبي الجاهلية قردة زنت اجتمع عليها قردة فرجموها ، ورجمتهن معها » .

وقالوا : « ان الله لم يهلك قوما او يعذب قوما ، فيجعل لهم نسلا ، وان القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » . وربطوا فسي

(١) حياة الحيوان للدميري ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، ص ١٨٣ .

خرافاتهم المتعددة بين سكنى الجن والشياطين والسعالى ، لدير
 وخرائب القبائل العربية المندثرة ، عاد وثمود وطسم وجسديس
 والعماليق وغيرهم ، ومسح هذه الاقوام الى قردة . وفي خرافة
 تروي بعض الاقوام الاسرائيلية بهذا المعنى عن : « القرية التي كانت
 حاضرة البحر » ، وهي قرية سماها ابن عباس بـ « أيلة » ، كانت
 تطل على البحر ويسكنها أناس من اليهود ، حرّم الله عليهم صيد
 الحيتان يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتيهم في يوم سبتهم بيضا
 سمانا ، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم الا بمشقة ، وحدث أن
 اصطاد أحدهم حوتا يوم السبت ، وشواه ، فوجد جيرانه رائحة
 الشواء تملأ القرية ، وأحلّ نصف القرية أكل لحم الحوت ، ورفض
 نصفها الآخر ، وأقسموا : « والله ما نساكنكم في مكان أنتم فيه »
 وخرجوا من السور ، وصرخ : قردة والله ولها أذنان تتعاوى ، ثم
 نزل ففتح الباب . وتدافعت الناس عليهم ، فعرفت القردة أنسابها
 من الانس ، ولم تعرف الانس أنسابها من القردة ، فكان يأتي القرد
 الى نسيبه وقريبه ويختلي به ، فيسأله الانسي : أنت فلان ،
 فيشير برأسه اي نعم ، ويبكي .

وفي قول آخر : « فقدت - أو مسخت - أمة من بني
 اسرائيل ، لا أدري ما فعلت ، ولا أراها الا الفار ، الا ترونها ، اذا
 وضع لها ألبان الابل لم تشربها ، واذا وضع لها ألبان غيرها
 شربتها » .

ولم تتوقف حدود مسح الامم والاقوام - المفتقدة - عند
 التحول الى القردة أو الجان أو الخنازير ، اذ يقال بأن أحد الخلفاء
 رفض أن يأكل ضبا ، والضب محلل أكله ، وقال : « لا أدري لعله
 من القرون التي مسخت » (١) .

ولعل موجز هذا الفصل ، ان أفكار القدرية والدهرية ، التي
 كانت تفرق ماضي بلداننا العربية منذ منبت الانسان المستهدف
 للعقل على أرض هذا الجزء من العالم ، هي بذاتها ما لا تزال تحكم
 مخيلة شعوبنا ، وتكبل ارادتنا ، وبالتالي تشل طاقاتنا الخلاقة .
 أليس كذلك ؟

(١) العميري ، ج ٢ ص ١٨٢ .

الفصل السابع

خرافات الجن والشياطين والعفاريت والرياح

وقد ترجع أغلب معتقداتنا وتصوراتنا التي ما تزال تتواتر في مجتمعاتنا المعاصرة ، عن الجن ومواطنهم ومصاهرتهم للانس وقبائلهم ، وكذلك الغيلان والسعالى - أو السلعوة - والعفاريت والرياح والنداهات والنفرات وسكان ما تحت الارض . . الخ ، ترجع بكاملها منحدره من المتعربة البائدين - الالف الرابعة قبل الميلاد - وبشكل اخص سكان الجنوب (اليمن) القحطانيين ، نظرا لتيسر اتصالاتهم المبكرة بالفرس المجوس في ايران ، والتي يرجعها البعض الى الالف الثالثة ق.م . ، حين اخضع الملوك القحطانيون الفرس ، ومنهم ملوكها مثل الضحاك بن مرداس ، وذو الازعار .

فلقد لعب موقع اليمن وقربها من البحر الاحمر جغرافيا على خط الاتصال بالهند وفارس الآريون ، دوره في جلب هذه الافكار والمعتقدات الخرافية ، عن الجان ، ثم تسريبها فيما بعد الى بقية شعوب العالم العربي ، ومنه عبرت الى أوروبا .

ويدافع « نولدكه » أحرّ الدفاع عن ان معرفة العرب بالجن ، جاءتهم من جيرانهم الشماليين ، وانها دخلت فلسطين من الايرانيين ،

وليس هذا برأي جديد ، فقد اعتبر عالما الفولكلور الالمانيان الاخوان جريسم :

« ان حكاية الجان على رقعة العالم اجمع انتاج آري كامل » (١) ، بل ان فكرة تحول العشيق الى حيوان عقب المضاجعة أو الزواج الشائعة اليوم في فولكلور كل العالم ما هي الا فكرة «عشروتية» بمعنى انها كانت في منبتها الام جزئية أسطورية سومرية لاسامية، كما انها متصلة بفكرة الالهة الانثى القمرية ، والتضحية بالملك الاب الذكر ، وهي أصبحت فيما بعد حكاية جان ، واسعة الانتشار ، خاصة عند الساميين .

فيقال « ان بيدخ ابنة ابليس كان لها عرش على الماء ، وان المريد لها ، متى فعل معها ما تريد ، سحرته » .

وبشكل موجز ، فلقد كان للعرب - سكان الوبر - دور لا نهاية له في ترويح خرافات الجان هذه ، على اعتبار انها خرافات آرية هندوكية ، حملوها مع فتوحاتهم الى مصر وشرق افريقيا والاندلس ، وأوروبا عامة ، وهي النظرية التي تبناها المستشرق تيودور بنفي .

وفي تقديري ان ما كان ينسبه الساميون الاوائل عامسة لآلهتهم ، عادوا فأورثوه الجن ، وبمعنى أدق فان أساطير انحدار الملك - البشري - الابن من صلب اله ، والتي تتبدى بشكل اخص في أساطير الملكات الساميات - التاريخيات - التي تجمع أساطيرهن على انحدارهن من رحم أمهات سماويات « اتصلن برجال بشريين ذكور ، فجئن الى الوجود مثلما حدث مع الملكة البابلية سميراميس التي تنسب لها أساطيرها ان أمها معبودة سماوية أرادت أن تستر زلتها ، فتركها في الخلاء . وأما جانب تطابقها مع عشتروت فيرجع الى قتلها عشاقها عقب الجماع ، وكذلك سميرام السورية ، وميرنا أو شميرنا ، ملكة الامازون الليبيات ، التي

(١) علم الفولكلور - هجرني كراب - ترجمة وشرح وتعليق رشدي صالح ،

ينسب لها المؤرخ ديودوس الصقلي ، أنها « عندما مرت بمصر ،
صادقت حور - حورس - ابن ايزيس الذي كان ملكا متوجا بها » .

أما عن مراحل استبدال الامهات السماويات بأنثيات من
الجن ، فيبدو واضحا في نسب بلقيس ملكة سبا ، وأما الجنية
المشهورة « رؤاحة بنت مسكن » ، وهو اسم ما يزال يتواتر على
الشفاه في خرافات الجن المصرية . ومنهسا جنية جبل زهر
باليمن ، والجنية التي انحدر من رحمها الملك الحميري الصعب
« ذو القرنين » ، والصعب بن ذي مرثد الحميري .

بل ان العرب نسبوا لسابقيهم من القبائل العربية البائدة ،
انحدارهم من أمهات جنيات مثل قبائل جرهم ، التي قيل انها
جاءت الى الوجود من نتاج ما بين الملائكة وبنت آدم . وكذلك
قبائل جدیس وثمرود والعماليق أو العمالقة في الشام وفلسطين ،
وهو تصور ليس ببعيد طبعا عن تصور العبريين ، من ان الملائكة
هم أبناء الله « بني أيلوهم » ، أو عن عبادة العرب للجن ، وتحريمهم
لأماكن شاسعة بكاملها ، لا يقربونها ، و « الحجر » اعتقادا منهم
في ان هذه الأماكن كانت موطن الأسلاف من الجن مثل وادي
« برهوت » و « يبرين » و « صيهد » ديارا لقبائل عاد وثمرود
وطسم و جدیس و جرهم والعماليق ، وغيرهم من القبائل المندثرة .

ومن هنا جاءت فكرة اعتبار القبور والأماكن المهجورة
والخرابات بعمامة ، مواطن للجن والعفاريت . . وان تحية العربي
القديم لساكني المقابر من الجن والعفاريت ، والتي كانت اتقاء
لشرورهم هي « عموا ظلما » ، وهي ما أصبحت اليوم « مسيكم
بالخير » ومرادفاتا المختلفة ، ومنها اجابة الجنى أو الغول على
البطل الانسي : « لولا سلامك غلب كلامك ، لكنت كلتك ورميت
عضامك » وهكذا . .

وقد لا يقبل المرء بسهولة ادعاءات المستشرقين وعلماء الآرية
مثل « نولدكة » و « بنفي » تصورهما للشرق الادنى القديم ،
كمجرد معبر حضاري ثقافي ، اتخذ التراث الفولكلوري الآري -
الهندو ايراني ، الى أوروبا والعالم الجديد ، ذلك ان الكشف

السومرية العراقية الاكثر قدما من الآرية - بداية الالف الرابعة ق.م. - جاءت فأجلت الكثير من الغموض ، من ذلك مثلا ما جاء عن العفريته الشيطانة « ليليث » التي تسكن الخرائب والاماكن المهجورة ، وهي الفكرة المتواترة اليوم ، عن سكنى العفاريت الخرائب ، وهو ما كشفه وأوضحه نص القصيد السومري المعنون « جلجاميش وانكيدو والعالم الآخر » ، أو « جلجاميش وشجرة الصفصافة » .

وتبدأ هذه القصيدة هكذا : « في قديم الزمان ، كانت شجرة الصفصافة مفروسة على شاطئ الفرات ، وحدث أن هبت عليها العواصف الجنوبية ، وفاضت عليها مياه الفرات ، فأخذتها الالهة « أنانا » الى مدينتها « أرك » أو - الوركاء - ، وغرستها في بستانها المقدس ، حتى اذا كبرت الشجرة صنعت من خشبها سريرا أو كرسيا ، وعندما حاولت « أنانا » قطعها لتصنع من خشبها سريرا وكرسيا أعجزتها حية شيطانية « ليليث » اتخذت منها مسكنها ، الى أن جاء البطل الالهي جلجامش فقطع الشجرة ، وذبح الحية ، وفرت الشيطانة « ليليث » الى الاماكن الخربة المهجورة » .

وبالقطع هذه أول فكرة تاريخية أو حفريّة ، عن سكنى العفاريت الخرائب .

ومع انتقال تراث السومريين الى خلفائهم وورثتهم البابليين ، الذين عرفوا بالاكاديين نسبة الى اكدو عاصمتهم ، انتقلت فكرة الشيطانة « ليليث » اليهم ، وليليث كلمة بابلية آشورية ، ومعناها أنثى العفريت أو الريح ، كما انها ذكرت مرة أخرى في إحدى القصائد الجلجاميشية البابلية - حوالي ٢٠٠٠ ق.م. - وتحول هذا اللفظ بعد ذلك من « ليليث » الى « ليل » .. وهي ما أصبحت تظهر ليلا ، وعرفت بالجنية ليل ، تسكن الاماكن الخربة وموارد المياه ، وتظهر كخارقة ليلية يغطي الشعر كل جسدها العاري ، في الفولكلور السامي المعاش اليوم بعامة .

ويبدو ان الليليث أو ليلي أو ليل السومرية هذه - ٤ آلاف

عام ق.م. - هي نفسها التي أصبحت تصادفنا في الشعر والأغاني الشعبية - يا ليل يا عين - كما أن الليليث أو ليلي ، توجد بكثرة هائلة في الأغاني الدينية الشعبية ، المعروفة بأغاني التخمير ، والزار .

ويبدو أن العبريين كانوا قد أخذوها عن الكنعانيين الذين سبقوهم في استيطان فلسطين . فليليث في اللغة الكنعانية أو الفينيقية معناها أناثا أو أناث - ومفردها أنثى - وهي ما تتوحد مع عشترت ، خاصة في طقوس العرس المختلط .

ولقد اعتقد الملك سليمان في أن بلقيس ملكة سبأ ، ما هي إلا ليليث أي عفرينة ، نظرا لأن جسدها كان مغطى بالشعر : « فلما نظر سليمان إلى شعر ساقها ، ورأى جسمها أحسن جسم ، صرف وجهه عن ساقها للشعر » (١) . وكان أن وضع لها سليمان بعد ذلك بمعونة جنوده وأعوانه من الجن « الخلطة » التي تزيل الشعر ، وهي ما عرفه النساء بعد ذلك حين ينزعن ، أو ينتفن شعرهن بالحلوى .

أما عن فكرة توحيد حواء بالحيّة التي تتوحد بدورها بالشيطان ، فتتبدى بكثرة في أغلب أساطير الخلق السامية . وتذكر هذه الأساطير أن الحيّة إذ ذاك لم تكن على شكلها الآن ، بمعنى أن مسخا قد حدث لها ، عقب توحيدها بالشيطان إبليس ، حين وسوس لحواء - من فم الحيّة - الأكل من الشجرة الممنوعة أو المحرمة ، ويقال أنها الحنطة : « ووعدهما أن أكلا منها أن يخلدا ولا يموتا » (٢) .

ففي أغلب الأساطير والشفاهيات العربية خاصة ، يفوي الشيطان المرأة زوجة الإله أو البطل ، مثلما حدث مع زوجة نوح ، حين مكنته من تخريب الفلك ثلاث مرات ، وكذلك فقد تسلسل الشيطان إلى الفلك خلال الطوفان عن طريق زوجة نوح ، عقب زواجه منها .

(١) التيجان - وهب بن منبه ١٦٢ .

(٢) بداية القدماء ، ص ١١ .

ووردت هذه الفكرة أيضا في الاسطورة الفلاشية عن تسلي الشيطان الى جوف الحوت الخالق ، مواسلا نشر كوارثه .

وتكشف النصوص المدونة والشفاهية لاسطورة الطوفان استعانة الشيطان بزوجة نوح ، للايقاع بنوح ، وتحطيم فلكه ، وفي أحد النصوص الايرلندية التي جمعها الاستاذ « جيمس ديلارجي » مدير عام الجمعية الايرلندية للفولكلور عام ١٩٥١ يقول هذا النص : « ان بناء فلك نوح استغرق ٨١ عاما ، اذ ان الشيطان كان يدمره مرة كل سبع سنوات ، مستعينا بالزوجة » .

وفي أحد النصوص الشرقية التي جمعها ايفانيس اليوناني : « ان برها زوجة نوح أشعلت الفلك نارا عندما دخلتها » .

وفي عديد من النصوص يأخذ نوح مكان آدم ويتطابق معه ، ويروح ابليس يغري الزوجة ، ويدفعها الى أن تدفع نوح بدورها للاكل من الشجرة المحرمة ، مما يدفع الله لان يسلط عليهم الطوفان كعقاب .

وتتوالى جزئية أو فكرة غواية الشيطان للزوجة بشكل متوال في أغلب الاساطير السامية ، فالشيطان هو الذي وبسوس لامرأة لوط ، حين هجر لوط قومه وفر مهاجرا ومعه أهل بيته ، فأرسل العذاب على مدينة « سادوم وقراها الخمس » « عمره وادماء وصبويم وبالع » حين سمعت المرأة أصوات خراب المدينة فصرخت : واقوماه « وكان ان تحولت الى عمود ملح » (١) .

وفي أحد النصوص التي تتعرض لغواية الشيطان لرحمة ، امرأة ايوب ، يقول النص أنه كان لـ « ايوب بن رازح بن العيص ابن اسحاق بن ابراهيم الخليل ، زوجة اسمها رحمة ، وكان ايوب صاحب أموال عظيمة ، وكان له ملك البثنية جميعها من أعمال دمشق ، فابتلاه الله بأن اذهب أمواله حتى صار فقيرا ، وهو مع ذلك صابر على عبادته وشكره ، ثم ابتلاه الله في جسده ، حتى تجذم ودود ، فبقي مرميا على مزبلة لا يطيق أحد أن يشم رائحته ،

(١) بداية القديس ، ص ٢٠ .

فكانت زوجته تخدمه وهي صابرة على حاله ، فتراءى لها ابليس وأراها ما ذهب لهم . وقال لها : أسجدي لي لأزد مالكم اليكم ، فاستأذنت أيوب ، ففضب وحلف ليضربها مائة ، ثم أن الله تعالى عافى أيوب ورزقه وردّ الى امرأته شبابها وحسنها ، وولدت لايوب ستة وعشرين ذكرا ، ولما عوفي أيوب ، أمره الله بأن يأخذ عرجونا من النخل فيه مائة شمراخ ، فيضرب به زوجته ، ليبر في يمينه .

. وما يمكن ملاحظته في ذلك النص ، هو أن ابليس أرى الزوجة « رحمة » ما ذهب لهم ، بمعنى أنه هو الذي كان قد سلب عنهم أموالهم وعزهم .

وأصاب أيوب بالداء ، وفي مقدوره رد ما أخذ ، لو أن المرأة سجدت له .

فالعلاقة بين المرأة والشيطان تتواتر بكثرة شديدة ، خاصة في نصوص وأساطير الخلق الأولى عند عديد من ملل ونحسل الشعوب والقبائل السامية العربية .

. وما يهمننا هنا هو هذه الفكرة السومرية ، وهي فكرة توحيد الشيطانة ليليث بالحية . وليليث هي ما عرفت عند السامريين بحواء الأولى ، والتي عادت بدورها فتوحدت بالحية ، خاصة عند القبائل العبرية . ففي التوراة أن أصل الإنسان من الحية ، والحية من الجن . وترددت هذه التضمينة في عديد من أسفار الخلق والبدء عند أغلب ملل ونحل الشرق الأدنى .

فعندما قرر الله أن يهب آدم أنيساً ، طلب منه أن يسمي كل حيوان بهيم وطائر وكل مخلوق حي ، فكانت الحيوانات تمرّ به - ذكر وأنثى - فسماهم آدم واختبر نفسه مع كل أنثى منهم ، وعندما عجز صرخ باكياً : لكل مخلوق قرينة الاي . فكان أن خلق الله له الليليث أو حواء الأولى . ويقال أن الله استعمل في خلقها القاذورات والرواسب الطفيلية بدلا من مياه العمق ، أو الطين اللازب أو الصلصال الذي خلق منه آدم .

ويلاحظ طبعا ان هذا التراث الابوي القبلي ، يحطّ من قدر المرأة حتى في مادة خلقها .

وباتحاد آدم مع هذه الشيطانة ومع أخرى على شاكلتها تدعى « نعمة أو نعمة » ، ونعمة هي أخت قابيل القاتل وقرينته ، وينسب لها نشر ما لا يعد ولا يحصى من الشياطين والجن التي هي آفة ووباء الجنس البشري ، ومنها الجنون ، المشتق لفظيا من الجن .

وقد تعثر عند الجاحظ (١) على تفسير لتوضيح تلك العلاقة اللغوية الاشتقاقية بين الاسم « نعمة » أو الجنية نعمة ، التي تشارك الليليث في خنق الاطفال الحديثي الولادة ، والاضرار بهم ، وبين طائر النعمة . فمن أمثال العرب وقبولهم : « أشرد من نعمة » . . ذلك لتخلي النعمة عن بيضها وأولادها ، عند رؤيتها الطعام . . ومن أمثالهم : « أحقق من نعمة - وأجنّ من نعمة » ، و « مثل النعمة لا طير ولا جمل » و « من يركب نعمة في الحلم نكح خصيا » . . الخ . كما ان اسم نعمة كان من أسماء أو ألقاب الهة الجنس عشترت .

وتنسب الاساطير لهاتين الانثيين أو الجنيتين ليليث ونعمة ، انهما هما اللتان جاءتا الى كرسي عدالة الملك سليمان ، متنكرتين في هيئة زانيات اورشليم .

فاذا ما كانت الحية قد توحدت صراحة بالشيطان حين تسلل ابليس الى الجنة داخل الحية ، والحية هي التي أغرت حواء بالاكل من شجرة المعرفة أو الشجرة المحرمة أو شجرة التين فكان أن استجاب آدم باغراء من حواء .

وعلى هذا فان الثلاثة : الحية والشيطان والمرأة ، ما هم الا وجها واحدا لنفس البطل .

وتتركز الاسطورة التي أوردها الطبري في ان « ابليس عرض

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ، ج ١ - ١٨٧ .

الدميري ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

نفسه على دواب الارض في أن تحمله لكي تدخله الجنة ، بعد أن منعه رب الجنة من دخولها ، فكل الدواب رفضت ذلك ، حتى كلم الحية فقال لها : ان أنت أدخلتني الجنة ، أحملك من ابن آدم ، وتصبحين في ذمتي . وكانت الحية دابة لها أربع قوائم كأنها البعير ، فجعلته بين نابين من أنيابها ، ثم دخلت به ، فكلم ابليس حواء فكانت الخطيئة الاولى ، وعقابها المعروف وهو الطرد من الفردوس ، وادماء حواء الشهري المتمثل في الحيض ، وذلك العداء الرباعي الابددي بين الرجل والمرأة والحية والشيطان : اهبطوا بعضكم لبعض عدو « (١) .

ويقال ان ابليس (٢) دعا الله قائلا : « يا رب أخرجتني من الجنة من أجل آدم ، زدني . قال الله : لا يولد له ولد الا ولد لك مثله . قال : زدني . قال : صدورهم مساكن لك ، وتجري منهم مجرى الدم . قال : زدني . قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الاموال والاولاد » .

وترى بعض أساطير الخلق - العبرية - ان أول صراع نشب بين آدم وحواء ، جاء بسبب استياء حواء من وضع المضاجعة « لما حتم على الاضطجاع الى جانبك » . وعندما حاول آدم ارغامها ، نطق باسم الله الخفي أو التابو - وكانت على معرفة به - وانفلتت طائفة في الهواء ، فأقامت الى جوار البحر الاحمر ، في اقليم تتكاثر فيه الشهوات الشيطانية ، وهناك أنجبت آلاف الابناء من الشياطين .

وعندما شكَا آدم حواء أو ليليث الى الله : لقد هجرتني زوجتي ، لحمي « وأرسل الله الملائكة في طلبها والبحث عنها ، وعندما هددها الملائكة بالموت ، قالت لهم : كيف لي أن أموت وقد وكلني الله برعاية الاطفال المولودين ، الذكور منهم حتى يومهم الثامن ، والاناث حتى العشرين » .

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، ص ١٠٦ - ج ١ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير ، ج ١ ص ١٨٢ .

وبينما راحت الليليث وأختها نعمة تخطف الاطفال المولودين
وتخنقهم ، عاقبهما الله بقتل مائة من أطفالهما يوميا .

الا ان الجنيتين راحتا تخنقان الاطفال وتفويان الرجال
النائمين - الفرادى - وتضاجعانهم ، وبعد ذلك يقتلهم بمص
دمائهم ونهش أجسادهم . ولعل في هذا اول تصور عن
النداهات (١) ، وترجع بذوره الاولى الى الالف الثانية ق.م. عند
الكنعانيين الشوام .

ومن أساطير الخلق الاولى ، اكتملت المعتقدات التي ما تزال
شائعة ، حول اضرار العفاريت والارواح الخفية بالاطفال الحديثي
الولادة ، فكان من المتبع رسم دائرة سوداء على حائط حجرة
العرس ، يكتب داخلها : « آدم وحواء ، اغربي يا ليليث » . أما
عندما تتمكن الليليث من الاقتراب من الطفل الوليد ، وتشغف به
حبا ، فلا بد من أن يضحك الطفل في نومه . ولتجنب الخطر ،
ينبه الطفل بوضع أصبعه بين شفتيه ، حيث تدختفي العفريته ،
وهو ما شاع كثيرا في تماثيل وتمائم الاله الطفل في كلا الترائين
الهيني والروماني ، ووجد من آثاره ملايين التمايم .

كما انهم اعتقدوا في ان الطهور هو الحماية الحقيقية للطفل
من العفاريت .

وكان من المعتقد « ان العفاريت تسكن الصحراء الادومية
بسوريا ، مخلفة الرعب والجوع والبوم والغربان وأبناء آوى
والحيات والجداءات ، والنعام الذي اشتق اسمه من اسم نعمة » .

وكانت ملل ونحل الكلدانيين الحرائين فيما بين النهرين ،
وكذلك المانوية والديسانية - نسبة الى ابن ماني وابن ديسان -
وما تفرع من هذه الملل من فرق ، مثل المهرية والمقلاصية وغيرهما ،
يرسمون دوائر ثلاث فوق رأس الطفل حديث المولد ، يكتبون على

(١) برغم الفكرة أو المقولة العصرية التي هالج بها د. يوسف ادريس قصته
الرائعة « النداهة » ، الا انه كان مدركا لبعدها الخرافي الاسطوري .

الاولى اسم ملك الجان ، وعلى الثانية اسم الانسان القديم ، وعلى
الثالثة اسم روح الحياة (١) .

وقد ارتبطت هذه الشعائر عند تلك الملل الكثيرة المتلاطمة ،
بأساطيرهم وأفكارهم الاولى عن الخلق ، والصراع بين آدم وبين
الشیطان ، أو الصنديد الذي « علم حواء » رطانة السحر ، لتسحر
آدم وتسلبه اطفاله ، فكان آدم يتضرع الى الله : ما ذنب المولود ؟
ومعتقد الخوف على حياة الاطفال حديثي الولادة ، وأمہاتهم
النفساوات ، منتشرة بكثرة في فولكلور شعوب العالم القديم ،
وكان العبريون اليهود والرومان والجرمان ، يعتقدون في مقدرة
« روح الحديد » على طرد هذه الارواح الشريرة ، فيذكر المؤرخ
« بيليني » ان الرومان اعتقدوا في قدرة الحديد على طرد
الشياطين ، كما ذكر الاخوان جريم : « ان الجرمان كانوا مؤمنين
بالدم والحديد في طرد الارواح الشريرة » .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، وحد « هيرونيμος » بين
الليليث السامية واللاميا اليونانية ، واللاميا أميرة ليبية هجرها
الاله زيوس بعد أن سرفت أطفال زوجته هيرا ، فكان أن واصلت
انتقاماتها بسرقة أزواج الآخرين من زوجاتهم . واللاميا تغوي
الرجال - الفرادی - فتمتص دماءهم وتلتهم لحمهم - وهي ما
أصبحت في تراثنا الفولكلوري النداهة والسلعوة - . وفي الرسوم
الحائطية الهلينية صورت اللاميا وهي تفترس أحد المسافرين وهو
مضطجع على ظهره . . مثلها في هذا مثل سابقها الرسوم الحائطية
الكنعانية ، التي ترجع الى ما قبل القرن الرابع عشر ق.م والتي
تصور الالهة العارية اناثا - اي الانثى أو الليليث - طائرة في
الهواء ، لامسة مقبلة عشيقها النائم الاله « موت » ، وفي صورة
أخرى يبدو « موت » - أو آدم الكنعاني - يحفر تحت الضلع
الخامس ، بما يشير الى خلق حواء من ضلع الرجل (٢) .

(١) مئات الملل والنحل ، أوردها بدقة العالم الموسوعي الكبير ابن السديم ،

في موسوعته الرائدة « الفهرست » ، ص ٣٤٠ .

2 — Syrian stone-Lore. p. 83 .

فخلق حواء من ضلع الرجل ، اسطسورة مستقرة منتشرة
بكثرة على طول الشرق الاوسط ، تؤكد سيادة الرجل الذكر ، منكرة
قدسية حواء ، منقصة من مساواتها بالرجل ، موحدة بين المرأة
والحية والشیطان والجنیة .

وكان الكلدانيون فلاسفة وكهنة حران يقولون بأن للجن الها ،
يضحون له بنحر الخرفان ، ويطبخون ماء يستحمون به سرا
لرئيس الجن ، وهو الاله الاعظم ، كما كان من عاداتهم التضحية
بصبي طفل حين يولد . يذبح الصبي ، ثم يلصق حتى يهترىء ،
ويؤخذ لحمه فيعجن بدقيق السميد وزعفران وسنبل وقرنفل
وزيت ، ويعمل منه أقراص صفار مثل التين ، يخبز في تنسور
جديد ، ويكون لاهل السر في الشمال ، ولا تأكل منه امرأة
ولا ابن امه ولا مجنون .

وكان من منفراتهم (١) ، أي اتيانهم الامور المنفرة للجن
— وتعرف بالمنفرات عند الساميين بعامة — انهم يعلقون الجناح
الايسر للفراخ على صدور الاطفال والحوامل ، لاتقاء اليليث والجن .

كما كان من بين هذه المنفرات — التي ما تزال تتواتر حولنا
— عند بقايا هذه الاقوام المنحدرة من العرب الجاهليين — استعمال
عظام الموتى أو خرق الحيض (٢) ، أو اعتقادهم في سن الثعالب ،
وحلق الرأس بالموسى ، وتغيير الاسماء . فيذكر عن اعرابي انه
قال : « لما ولدت قيل لابي نفرعنه ، فسماني قنفذا وكناني
أبا العداء » (٣) .

وعن ابن عباس قال : « كانت حواء تلد لآدم فتعبد لهم ، أي
تسميهم عبد الله وعبد الرحمن ، ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت .
فأتاها ابليس فقال لها : لو سميتما لغير هذه الاسماء ، لعاش

1 — Religion of the Semites-Cook .

(٢) الفهرست : ص ٣٢٣ . بلوغ الارب : ٢ — ٣٢٥ . تاج العروس : ٣ — ٥٧٩ .

(٣) بلوغ الارب : ٢ — ٣١٩ وما بعدها . اللسان : ٨ — ٨٥ . تاج العروس :

٣ — ٥٧٩ .

ولدكما . فولدت حواء ولدا فسمته عبد الحرث ، وهو اسم ابليس . »

ويورد ابن النديم ، ان مصر وبابل أكثر من هذه المنفريات قائلا : « فأما السحرة فزعمت انها تستعبد الشياطين والجن بالسحر والقرايين وارتكاب المعاصي والمحظورات واستمالتها بترك الصلاة والصوم ، وإباحات الدماء ، ونكاح ذوات المحرم ، وغير ذلك من الافعال الشريرة ، وهذا الشأن شائع ببلاد مصر وبابل . »

وأضاف : « وقال لي من رأى السحرة بأرض مصر ، وبها بقايا ساحرين وساحرات ، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة ان لهم خواتيم وعزائم ورقى وصنادل وغير ذلك . »

وكانت خرافات الفيلان منتشرة بكثرة شديدة في الجزيرة العربية ، وينسب لكائن خرافي يسمى « تأبط شرا » انه قتل غولة بضربة واحدة من سيفه فقتلها ، وان الغولة عندما ضربها أول ضربة، طلبت منه أن يضربها ثانية ، لكنه رفض . وهي تلك التضمينية الاسطورية المعروفة في خرافات الجان ، والتي مؤداها ان « ضربة الرجال ما تتناش » .

وممن تزوج بالجن من العرب عمر بن يربوع بن حنظة التميمي ، وجذع بن سنان ، وعمرو ذي الاذعار بن أبرهة ذي المنار وأمه الجنية العيوف ابنة الرائع .

بل ان قبائل بأسرها انتسبت الى الجن (١) مثل بني مالك ، وبني شيصيان ، وبني يربوع ، الذين تسموا ببني السعلاة - أي السلعوة - كما ترجع أساطير الخلق والبدء الحبشية نسبها بكامله الى الحية والحية تتوحد مع الجن .

كما ان قبائل بكاملها عبدت الجن ، مثل رهط طلحة الطالجات من خزاعة ، ولقد اعتقدوا في ان للجن عشائر وقبائل ، تربط بينها صلة الرحم كما هو حادث عند بني الانس القدماء .

(١) الاصنام - ص ٣٤ .

ولقد كتبت مؤلفات بكاملها في هذا المعنى ، نسبة لابن هلال ، وابن الامام ، وابو خالد الخراساني ، وابن أبي رصاصة ، ولوهق بن عرج ، وله مؤلفات عن طبائع الجن ومواليهم ، و « آريوس الرومي » وكان من علماء الروم بالعزائم ، وله من الكتب كتاب يذكر فيه أولاد ابليس وتفرقهم في البلاد ، وما يختص به كل جنس منهم في العلل والارواح ، كما ان منهم ابن وحشية الكلداني وكتبه عن السحر والجن على مذاهب الانباط والكلدانيين والحرانيين وغيرهم .

ويرى ابن الكلبي ان ابليس (١) أنجب خمسة ، منهم ثلاثة قبائل أو أسباط ، تنزع السى الشر : « الثبر » و « زلفيون » و « دامس » ، فالثبر هو صاحب المصائب والكوارث ، وزلفيون هو المنوط بالاندساس بين الناس والايقاع بهم ، أما دامس أو الامور ، فهو صاحب الزنا وهتك الاعراض والاباحات ، كما ان منهم « مسوط » وسمي صاحب الراية ، ينصبها وسط الاسواق ، ويروح ينشر بين الناس الخصومات والجدال والمنازعات .

كذلك فلا نهاية لمن عشق الجن من الانس ، وخاواها في العلن والخفاء .

كما ان حروبا طويلة دامية ، وقعت بين قبائل الجن وقبائل الانس من العرب ، منها حروب بني سهم ، الذين كانوا قد قتلوا ابن امرأة من الجن ، عقب حجه وطوافه بالبيت ، فوقعبت الواقعة بين قبيلة الجني المتوفي وبني سهم ، وقتل الجن من بني سهم خلقا كثيرين ، وكان أن نهضت بني سهم وحلفاؤها ومواليهم وعبيدها ، وركبوا رؤوس الجبال وشعابها ، فما تركوا حية ولا عقربا ولا عضاضة ولا خنفساء ولا هامة تدب على الارض ، الا قتلوها ، حتى ضجت الجن ، فصاح ضائحهم يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم ، فتوسطت قريش وانتهى النزاع بين بني سهم والجن (٢) .

(١) الملل والنحل - للشهرستاني .

(٢) الاثرقي : ٢ - ١١ وما بعدها . المحبر : ص ٢٩٥ .

وكان كلما أوقعت الجن ببشري بعد ذلك ، خاطبها قائلاً :
« يا معشر الجن ، أنا رجل من بني سهل ، وبيننا وبينكم عهد
وميثاق » . فتعرفه الجن وتهابه .

وكانت نحل وشيع الحابطين ، أصحاب أحمد بن حابط
بنواحي البصرة ، وأحمد بن نانوس ، وأيوب بن نانوس - الذي
أباح النكاح - كانت هذه الفرق والشييع تقول بأن « الله نبأ أنبياءه
من كل نوع من أنواع الحيوان ، حتى البق والبراغيث والقمل ،
مستندين الى قول الله ، وما من دابة في الارض ولا طائر يطير
بجناحيه الا أمم أمثالكم » .

والربط بين الجن والحيوانات والهوام والاشجار ، يشير
مباشرة الى انحدارها من الطوطمية ، وهو ما كنته القبائل السامية
خاصة أصحاب الوبر ، من عرب وعبريين ، فكانوا يتسمون باسم
الحيوان ، ويحرمون التلفظ باسمه ، ومن هنا جاءت المترادفات
المتعددة للحيوان الواحد . « وذكر المستشرق هيرد ان لدى العرب
خمسین كلمة للدلالة على الاسد ، ومائتين للشعبان ، وثمان للعسل ،
واكثر من ألف للسيف » (١) .

وكانت القبيلة وأسلافها والارض التي تعيش عليها ، وما
يتحكم فيها من عوامل مناخية واجتماعية وحدة تنحدر من الطوطم
السلف الاب ، سواء اكان حية أو نعامة أو حمامة أو كلبا أو جملا
أو جرادا أو ديدانا أو بيضة أو حوتا . وعلى هذا اختلفت كل
قبيلة أساطيرها ، ووجدت بالتالي بين الطوطم والخالق ، مثل
كوزولوجي أو أسطورة الخلق عند الرشييين (٢) ، القائلين بفكرة
الرحم الخالق (ويمكن ملاحظة العلاقة اللفظية الاشتقاقية بين ذلك
الرحم الخالق ، وبين الرحمة والرحمن والرحيم والراحم والمرحوم
... الخ) .

(١) الاشتراكية والفن ، ص ٤٢ . كما يذكر الدميري : ان للأسد مائة وثلاثين
اسما ، منها : أسامة ، والغصنفر ، والليث ، والورد ، وأبو العباس ،
وأبو الخارث .

(٢) الفهرست - ص ٤٥ .

وهم الذين زعموا « ان في جوف الماء الريح ، وفي الريح الرحم ، وفي الرحم المشيمة ، وفي المشيمة بيضة ، وفي البيضة الماء الحي ، وفي الماء الحي ابن الاحياء العظيمة ، الذي ارتفع الى العلو فخلق البريات والاشياء والسماوات والارض الالهة » (١) .

وكذلك أساطير خلق المفتسلة سكان البطائح ، والكشطين ، والمنسطوريين ، والصامية ، والفولية ، والادومية أو الادوميين الذين منهم اشتق اسم آدم أبو البشر .

وكانت أسطورة الخلق القريشية - فيما قبل الاسلام - وقريش كان طوطمها الحوت ، تقول : « ان الله خلق الارض على حوت ، والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاء على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح » . ويقال انها هي الصخرة التي ذكرها الحكيم لقمان ، ليست في السماء ولا في الارض ، فتحرك الحوت ، فاضطربت ، وتزلزلت الارض ، فأرسي عليها الجبال .

وفي احدى خرافات ذي القرنين التي يوردها وهب بن منبه : « ان ذا القرنين أتى على جبل قاف قال : فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك ؟ فقال جبل قاف : هي عروقي ، فاذا أراد الله أن يزلزل أرضا أمرني فحركت عرقا من عروقي فتزلزلت الارض المتصلة به » (٢) .

وفي خرافة قريشية متأخرة ، كان لها السيادة فيما بعد : « ان ابليس تغفل الى الحوت الذي على ظهره الارض ، فوسوس اليه ، وقال له : أتدري ما على ظهرك يا لوتيا من الامم والدواب والشجر والجبال وغيرها ، انك لو نفضتها أو ألقيتها عن ظهرك ، لكان ذلك أريح لك » .

ويرى رفائيل بتاي ان العبريين استعاروا افكارهم عن الحيتان والحيوانات البهيمية ذات الجثث الهائلة ، من العرب الاوائل

(١) الشهرستاني - ص ٢١١ .

(٢) التيجان - ٣١١ .

— أو البائدة — وهو ما كان يطلق عليه العرب تعفون — أو التعفن — ومنها بعل تعفسون ، وهو ما يشير الى البهيمية ، وصراعات الحيوانات الخارقة الوحشية ، مثل الشيران والبقر الوحشي والحيتان .

ووردت هذه الخوارق البهيمية في الميثولوجي الفرعوني ، فذكر الرحالة المؤرخون « هردوت وديودورو الصقلي وبليني » الحيتان والتماسيح وفرس النهر ، فكانت تلك الحيوانات الوحشية مقدسة في مصر للاله ست عدو أوزوريس ومغتصب عرشه (١) .

كما وردت هذه الخوارق البهيمية في الميثولوجي البابلي ومنها الحوت متعدد الرأس والاله ذو الرؤوس السبعة بمثابة الصولجان السومري ، منذ الالف الخامسة قبل الميلاد .

وبحسب ما ذكره هردوت وديودورو الصقلي ، فقد « أكل فقراء الشرق الاوسط عامة ، لحم الحيتان وفرس النهر والبهائم الوحشية ، خلال اعيادهم الموسمية ، احتفالا بأكل اللحم » .

وطبعا كان الحيوان الطوطم ، يدافع عن القبيلة ويحميها ، مثل هدهد سليمان وبلقيس ، وحادث تلصصهما أو تجسسهما على أحدهما الآخر ، وأيضا ضباع قبائل الضبعيين والكلبيين وكذلك بنو هلال أو الهلالية — أصحاب سيرة بني هلال — وبنو عبد شمس ونسر وغيرهم وهو ما أصبحت شعائريهم — الطوطمية — مثل الهلال والنسر ، رمزا موحدًا للعالم الاسلامي فيما بعد ، مثلما أصبحت نجمة داود المسدسة شعارا موحدًا للقبائل العبرية .

يقول المسعودي : « وقد زعموا ان الحيوان الناطق ثلاثة اجناس : ناس وبنتناس ونسناس ، وقالوا ان وجوههم على نصف وجوه الناس » .

وتركز الميثولوجيا السامية بشكل مجمل ، على ان خطيئة ابليس الاولى ، تمثلت في استكباره للمادة التي خلق منها ، وهي

1. — Semitic Mythology. N. Y.

النار ، على المادة التي خلق منها آدم ، وهي الطين أو التراب ، هذه أول شبهة أو خطيئة وقعت في الخليقة .

وفي إحدى الروايات : « ان ابليس كان له ملك سماء الدنيا ، وكان ينحدر من قبيلة من الملائكة ، يقال لهم الجن ، وسموا الجن لانهم خزان الجنة » .

ويبدو ان الصراع كان ملتهبا بين مادتي النار والطين ، أو بين الملائكة والبشر ، اذ ان الله « خلق خلقا - من الملائكة - وقال اسجدوا لآدم ، فقالوا لا نفعل ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق خلقا آخر ، بشرا من طين ، وطلب من الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فأبوا ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم » .

ومعنى هذا انه كان هناك اعتقاد اكيد في ان « طينة » الجن أرفع منزلة من تلك التي صيغ منها الانسان القديم ، وعلى هذا فقد عبدوا الجن ، وأحلّوهم محل الآلهة منذ فترات مبكرة جدا ، كما يرى فريزر (١) الذي أورد حكاية « من مصدر عربي عن حادث موت ملك الجن (١٠٤ - ١٠٦٣ ق.م.) وانهم كانوا يندبونهم - على طول الشرق الاوسط - من تركيا حتى ايران وبغداد ، يضربون بالدفوف وينوحون ويشقون ملابسهم ، مهيلين على رؤوسهم الطين والرغام » .

الفصل الثامن

حكايات فولكلورية سودانية ومصرية

مجموعة حكايات فولكلورية سودانية ، جمعها الدكتور الاستاذ **مراد كامل** ، ونشرها في كتاب تحت اسم « قصص سودانية » . بعض هذه الحكايات الشفاهية ، يمكن تصنيفه تحت ما يعرف بحكايات الجان أو الحكايات الخرافية ، وبعضها الآخر من نوع حكايات الحيوانات ، وبعضها الثالث قد يكون بقايا أساطير ، أو أساطير مهشمة أو « أشلاء أساطير » كما سبق أن لاحظ الاخوان جريمي .

ورغم ان د. مراد كامل قد أعاد صياغة هذه الحكايات الشفاهية السودانية ، ونشرها في شكلها الادبي ، الا انه بدا واعيا ومدركا في محافظته الدقيقة الرصينة على أدنى مقولاتها وحدثها وتضميناتها ، كحكايات فولكلورية ، قابلة للتجزئة والانقسام الى سلسلة متتابعة من الافكار والجزئيات ، ربما يسمح لها بالمقارنة مع نظيراتها من حكايات مشابهة أو مشتركة في النمط أو الانموذج .

والذي استوقفني بالنسبة لهذه الحكايات هو عثوري على نفس هذه الحكايات والحواديت ، بكاملها ، في حكاياتنا وحواديتنا الشفاهية المصرية ، فما من حكاية مفردة لا تتفق أو تتوحد مع نظيرتها المصرية . وهذا يعني مدى الالتقاء غير العادي بالنسبة

لتراثي الحكايات الفولكلورية السودانية والمصرية بأنماطها ونماذجها
بل وحتى تضميناتها وأدنى جزئياتها .

وليس هذا بغريب بالنسبة للأسس والقوانين التي أمكن لعلم
الفولكلور ارساؤها منذ مطلع هذا القرن ، بل الغريب هو أن يحدث
العكس فيحل التنافر والمخالفة محل التطابق والتوحد ، بالنسبة
لتراثي الشعبين المصري وشقيقه السوداني .

ومرجع هذا التطابق أو التوحد للتراثين المصري والسوداني
— بالنسبة للحكايات الشعبية — هو الالتقاءات والاتصالات ، من
تاريخية وجنسية ومكانية ولغوية بين السودان ومصر .

وتصل علوم ما قبل التاريخ ، بالعلاقة التاريخية لمصر القديمة
بالسودان ، الى ما قبل عهد الاسرات ، فعن طريق السودان ،
كانت تصل الى مصر حاصلات بلاد بنط من بخور وعطور ووبر ،
وكانت هذه الحاصلات ، جزءا حيويا ، من أخص خصائص المعبد
الفرعوني وشعائره الدينية ، مما يؤكد نص حدود مصرية
وسودانية ، من بين هذه المجموعة من الحكايات والحواديت المصرية
السودانية المشتركة .

ولقد تدعمت العلاقة بين الدولتين ، منذ الدولة الوسطى
٢٠٠٠ ق.م . ، حين بدأ ملوك الأسرة الثانية عشرة ، يسيرون
حملات الى السودان ، حتى تمكنوا من دخوله ، ونشر ديانة
آمون ، وأقاموا قلاعا ومعابد « بوهين ودابنارتي ومرجيسيا
وشفلك وسمنة وأورونارتي الخ . » وأيضا مسلات سيزوستريس
الثالث — ١٨٧٩ ق.م — ولوحة سنوسرت الثالث : « هذه حدودي
الجنوبية وكل من يحافظ على هذه الحدود الجنوبية ، فهو ولدي
ومن صليبي ، الابن الذي يجمي أباه » . كما ان كهنة آمون ، كانوا
يقيمون في السودان ، بالإضافة الى أعداد كبيرة من المهاجرين
المصريين ، من حرفيين ورسامين وخطاطين وصناع وكهنة
ومحنطين .

ولقد لعب السودانيون ، دورهم الشقيق في معاونة المصريين
في طرد الهكسوس ، خاصة قبائل البجة والكوشيون — منهم

النوبيون - ويرى سلجمان ان البجة والمصريين من سلالة واحدة .

وكان الملك كشتا أول من عرف من الملوك السودانيين ،
واتسع سلطانه حتى تعدى الاقصر ، ولما مات خلفه ابنه الملك
بعانخي في حكم السودان ومصر ، ولما مات بعانخي هذا ، خلفه
أخوه وزوج ابنته شبكة عام ٧٠٠ ق.م ، وهو الذي نقل عاصمة
ملكه الى الاقصر ، وحارب الاشوريين ، وابنسه ترهاقا صاحب
الحروب المتصلة في غرب آسيا ، وهو الذي هزم سنحاريب ملك
آشور ، وغزا اورشليم ، واستولى على بيت المقدس .

ويعرف هؤلاء الملوك السودانيون الاوائل ، بملوك نبتة العظام .
وهم الذين جلبوا الصناعات والفنانين والمعلمين المصريين ، وساعدوا
على نقل المؤثرات الحضارية والشعائرية المصرية الى السودان ،
وتبدى هذا في عادات دفن الموتى والفن والعمارة ، الى جانب
الكتابة الهيروغليفية .

وخرج ملوك السودان او ملوك نبتة ، مرارا ، لصد هجمات
القرى وغيرهم من القبائل الليبية والسامية المقيمة على مصر .

وطبعا فان هذه الاتصالات المصرية السودانية المبكرة ، حملت
مع ما حملت التراث الشفهي والعقائسي لكلتا الدولتين . ويرى
البعض ومنهم سلجمان ان الختان الفرعوني ما يزال هو السائد في
السودان ، كما أكدته المقريري بقوله : « وأما النساء فمقطوع اشفار
فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج » ، وهو الختان
الذي ما يزال ساريا في قرانا المصرية خاصة الصعيد الاعلى ، حتى
اليوم . كما ان كثيرا من القبائل والبطون العربية قبل الاسلام ،
كانت دائمة الهجرة الى مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ
السويس ، مواصلة صعودها الى الجنوب ، فالصلات بين شمال
الوادي وجنوبه كانت دائمة الحركة موثقة سواء من ناحية الجنس
والسلالة ، او من الناحية الثقافية التقليدية ، او من ناحية التراث
الابداعي الجماعي الشعبي ، وسواء على طول عصور مصر الفرعونية ،
او البطلمية والرومانية والقبطية والاسلامية وأخيرا المعاصرة
او الحديثة ، منها مثلا توقيت قيام الثورة العربية في مصر عام

١٨٨١ ونظيرتها الدعوة المهدية في السودان في نفس السنة ..
وهكذا .

وقبل الانتقال والتعرض للموضوع الذي نحن بصدده ، أود أن أشير الى النقص الكبير الذي تعانيه حركة دراسة الفولكلور والاساطير ، وتخلفها المجدب الشديد في عالمنا العربي ، وهو التراث الذي يحفظ له العالم أجمع ثراءه الهائل والذي لا تدانيه أصالة تراث أي منطقة من مناطق حضارات وتراث العالم القديم ، هذا على الرغم من الصعوبات والمشاكل التي تحبط وتعثر المتصدي لدراسته نظرا لتعدد المصادر وكثرتها وتداخلها وتجدد النزاع القبلي على ملكيتها ، من ذلك مثلا انه كان في الجزيرة العربية واليمن والشام وفلسطين ، آلاف مؤلفة من تراث القبائل والملل والنحل حتى الفترة المتأخرة التي لا تتعدى القرون الستة بين المسيحية والاسلام .

ومن ذلك أيضا متاخمة الشرق الأدنى لحضارتين مبكرتين هما الهند وفارس اللتين واصلتا تسريب تراثيهما اليه بشكل مخصب متواصل ، مما دفع ببعض دارسي هذا العلم ، الى اعتبار تراث الشرق الأدنى القديم ، وبرغم ثرائه وعراقته « تراث غير مكتمل الشخصية » .

وحتى فترة قريبة ، كان هناك شبه اجماع من جانب جينل الفولكلوريين الاكاديميين والمستشرقين منهم : بنفي ونولدكسه والبارون دي ساسي وكيث فالكونر ، على القبول بأنهم - أي الاوروبيون - تعرفوا على قصة لبع التراث الاوروبي في الهند ، وكان من نتيجة هذا مثابرة طويلة على جمع ودراسة لاهوت واساطير وحكايات وخرافات وفوازير الهند .

ونشبت معارك طويلة ، حول ما قال به المستشرق تيودور بنفي ، وعالما الفولكلور والاساطير الفنلنديان آرنه وكارل كرون « من أن أصول حكايات وخرافات كل العالم مصدرها الهند » .. وطبعاً لقيت هذه النظرية معارضة شديدة خصوصاً من بعض

أصحاب ما يعرف بالمنهج المقارن للبحث والتقصي عن المصادر الأولى
الأم للمأثورات الشعبية ، مثل مانهاردت ويوسف بديسه
وثومبسون .

فيرى ثومبسون أن دور الشرق الأدنى ، تتعاضد أهميته في
السنوات الأخيرة نظراً لكونه المعبر الأساسي الذي عن طريقه
تسربت كل الكلاسيكيات الهندية من الشرق إلى الغرب ، ويمكن
التعرف على ما اعتري التراث الهندي من تغيرات وإضافات ،
خلال الزمان والمكان ، مثل « البانشاتانترا » أي الأسفار أو الكتب
الخمس وما طرأ عليها من تغيرات وتحولات ، وهي تأخذ طريقها
من الهند إلى الفرس والعرب والسريانيين العبريين اليونانيين ،
إلى أن وصلت سريانها في تراث وآداب الشعوب اللاتينية قسماً
العصور الوسطى . وينطبق هذا على « الجاكا » أو الحكم السبع ،
ومرادفاتهما في محيط القصة .

ويضيف الأستاذ ثومبسون : هذا إلى جانب القيمة العظيمة
لتراث الشرق الأدنى الفولكلوري في حد ذاته المدون والشفاهي
« وحيث تروى الحكايات الشعبية ، بشكل دائم ، كجزء من النشاط
اليومي المتواصل للأسواق والبازارات » .

كما أن على رأس مصاعب وتعثر التصدي لدراسة تراث
الشرق الأدنى بأساطيره وفولكلوره ، تقف صعوبات أولها ندرة
الحصول على موارده المتواترة ، بما يحقق تراكم أكبر كمية كافية
أو ممكنة ، قابلة للمقارنة من أنماط الحكاية أو الملحمة أو السيرة
أو العادة الطقسية محل البحث .

لذا فإن محاولات الدراسة تعدّ إلى الآن محاولات شبه
عقيمة والأكثر عقماً وأخطاراً ، هو عدم تخطي المحاولة الجادة للتعرف على
أنفسنا وأصول شعوبنا ومكوناتها وخبائرها ، عن طريق هذه العلوم
الشابة التي حققت الكثير ، أخيراً زرع واستنبتت فضيلة
التسامح .

وإذا ما عدنا إلى موضوعنا الخاص بمجموعة الحكايات

والاحداثات السودانية التي تنبه لاهمية جمعها من بعض مناطق السودان د. مراد كامل ، وما يطابقها في حواديتنا المصرية ، أسجل ان هذه المحاولة الدراسية ، هي أيضا غير مكتملة ، نظرا لقلة النصوص المتعددة ، للجزئية الواحدة ، وحتى يمكن التوصل الى نتائج أكثر دقة . وسأضرب مثالا لتوضيح أهمية التشدد على تعدد مرادفات المادة أو الحكاية أو الملحمة موضوع البحث ، والمثال هو الجمعية الادبية الفنلندية التي أنشئت في هلسنكي عام ١٨٣١ ، والتي تعد أقدم جمعية فولكلورية في العالم . فعندما احتفلت هذه الجمعية بالعيد المئوي لنشر احدي ملاحمهم القومية عام ١٩٣٥ ، وهي ملحمة « كالافالا » ، وصل عدد التسجيلات والتدوينات من متنوعات هذه الملحمة من كل أنحاء اسكندينايفيا الى ١٣٠ ألف تسجيل فولكلوري . .

وكان أن بدأت بعد ذلك مرحلة الدراسة العلمية اليقينية لهذه الملحمة .

واذا ما بدانا بتناول واحدة من هذه الحواديت أو الحكايات السودانية ، التي جمعها د. مراد كامل ، ونظيرتها الشفاهية المصرية ، وهي حدوتة تدور حول ملك واسع الجاه والثراء تحفظ له الذاكرة الشعبية في كلا النصين المصري والسوداني ، اسمه « الملك الاسد » . وفي تقديري ان ما بقي من حكايات وحواديت الملك الاسد هذا ، يشير الى انها بقايا سيرة ، تدور حول حياة هذا الملك ، مثلها في هذا مثل الحكايات المتبقية من البقايا الشفاهية لسير الملك معروف ، وسيف بن ذي يزن ، وحسان الغالبة ، والملك الشاطر حجازي ووزيره البين . . وسير التباعدة ملوك اليمن ، في حكاياتنا المصرية .

وملخص الحكاية السودانية عن الملك الاسد هو انه اشترى حمولة عشرين سفينة من « الزباد » - أو العصفور في الحدوتة المصرية - وطلا به جدران قصره ، ليطيب أريجها وينشر رائحته الزكية في أرجائه ، وكان هذا الفعل الذي أقدم عليه الملك الاسد ، بمثابة زلته أو سقطته ، التي بمقتضاها زالت عنه نعمته وذهب

جأه فأصبح « خاوي الوفاض لا ينضم مقره على شيء مما حوى ،
فقد ابتلع اليم سفنه بما تحمل ، وانطوت رمال الصحراء على
قافلته بذهبها وأحجارها الكريمة ، وضافت الدنيا في وجهه ،
وسدت أمامه السبل ، واستحال الناس - شعبه - يكلون له
اللغات بعد أن كانوا السنة حمد وثناء ، فهجر الأهل والوطن ،
وأخذ يضرب في الأرض على غير هدى » . وكان أن عبر إلى مملكة
أخرى ، وعمل صبيا في حانوت حلاق ، يعمل ليعيش .

وتتوالى الحكاية ، حتى يصل إلى حانوت الحلاق ابن الملك
الذي كان قد سبق أن شهد مجده وثرأه ، حين باع له الزبد
أو العصفر ، فرآه وقد بالت عليه حمارته . فعرفه ابن الملك ،
ودفع لصاحب الحانوت دينه وأخذه إلى قصره . وساعده بعد ذلك
في استعادة سلطانه ومجده ، إلى أن عاد « ذابل الأمس في يده
يانعا ، ويأبسه مخضرا » . وهكذا ينتهي النص السوداني .

ولقد جمعت من حواديث الملك الأسد ، أربعة نصوص ، منها
هذا النص المصري الذي يبدأ هكذا :

« كان الملك الأسد أغنى ملك في الدنيا ، ومكنش فيه في مملكته لا بيع
ولا شرا ولا مقايضة ، واللي محتاج حاجة يأخذها بالصلاة على النبي . لحسد
ما زار الهائف في ليلة الملك الأسد في المنام وقالوا : يا ملك الدنيا حاترول عنك .

فترك مملكته وركب حصانه ومشى أرض الله لخلق الله ، إلى أن صادفه
في الطريق بحر غويط ، نزل فيه الحصان عائدا بالملك ، وفسي وسط البحر ،
فطس الحصان والملك ممسكا بشعره ، إلى أن غاب الحصان تماما في أعماق
البحر ، ولم يتبق منه سوى شعرتين في يد الملك ، فقال الملك :
« لما تروح تقطع السلاسل ، ولما تيجي تيجي على زبيبة » .

واستبدل الملك ملابسه بجلباب قديم - خيشة - كان يرتديها أحد
الشحاتين ، ونزل المدينة والتحق بخدمة رجل فطاطري « يولع النار تحت صينية
الفطير » ، وهكذا إلى أن يصل الملك الذي كان قد سبق له أن باعه العصفر ،
فأخذ منه حماره ليربطه ، فبال الحمار عليه ، فقال الملك :

« أقبلت - أي الدنيا - لما باض الحمام على التود ، وأدبرت لما شخ الحمار
على الملك الأسد » .

وتتطابق نهاية الحكايات الأربع المصرية، مع الحكاية السودانية

في رجوع ملك الملك الاسد اليه مرة أخرى ، بعد أن أوفى مكتوبه أو قدره أو وعده ، الذي هو عقابه في ذات الوقت - مثلما حدث لأيوب - حينما استهجن « النعمة » التي هي الزبد أو المر أو العصفر : أقدس مقدسات المعبد المصري - والسوداني - والذي كان يجلب من بلاد بنط ، عبر السودان إلى مصر ، منذ فجر التاريخ .

وإذا ما تناولنا حكاية ثانية ، أوردها د. مراد كامل من السوبات ، وهي حكاية « شيخ الاسود » وموجزها :

« ان رجلا هرب من مدينته بعد أن قتل الملك أخاه وابنه واستولى على أملاكه . وعاش الرجل في الغابة وأصبح حطابا . وكان في هذه الغابة أسد وفار ، وكان الفار يميل إلى معاكسة الاسد ، فقال له الاسد يوما : « كيف تجرؤ على معاكستي وأنا أقوى المخلوقات ؟ » فأجابه الفار ، بأن القوي هو الذكي « فأنا أقوى منك بدكائي ، وأقوى مني ومنك الانسان » .

وبينما الاسد يواصل احتداده ، مدافعا عن انه أقوى المخلوقات ، جاءه الانسان - الحطاب ، ففر إليه الاسد قائلا :
« أيها الانسان ، هل لك في مصارعتي لنرى من منا الأقوى ؟ » .

فقال الحطاب :

« هذا حسن ، ولكني تركته قوتي في البيت ، فانتظرنى إلى الغد ، حتى أحضر قوتي » .

وبهذه الحيلة التي ستكون موضوع بحثنا ، نجا الحطاب من الاسد ، نظرا لان بقية الحكاية ، دُخِل على هذه الجزئية الهامة ، التي هي في الاصل حكاية حيوان متطابقة مع نظيرتها المصرية . بل ان البعض يعتبرها أشهر حكاية حيوان من فولكلور شعوب كل العالم .

ويكتمل الجانب - الاستطراذي - في الحكاية السودانية ، بسلسلة من الحيل المتوالية ، التي يهزم بها - الانسان - الحطاب ، الاسد ، ويخضعه لسيطرته ، بل هو يتمكن في النهاية من ترويض كل أسود الغابة ، وبهذا يصبح شيخ الاسود ، ويتمكن في النهاية من الانتقام لما لحقه من جور الملك الظالم ، الذي كان قد قتل أخاه وابنه وشرده من البلاد .

ومثل هذا الاستطراد دخیل تماماً على الجزئية السابقة ،
التي هي في حد ذاتها حكاية مكتملة . وكما يرى عالم الفولكلور ،
الاستاذ لويس جنزبرج :

« ان القصص الاستطراذية المتعرجة الاحداث ، جديدة تماماً
ودخيلة على الفولكلور الاوروبي المبكر ، وفولكلور الشرق الادنى
عامة » .

والنص الشفاهي المصري لهذه الحكاية ، اكثر تحديداً
واصالاً ، لذا سأورده كاملاً ، كما حققته من ستة مصادر مختلفة ،
أكملها نص سمعته من مصدر بجوار بحيرة قارون بالفيوم باسم
« الديب والتمساح » وهذا هو النص :

« ديب مصاحب تمساح ، ومتعود يزوره كل يوم ، يروحوا على شط
بركة قارون ، وينظ ركب على ظهره (١) ، والتمساح يفسحه على وش البركة ،
وبعد كده يرجعه على الشط آخر النهار .

مرات التمساح - وليفته - زعلت وانفجرت وفارت من الديب .

وفي ليلة عملت عيانة . ولما جاء التمساح يسألها : عيانة بايه ؟ قالتاؤ :
الحكيم قاللي دواكي على قلب ديب .

التمساح قالها : بسيطة الديب صاحبي ، وبكره الصبح حاجيني
واجيبك قلبه .

وتاني يوم الصبح ، لما الديب جا يزور التمساح ، ونظ ركب على
ضهره زي عوايده ، التمساح جابو في وسط البحر ، وحكاو حكاية مراته .
فالديب قالوا :

« لا مؤاخذه يا تمساح ، انا النهارده سايب قلبي في البيت ، رجعني تاني
لبر ، وانا اروح اجيبك قلبي من البيت واجي حالا » .

التمساح رجع الديب على البر ، والديب اول ما حط رجله على البر
فطس على روجه من الضحك ، ولما التمساح سآله :

« بتضحك ليه ؟ »

الديب قالوا :

- بضحك عليك .

عليل ما دويت .

وصاحب ما بقيت .

(١) يلاحظ ان التمساح ، هو اله الفيوم .

والاختلافات بين النصين السوداني والمصري لهذه الحكاية ، هي مجرد متنوعات أو اشتقاقات مرجعها التواتر الشفاهي الذي يعترى التراث غير المدون عامة . أما النص الام المدون لنمط هذه الحكاية فيرجع الى اكثر من ألفي عام .

وسأورد هنا النص العربي لهذه الحكاية ، والذي يعدّ أقدم نص مدون ، كما يجمع على هذا ثلاثة من كبار علماء الفولكلور ، هم : د. موسى جاستر ، الذي أورد هذا النص العربي في كتابه « قصص الطيور والحيوانات » . والبروفسور لويس جنزبرج . وبازل ف. كرتلي ، وملخص النص العربي المدون كما يلي :

« ما أن انتهى الله من خلق العالم ، حتى أمر - عزرائيل - ملاك الموت ، أن يلقي في البحر بمجموعة متنافرة من الحيوانات ، لكي يعيش كل حيوان مع ما يخالفه من حيوانات .

ويمكن الثعلب بمكره ودهائه من الافلات من قبضة ملاك الموت ، وحتى لا يلقي به في البحر .

وفي نهاية العام ، أحصى الحوت « ملك البحر » جميع حيواناته ، لكنه افتقد الثعلب ، فأرسل الحوت برسله من سمك البحر لاحتضار الثعلب ، وكان قد سمع بمكره وشدة دهائه ، فرغب في أن يحصل على قلبه ويلتهمه ، حتى يصبح له ما يمتاز به الثعلب من حنكة ودهاء .

وعندما وصلت الاسماك ، رسل الحوت الى الشاطئ ، والتقت بالثعلب ، احتالت بطورها عليه ، فقالوا له ان الحوت ملك البحر قد مات ، وانهم جاءوه لينصبوه ملكا عليهم عوضا عنه ، وكان ان امتطى الثعلب ظهر احدى الاسماك ، لكنه وبعد أن غوطت به الاسماك داخل البحر ، خاف وتشكك في الأمر ، ولما طلب منهم ايضاحا لحقيقة ما يحدث ، أخبرته احدى الاسماك ، بحقد الحوت عليه ، نظرا لما يتمتع به من دهاء وسعة حيلة ، لذا رغب في التهام قلبه ، ليصبح وريثه في الدهاء .

هنا أجاب الثعلب للاسماك ، بأنه كان من واجبه تذكيره وهو على الشط لكي يحضر معه قلبه ، نظرا لان من عادة الثعالب ، أن تترك قلوبها في منازلها قبل الخروج الى الخلاء .

وكان أن أعادته الاسماك الى الشاطئ ، لكي يسرع ويحضر قلبه . لكن ما أن وضع الثعلب قدمه على البر ، حتى سخر من غباء الاسماك التي تعتقد ان مخلوقا بدون قلب يمكن ان يعيش .

وكان ان فتك الحوت برسله من الاسماك الاغبياء ، والتهم قلوبهم .

ولقد عكف اثنان من كبار علماء الفولكلور ، هما د. موسى جاسترود. جنزبرج ، على دراسة هذه الحكاية أو الفابيولا ، للتعرف على مصدرها المدون الام . ونظرا لانها تعدّ من أوسع حكايات الحيوان في شفاهيات كل العالم ، اذ تمتد متنوعاتها الشفاهية المتسوّاترة من قرى زانزبار حتى موسكو ، سوى أن اختلافات طفيفة تعترّيها ، في كوريا واليابان والفلبين والملايو واندونيسيا .

واتفق الباحثان على أن النص العربي ، الذي نقله اليهود الى العبرية ، وأورده أحد كتابهم وهو بن سيرا ، احدى موسوعات عن الحكايات الشعبية ، وتعرف بألفية « بن سيرا » .

واتفق الباحثان على أن النص مستمد بدوره من منابعه الهندية ، وبالتحديد من حكاية « القرد والتمساح » التي يمكن تتبعها في كتاب كليلة ودمنة تحت اسم « القرد والسلحفاة البرية » ، كما أمكن التعرف على ثلاثة متنوعات لنفس الحكاية في « الجاتاكا » التي يعتبرها البعض الاصل الذي انحدرت منه كليلة ودمنة ، والتي تحوي اقدم المدونات الفولكلورية التي تسري في شفاهيات كل العالم ، ومن المعتقد أن « الجاتاكا » دوت للمرة الاولى في شمال الهند، قبل عصر الملك « أسوكا » - ٢٧٠ ق.م. - وامتصت هذه الشرائع الشفهية أو « الجاتاكا » ، أغلب الجسد الفولكلوري للهند ، ومع انتشار البوذية خارج الهند سرت الجاتاكا وبها حكاية القرد والتمساح ، والتي يستبدل فيها الديب محل القرد في النص الشفهي المصري السني أوردته ، والصيد أو الانسان في نظيريهما النص السوداني الذي أورده د. مراد كامل.

ويحتفي دارسو الفولكلور بحكايات الحيوانات والطيور والنباتات والزواحف ، احتفاء خاصا ، هذا على الرغم من ايجازها الشديد ، بل وواقعيتهما الشارحة المحددة . وهناك من يرى أن حكايات الحيوان هي بداية الاساطير ، وانها أكثر قدما وبدائية منها . اذ انها كانت وعاء لشرح وتقديم الافكار والمعتقدات ، أي أن أكثر هذه المعتقدات ، كان يتجسد في شكل حيوانات وطيور ،

« فالاله زيوس كان نسرا ، والالهة أثينا كانت بومة ، وهيرا كانت بقرة ، والاله النوردي نور كان طائر جنة صغيرا ، والاله تير كان ذئبا ، مثله في هذا مثل الاله الروماني مارس ، وضريبه السليتي ديباتر » .

كما ان هنا شبه اجماع من جانب دارسي الفولكلور على ان قصص الحيوان الشارحة ، هي المصدر الام او الاصل التي منها انحدرت الخرافات .

وقصص الحيوان الشارحة ، هي تلك القصص التي فسر بمقتضاها الاقدمون الفرق بين حيوان وآخر ، بين طبيعة ولون وخصائص الدئب عن الحمل ، ولون الحمامة الابيض المخالف للون الغراب الاسود ، وكذلك التفسيرات الغيبية التي فسر بها البدائيون السبب او السر في بريق عيون القطط في الظلام ، واستطالت اذنا الارنب والحمار . الخ .

وفي واحدة من هذه الحكايات السودانية ، التي موطنها النيل الابيض ، تكشف لنا الحكاية ، كيف ان الدنكا لا يضربون الكلاب ، اعتقادا منهم في ان الكلب هو اول من جاء بالنار لقبيلة الدنكا . فلقد « عاش الدنكا حقبة طويلة لا يعرفون النار ، وكان الرجل منهم اذا صاد سمكة قطعها قطعاً ووضعها في ماعون وتركه تحت وهج الشمس » .

وفي حكاية شارحة أخرى من - الشلوكة - عن البقرة والكلب ، موجزها ان البقرة خلقت في السماء ، ووقعت على الارض فتكسرت أسنانها ، ولما رآها الكلب ، أغرق في الضحك حتى انفتق شداقه وبلغا أذنيه ، وظل على هذا الحال حتى اليوم .

وما من حيوان أو طائر أو نبات ، لم تصاحبه مجموعة حكايات ، تحدد أوصافه وأخص معالمه وتحيطه بتفسير عصور ما قبل العلم ، كما هو واضح في هذه المجموعة من الحكايات السودانية المصرية .

الفصل التاسع

الذاكرة الفولكلورية

مجموعة خبرات بسيطة لكنها ملفتة الى اقصى حد تتصل بالذاكرة الشعبية الجماعية ، أو الذاكرة الفولكلورية لمستها بنفسى وأنا أو اصل جمع شفاهيات منطقة الفيوم وبني سويف وبعض قرى المنيا والجيزة ، جعلتني في النهاية أعتقد الى حد كبير في الذاكرة الشعبية كعملية - جدلية - عقلية ، تتكامل فيها عقول أجيال طولا وعرضا أو زمانا ومكانا .

ومن هذا المدخل يمكن القول بأن لا شيء مفقود . بل ان المفتقد - تاريخيا أو اركيولوجيا - يمكن استجلائه والتحقق منه عن طريق الذاكرة الشعبية ، عن طريق دأب البحث في جمع المواد الفولكلورية أو متنوعات وعينات وعبارات الا يتم أو النمط الواحد موضوع البحث .

وإذا كان من الصعب علينا اليوم في أيامنا هذه تقبل حقيقة ان بلداننا العربية مصابة بأعلى معدلات للأمية على رقعة العالم اجمع ، فلنا ان نتصور ما كانته أيام الجاهلية الاولى والثانية - ٣ آلاف عام ق.م - ومن هنا كان الانتشار الشديد - لعادة أو شعيرة - الحفظ والتحفيظ والاعتماد على الذاكرة ، الذي لم يتوقف الى اليوم في مناهجنا الكتابية المتوارثة . ولا يقتصر

الامر على حفظ وتحفيظ النصوص الانيزمية أو الدينية - رغم انتشار الترانزستور - بل الشعر وبقية الشعائر من قديم وحديث، فولكلوري وتقليدي ، فحتى الاحاجي والفوازير والحدور لها مكانها ومخزونها داخل الذاكرة الشعبية ، سواء في شفاهياتنا العربية او السامية ، وبالطبع عند مختلف الشعوب .

وتحفظ الذاكرة الشعبية مقوماتها الاولى المنحدرة من طفولتها الطوطمية والانيزمية القديمة مثل حزن زهر البنفسج ، زهر الاله الممزق أدونيس الذي اغتالته حيتان البراري ، ومثل نهيق الحمار (١) - ستخ أو طيفون - الذي بسببه أصبح الها شريرا متجبرا . ومثل رأس الحية الذي هو مكن - كل - الخطايا الى اليوم ، وهو المفهوم المنحدر من أساطير الخلق الاولى - للعالم والانسان - والمصاحب للطرد من الفردوس المفقود ، والموحد بين الحية والشیطان . ومثل ما يدور ويتواتر الى اليوم ، حول عيون القطط والخفافيش ، وبطء السلحفاة البرية . وصدفة الجعران في الطبيعة ، التي من خصائصها أن تبيض فيها جعارين جديدة ، ومنها تنبت جعارين أو حياة جديدة ، أي ان من الموت تنبت حياة ، ولعله أقدم تفسير عن الموت ومعاودة الحياة أو القيامة ، كما تشير د. مرجريت موري .

وقد يكون هناك ثمة علاقة بين - ألوان - الطيور والحيوانات المشؤومة ، وبين الالوان الحزينة المشؤومة بدورها ، مثل الغراب - الاسود - النوحى ، والسواد أو الحزن والليالي السوداء ، وبالطبع يشمل هذا العلاقة بين ألواننا عن الفرح والآمال (٢) ، وهو الابيض ، وعلاقته أيضا بالحمامة النوحية ، وبمعنى أصح الجلجاميشية ، بعد أن أطلقها نوح أو كبير الآلهة البابلية اوتونبشتم حين عادت اليه في المساء واذا ورقة زيتون خضراء في فمها .

ويبرز - طوطم - الحمامة ودلالاتها عند الساميين بشكل ملفت جدا ، فتسميه راحيل أو راشيل - أم النبي يوسف -

(١) ان أنكر الاصوات لصوت الحمير .

(٢) فستان زفاف العروس أو بدلة العرس البيضاء .

هو كاهنة الحمام ، ومنه تواتر الى تسمية اسرائيل .
ومن اسم الحمام ، تسمت الملكات السوريات الاشوريات :
سميراميس ، وسميرام ، وسميرنا .
وقد لا ننسى الحمام في تراثنا العربي ، وتحولات أبطال
الخوارق والملاحم الى حمام .
كما قد لا ننسى حمامة الايك ، كطوطم اسلامي شامل ومفروق
في القدم ، وهو ما سنتعرض له في حينه .

وكما يقول الاستاذ تومبسون ، فان الامر بالنسبة لذاكرة
شعوبنا - السامية الشرقية - الفولكلورية ، يمكن ان يطلعا على
الكثير من فيض النتائج الدقيقة ، خاصة وان رواة التراث وحفظته
من حكايات ، ورواة سير ومداحين وشعراء جوالون - تروبادوز -
ما يزالون الى اليوم يملؤون حياتنا وتزدحم بهم أسواقنا وموالدنا ،
وتعج ذكرتهم بالكثير ، الذي يخالط التاريخ فيه الاساطير ،
والعكس صحيح .

وعلى سبيل المثال ، فلنا ان نتصور ان عمر الانتقال الى
مرحلة الاعلام الاليكتروني - الراديو - لم يتعد حلقه واحدة أو
نصف قرن . وقبلها كانت الغلبة للنص الشفاهي وذيوعه عن طريق
أدواته ، وهم الحكايات ورواة السير والملاحم وفناني الافصال
أو الفصول المضحكة أو ما اطلق عليهم د. لويس عوض بمسرح
الفلاحين (١) .

ومن هنا ففي الامكان التحقق من الكثير من تراثنا الحفري
الفولكلوري مثل افتراض العثور على مجموعات الحكايات المصرية
التي ترجمت من البرديات التي عثر عليها في مصر د. فلاند روزيتري ،
وغيره من الحفريين ، وأعيد نشرها في الفرنسية عدة مرات ، منذ
أن نشرها للمرة الاولى ماسيبرو تحت اسم « حكايات شعبية
فرعونية » ، وظهر الكثير منها في الانكليزية باسم « تسجيلات من
الماضي » ، كما نشر ايرمان مجلدين منها ، كذلك أسهم في ترجمتها

(١) ١٦ نصا مسرحيا مرتجلا جمعتها من فناني الفيوم ونشر بعضها بالاهرام
عام ١٩٦٤ . (المؤلف) .

ودراستها علماء المصريات « جودوين ، وشاباس ، وايبروس » .

ولعل أكثر المغالين أو المبالغين في قيمة هذه الحكايات المصرية هو إيرمان الذي أرجعها للأسرات المصرية الأولى ، بل هو أرجع بعضها الى ما قبل التاريخ ، رغم أن بيتري يأخذ عليه أن ترجمته لهذه الحكايات ، جاءت أدبية وصفية ، مستخدما في إعادة صياغتها - الألف باء - الحديثة سواء في الهيروغليفية أو الألمانية الحديثة ، ومن هنا فقد تجنت ترجمة إيرمان المتحررة على الكثير من قيمها الفولكلورية .

وسجل بيتري في الجزئين اللذين نشرهما عن حكاياتنا المصرية الفرعونية مجموعة ملاحظات بسيطة ، منها افاضة الحكايات المصرية في الاعاجيب أو الملاعيب التي تذكرنا بملاعب شيخا ، وعلي الزبيق ، وبعض سير آباء الكنيسة القبطية التي يعج بها تاريخها - السينكار - والتي ما تزال تتبدى الى اليوم أكثر وضوحا في حكايات الشطار ، وهو ما أسماه بالينوفسكي بالفتازيا المصرية .

كما سجل بيتري مدى خوف المصري القديم الدائم من أخطار البلاد الأجنبية ، خاصة الآسيويين ، وأقربهم العرب والعبريين - الساميين بالطبع من جانب ، والليبيين والكوشيين النوبيين من الجانب الآخر .

كذلك تنبه بيتري الى غياب وتدهور ملامح الشخصية المصرية في العصر المتأخر ، بدءا من الدولة الوسطى ، ولهذا يقول : « لهؤلاء الذين يتصورون أن هناك تشابها أو تماثلا يطبع كل مصر في أحقابها المختلفة ، وهو ما لا تؤكد وتقطع به الحكايات المصرية ، ذلك أن التغير من فترة أو عصر زمني لآخر ، يبدو جليا فيها » .

فحكايات السحرة والخوارق مثلا بدأت تكثر جدا ، بدءا من الأسرة الثانية عشرة ، وكذلك الاكثار من المعتقدات الفيبية والقدرية مثل قصة الأمير القدري (١) ، التي ترجع الى الأسرة الثامنة عشرة ، والتي يمكن القول بأنها ما تزال تعيش بحذافيرها على الشفاه ،

(١) المحفوظة بالمتحف البريطاني .

محفوظة بكاملها في الذاكرة الشعبية المصرية ، وقد جمعت لها عدة أشكال أو تنويعات سوف أنشرها في الجزء الثاني من كتاب أو مدخل أساطير وفولكلور العالم العربي ، في محاولة عمل دراسة حقلية على النصوص التي توصلت الى جمعها منذ عام ١٩٤٩ .

ويمكن للقارئ تذكر هذه الحكايات الفولكلورية الفرعونية أو تذكر بعض وحداتها أو تضميناتها ، اذا ما حاولنا سردها تبعا لترجمة بيتري لها من الهيروغليفية ، وهذه هي الحكاية :

« كان يوجد ملك لا يولد له أبناء ، فتمنى من الآلهة أن يرزق طفلا ، واستجابت الآلهة أن تهبه طفلا . لكن ما أن استوفت زوجة الملك أيام حملها ، وفي ليلة الولادة ، جاءت الهاتورات Hathors وتنبأت له :

« سيموت ابن الملك اما بسبب التمساح ، أو الحية ، أو الكلب » .

وما أن أخبر الشعب مليكه بالنبوءة ، حتى بنى له قصرا معزولا تحت الارض ، وخواه بما يحتاجه ، على أن لا يبرح الطفل بوابات القصر أبدا .

وذات يوم صعد الولد الى سطح قصره ، فرأى كلبا يسير خلف رجل ، فسأل معلمه (١) : ما هذا ؟

أجابه المعلم : هذا كلب .

قال ابن الملك : أريد كلبا مثله .

فأحضروا له كلبا ، وكتب الابن الى أبيه رسالة أخبره فيها انه يريد الخروج من قصره والتجول في الارض مع كلبه الوفي ، ولتفعل الآلهة ما تريد .

وترك قصره بصحبة كلبه ، وسافر الى بلاد ملك بدلام (٢).

(١) في النص الهندي - السنسكريتي - يحفظ النص اسم معلم ابن الملك ، وهو بدلام ، معلم بوذا .

(٢) يرجح انها بلاد ما بين النهرين ، حيث الامبراطورية الاشورية ، وقد تكون الاكادية فيما بين سوريا والعراق . ويلاحظ ان هذه التضمينة ، قد هاجرت فيما بعد الى المسرح المرتجل ، أو الفولكلوري الذي نشرته بالاهرام عام ١٩٦٤ .

الذي لم يكن له سوى ابنة وحيدة ، بنى لها قصرا شاهقا ، به سبعون شباكاً على ارتفاع سبعين ذراعاً من الأرض .

وطلب ملك نهرينا - بلاد ما بين النهرين - أنه لن يزوح ابنته إلا لمن يستطيع الوصول إلى شباكها العالي .

وحاول ابن الملك مع بقية الشباب المتجمهرين حول قصر الأميرة ابنة الملك ، الوصول إلى شباكها . وعندما سألونه من أين أتى ، قال لهم : أنا ابن ملك أرض - بر - مصر ، ماتت أمي ، وتزوج أبي بأخرى ، وعندما ولدت له طفلاً ، كرهتني زوجة أبي وعذبتني ، فاضطرت للفرار من وجهها .

وعندما استمعوا لحكايته المحزنة ، احتضنوه وقبلونه .

وحاول الولد معهم أيما الوصول إلى شباك الأميرة ، إلى أن نجح في الوصول إليها وتقيلها .

وعندما ذهب الشبان ، فأخبروا الملك ، اغتاض قائلاً : « هل حقاً سأعطي ابنتي الوحيدة زوجة ، للاجئ مصري ؟ » .

وحين حاول الملك استدعاء الولد ، لم تدعه الأميرة يذهب : وهددت بأنها لن تأكل وتشرب إلى أن تموت ، لو أنهم أخذوا حبيبها بالقوة .

وحين أخبروا الملك بكلام الأميرة ، وأصرّ الملك في طلبه هددت الأميرة بأنها ستموت قبل غروب الشمس .

لكنهم أخذوا ابن الملك بالقوة إلى ملك نهرينا ، الذي سأل وعلم منه أنه ابن سيد مصر ، فوافق الملك وزوجه ابنته .

وذاث يوم أخبر ابن الملك زوجته قائلاً : « اعلمي يا حبيبتي أنني مقضيّ عليّ بالموت بثلاثة أقدار : « التمساح أو الحية أو الكلب » .

فأمرت الأميرة بقتل الكلاب ، واصطياد جميع تماسيح البحيرة .

وذاث ليلة ، نام ابن الملك ، وجاءت له زوجته الأميرة بانّ البن ووضعته إلى جواره ، ونامت إلى جانبه ، فجاءت الحية .

جحرها لتعضّ ابن الملك ، لكن الخدم أسرعوا فقدموا اثناء اللبس الى الحية فشربته عائدة الى جحرها .

الى ان كان يوم ، نزل فيه الامير الزوج ليستحم في النهر ، فجاءه التمساح قائلا : « انا هو قدرك . اتبعك اينما سرت » . وابتلعه التمساح » .

وكما هو واضح يمكن للقارئ تذكر بعض تضمينات هذه الحكاية المصرية التي ترجع الى الاسرة ١٨ ، ان لم يكن تذكرها بكاملها .

ولقد قطعت هذه الحكاية شوطا كبيرا على رقعة معظم العالم ، لو حاولنا التعرض لها بالدراسة ، كيف انها دخلت البوذية ، وارتبطت ببوذا ومعلمه برلام ، ومن الهند هاجرت الى معظم الرقعة الآرية او الهندو أوروبية ، فصاحبت الاسكندر ، والخضر ، وذي القرنين ، ولقمان الحكيم ، وملاعيب احبقتار السنسكريتية ، وفي المسيحية تبدت في قصة « الملك والمسيحي القديم » الشهيرة خاصة في فولكلورنا القبطي المصري .

وليس هذا هو موضوعنا ، بقدر ما ان موضوعنا هو مدى احتفاظ ذاكرتنا الفولكلورية ، لا قدم مدوناتها الفرعونية الفولكلورية ، او مدى ما طرأ عليها من اضافات او العكس .

من ذلك حكاية « انبو وباتا » او قصة الاخوين ، التي ترجمها أيضا د. بيتري ، وترجع الى الاسرة ١٨ ، وملخصها : تأمر زوجة الاخ الاكبر باتا ، على شقيقه الاصغر ، وادعائها بأنه راودها عن نفسها اثناء غياب الزوج ، مثلما فعلت زليخة مع يوسف الصديق فيما بعد ، وكذا فيدرا مع ابن زوجها . فكان ان طارد الاخ الاكبر أخيه الاصغر ، الذي كان له ميزة او خارقة محادثة الحيوانات والطبيعة ، فكانت الحيوانات تحذره في الحقل ، عندما أراد الاخ الاكبر قتله بالسكين المشرعة المسنونة ، فتقول له البقرة : « احذر فان أخاك الاكبر ، يقف أمامك ينتظرك بسكينه الحاد ليذبحك » .

وعندما دلف الى داخل الحظيرة ، ورأى أخاه ، اندفع جاريا

بأقصى سرعة وسط البراري ، وتبعه الاخ الاكبر ، فصرخ الاصفر متضرعا الى رع حاراختي : « سيدي الاله ، يا من تملك قدرة عزل الشر عن الخير » .

فسمع لشكاته رع ، جاعلا بينهما بحرا عميقا ضاريا ، عازلا أصفرهما عن أكبرهما ، مملوءة مياهه بالتماسيح الضواري .

ولعلها أيضا نفس تضمينة أو خارقة عزل موسى وقومه عن فرعون وجنوده ، التي ارتبطت ببرزخ السويس حين الخروج .

وعاد الاخ الاصفر ، يصرخ متضرعا لرع حارختي ، قسائلا لآخيه : « أتتعبني لتذبحني بسكينك المخدوع ، ولو حدث لك انت جريمة شنيعة ، جريمة قتل الاخ » .

وطبعا يذكرنا هذا بأول جرائم قتل الاخ لآخيه ، التي يقال انها انما وقعت بأرض دمشق ، حين قال الرب لهاييل القاتل : « والآن ملعون أنت من الارض التي فتحت فاهها لتقبل دماء أخيك من يدك » . كما يقال بأن سببها أيضا الصراع على امرأة .

وحين لحق الاخ الاكبر بأخيه ، استلّ سكينه وراح يقطع من جسده ملقيا بلحمه للسماك والتماسيح ، الى أن اختفى تماما ، مخبرا أخيه بأنه ذاهب الى وادي زهور شجرة السنط ، حيث سيعاود الحياة هناك في زهور الاكاكيا ، واذا ما أراد أخاه الاكبر أن يستدعيه ، فعليه أن ينتظر سبع سنوات .

وذهب الاخ الاصفر ليعاود الحياة في وادي شجرة السنط ، التي نام تحتها ذات مرة ، فالتقى بالآلهة التسعة - التاسوع - التي تشاورت في شأنه الى أن استقر رأيها أخيرا على أن تهبسه زوجة جميلة ، فصنع له الاله خانوما أو هانوما زوجة رقيقة ناعمة ، إلا ان الهاتورات السبعة ، تنبأن له عندما رأينها بأنها « ستموت موتة بشعة » .

ويلاحظ ان كثيرا من أحداث أو تضمينات قصة الاخوين هذه قد تواترت وهاجرت الى عديد من الحكايات والاساطير الفولكلورية السامية من عربية وعبرية . كما يلاحظ انها ما تزال تعيش الى

اليوم في حكاياتنا وخرافاتنا ، مثل ست الحسن والجمال ،
ونعناعة ، وبقية الحكايات الاستطردية وأغاني الاطفال .

كذلك فمن بين الحكايات المصرية التي ما تزال تعيش متواترة
على الشفاه ، خاصة بعد أن واصلت هجرتها ، والدخول تحت
جلد الكثير من الملاحم والسير السامية ، وهي الحكاية التي ترجع
الى الاسرة ٢١ وترجمت عن الديموطيقية باسم « حكاية اهورا »
أو هاتور عن ملك مصر المقدس رمسيس العظيم ، الذي كان له
ابنا وحيدا يدعى سيني ناخا ، وكان على علم بالكتابات القديمة ،
وعندما سمع بأن كتاب السحر لتحوت ، الذي يغني للسماء
والارض ، ويحوي لغة الطيور والزواحف ، وان هذا الكتاب مخبأ
داخل مقبرة ممفيس ، ذهب الامير مخاطرا للبحث عنه بصحبة
أخيه ، وعندما عثروا على مقبرة ابن ملك مصر السفلى ، فتحها
الامير ودخلها ، فوجد في المقبرة ابن الملك ومعه روح زوجته
اهورا ، وكانا جالسين والكتاب بينهما يقرآن فيه ، وحينما حاول
أخذ الكتاب منهما رفضا ، ثم انخرطت الزوجة اهورا تحكي له
حكايتها .

فالبحت عن كتاب السحر لتحوت ، يقابله بحث سيف بن ذي
يزن عن كتاب النيل ومخاطراته الطويلة في سيرته المعروفة .

وأخيرا ففيما يختص بترائنا المصري المعاش اليوم وعلاقته
بسالفه الفرعوني ، يمكن القول بأن معظمه ما يزال يواصل تواتره
وتوالده ، ومنه رائعة أدب الاحتجاج والثورية في تراث العالم
أجمع ، والتي ترجع الى الدولة القديمة ، أي منذ قرابة ٦ آلاف
عام ، وهي قصة الفلاح الفصيح ، التي صادفتني متنوعاتها في
شفاهيات فلاحي الفيوم ، وهي ذات موطنها الفعلي والحفري
أو الكشفى .

ولو ان لدى الفولكلوريين المعاصرين معلومات كافية ، عن
الملحمة التي أنشدها مصريو الدولة الوسطى في مواجهة الهكسوس
الدخلاء ، والتي عثر على بعض مقاطعها مدونة على ألواح تحفيظ
الدروس للتلاميذ ، وهو ما يزال متبعا الى اليوم في كتابتنا ،

لأمكن التعرف عليها اليوم - ربما - تحت جلد سيرنا وملاحمنا ،
مثل الاميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وخضرة الشريفة ،
وهكذا .

وفيما يتصل بنصوص التوابيت والاهرامات ، وكتاب الموتى ،
يمكن القول بأنها ما تزال محفوظة، في مواويلنا الحمراء ، وبكاثيات
العديد على الميت ، مثل :

- مسيكي بالخير يا عود الانا يا روعي .
- ياللي ثيابك على الجسم يرد الروحي .
- بكره آخذ اسمي واسمك واكتبه في اللوحى .
- وأعلقه في الهوا الطائر لجل البسكا والنوحى .

الفصل العاشر

البناء القبلي ... والفولكلور

يتضح سلسال أو نسق القرابة خاصة في سيرنا وملاحمنا مثل ملحمة حسان اليماني أو الزير سالم ، وعنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وسيرة الهلالية .

فالقبيلة حين تتحرك للحرب والمنازلة ، تتحرك حافظة بكل دقة لنسيجها القاري ، كفرع من الشعب ، الذي هو بالتالي قبيلة سالفة مثل عدنان سكان شمال الجزيرة العربية ، وقحطان سكان اليمن والجنوب ، حين تحالفهما وهجرتهما بحثا عن الزرع والضرع من الجزيرة ، الى الشام ومصر والشمسـال الافريقي في القرن الخامس الهجري ، وهو ما أرّخت له سيرة الهلالية .

فالقبيلة فرع من الشعب المتحالف — عدنان وقحطان — مثل قبائل ربيعة ومضر وعدنان ، ومن القبيلة تنحدر العمارة أو البدنة .

والبدنة كما يعرفها الاستاذ ايفانز برتشاد وفورتس — وحدة دائمة تظل موجودة على مرّ الاجيال نتيجة لانضمام افراد جدد اليها ، أو تركهم لها بالموت أو أي سبب آخر . فالبدنة جماعة ترد انتسابها الى جد واحد في خط واحد ، ومنها يستمد الشخص مركزه السياسي والقانوني .

فيلاحظ ان نظام القرابة يهتم بدراسة العلاقات بين الجماعات القرابية كالبدنات وفروعها والعائلات الكبيرة من حيث هي جماعات بغض النظر عن القرابة الفعلية بين الافراد . وعلى سبيل المثال ، فان قريشا وكنانة ، ما هما الا بدنتين من مضر .

ومن العمارة او البدنة تجيء البطن ، مثل بني عبد مناف من قريش ، ومن البطن يجيء الفخذ ، ومن الفخذ تجيء القبيلة ، مثل بني العباس من هاشم او الهاشميين وهكذا .

واذا ما عدنا الى الاستشهاد ببعض النماذج القرابية للهلالية، نجد ان العصب القبائلي الام الممثل في صراعي عدنان وقحطان داخل التحالف ، ينعكس على المستمعين الذين قد يتحمس العدنانيون منهم لخوارق ابي زيد الهلالي ، والقحطانيون منهم لجد الزناتي خليفة ، وابنته سعدى وابنه العلام .

بل ان السيرة تحفظ لقاتل الزناتي خليفة وهو قحطاني سلف بدوره ، لهجرة يمنية سالفة - تابو - ان قاتله لا بد وان يكون قحطاني مثله .

لذا كان قاتله هو دياب بن غانم وهو القحطاني الذي لقبه الشعب المصري ، نظرا لغدره وعصبيته ، بـ « الزغبى » ، ومنه تواتر مثل « هو انت زغبى » كما يقول د. عبد الحميد يونس .

كذلك يتضح في السيرة ، تقديس الخال عند تلك القبائل العربية القمرية - الهلالية - مثل تقديس الشبان الثلاثة مرعي ويحيى ويونس ، لخالهم ابي زيد . ومثل تعرف كلا من سمدي ومي ، على خالتهن - الجدة - شوه ، التي قد تكون طوطما او مزارا سالفا ، مثلها مثل الجازية ، التي أتصور انها كانت بمثابة الهة قمرية ، او طوطم لمجموع القبائل المهاجرة المتحالفة .

كذلك يتضح مدى تقديس الخال المتواتر الى اليوم المشاع بكثرة في الحواديث والشعر الشعبي مثل :

يا عم ياللي بلا خال

تعال اعملك خالي

وأحط قلبي السليم
على قلبك الخالي .
وكذا مسببة من لا خال له .

وهو ما تفرق فيه اليوم القبائل العبرية ، السامية ، التي
انتهت في اليهودية ، وتعريفها التشريعي الرسمي داخل إسرائيل
الى اليوم في تعريف اليهودي ، وهو كل من يولد من أم - وليس
أبا - يهودية .

وبحسب نظرية التوالد الذاتي للموضوعات التي كان تيلود
أول من أشار إليها ، وسماها بالموروثات أو الروحانيات أو الانيمزم
بمعنى اضعاء صفة الروحية على مظاهر الطبيعة المحيطة بالانسان
داخل مجتمعه ، مثل تقديسه لاماكن بعينها ، قد تكون أضرحة
لطواطم ، وقد تكون آبار ماء - راكدة - وقد تكون أشجارا وأحجارا
ومفارات وكهوبا وقمم جبال ، وما ارتبط حولها من أساطير
وطقوس وتحريمات وحكايات ، أو لنقل أساطير قديمة واصلت
توالدها اليوم تحت جلد الحكايات والاحجية . ويحضرني منها
آفا مؤلفة نذكر على سبيل المثال موالا - من نوع الصد والرد -
يطرح فيه قائله لفزا أسطوريا ، أو قد تخالط الاسطورة التاريخ
فيه - فيقول :

- وان كنت فنان وصاحب فن قوم هاتلي
امارة عن أرض جت فيها الشمس مرة جات .

والمقصود مكان مسته الشمس ونفذت فيه أشعتها مرة
واحدة ، وهو يشير بالطبع الى حدث خروج القبائل الاسرائيلية
من مصر ، حين ضرب موسى بعصاه فانشق البحر . وكان أن مست
الشمس قاعه أو أرضه لمرة واحدة فقط .

كما ان منها مفاهيم وأمثلة وأحجية مثل : « الضربة الواحدة
للرجل - ضربة الرجال ما تتناش » ، و « الثالثة ثابتة » ، وعلاقتها
بأساطير خلق العالم ، حين بعث الله برسله الثلاثة لاحضار طين
العمق - اللاذب أو الصلصال - لخلق الانسان « يوم خلق الله
الانسان على شبه الله عمله » . وكذا ما يدور حول مفاهيم أشهر

الجمال التسع ، وخلق حواء من ضلع الرجل ، والسبب في حيض النساء - بالوجع تلدين أطفالا - وكذا سيادة الرجل الذكر على الانثى ، والسبب في ان الكذب يسود الوجه ، وكذا أفكسار وتعويذات مثل : الخمسة وخميسة ، العين الحاسدة ، النفس الخالق ، والعائن أو المعيون أو النفس الخالق .

ومع استمرارية اُبنية أو انساق المجتمع ، تظل هذه الظواهر والموروثات تواصل توالدها الذاتي ، بنفس ما يحدث في الاساطير والملاحم والحكايات والامثال ، بل والنكت والاسماء والاحاجي ، أو الخدور والادمية .

وجميع هذه الابنية التي كانت المدرسة الانثروبولوجية بريادة تيلور وتلميذه اندرو لانج ، أول من أشار إليها ، بالنسبة لدراسة الفولكلور .

ومن هنا يمكن القول بإسهام جيل الفولكلوريون الانثروبولوجيون في المساهمة الى المنهج البنائي ، الذي غرضه النهائي الغاء الحواجز التقليدية بين مختلف النظم والعلوم وتكوين منهج يعتمد على كل العلوم والدراسات ، بل ان للباحث البنائي الحق في التعرف على مستويات الحقيقة أو الظاهرة التي لها قيمة استراتيجية من وجهة نظره ويعزلها .

فمهمة الباحث الفولكلوري لا تقف عند مجرد جمع النصوص والكشف عن مصادرها وأصولها ، بل ان مهامه تسجيل ما يحبط بها من ظواهر وأبنية مختلفة من اقتصادية ، وقرابية ، ومهنية ، بالإضافة الى ما تعكسه هذه الابنية في مجموعها من شعائر وسلوك ، قد تبدو لغير البنائيين غير ذات أهمية . من ذلك مثلا تربية الاطفال وتنشئتهم وكيفية التعامل مع المرأة ، والمراهقين ، والشيوخ ، والعلاقات الاساسية والمتغيرة بين شخص وآخر .

فمثل هذه النظرة المتكاملة أو البنائية ، تصبح أكثر فائدة ، وأكثر اقترابا من معرفة الظاهرة أو الحقيقة .

فما من شك مثلا في ان لخرافات الجان والنداهات ملامحها المحلية ما بين قرية وما يجاورها على طول بلداننا في مصر ، ووهاد

وجبال وصحارى بقية البلدان العربية . ونفس الشيء بالنسبة للتعامل مع المرأة والطفل ، والاب الذكر ، أو مثلث العائلة الخالد ، كما سماه فيرث .

وعلى هذا فاذا ما اتفقنا على ان الملمح الرئيسي لفولكلور واساطير منطقتنا العربية أو السامية ، هو انه فولكلور قبائلي ، ووحدتها القبيلة ، ويعبر عن ذلك بأنها مجموعة من الناس لها بناء اقتصادي محدد ، ينتج عنه بناء ثقافي متكافىء أو لنقل متواز .

واذا ما عرفنا ان من أهم الاساسيات التي تقوم عليها المجتمعات البشرية مبدأ القرابة أو سلسلة روابط الدم أو الزواج ، أي نسق الروابط الاجتماعية القائمة على الاعتراف بالعلاقات الجنيالوجية ، أي العلاقات الناتجة عن الارتباط الجنسي الشرعي ، وانجاب الاطفال كما يحددها ريموند فيرث الذي يرى بأن النسق القرابي يتحكم - حتى - في الاوضاع الاقتصادية والسياسية .

اذا ما عرفنا ان القرابة شيء أساسي لكافة المجتمعات البشرية ، فما بالنا بالنسبة للقبيلة ، التي وكما قلنا هي الملمح الاساسي لفولكلور واساطير وتراث منطقتنا بعامة ، المحاط الى اليوم بسياج قوي من الانيمزم ، كما سماه تيلور .

وبكل تأكيد ممكن ، فان في دراسة بنية أو نسق القرابة والانتساب على مستوى المنطقة العربية أو السامية في مجملها ، وعلى أدنى الافتراضات داخل كل مجتمع عربي أو سامي ، أو البدء من منطق الجزئي بهدف المعرفة والاستيضاح للكلية ، وبمعنى أبسط ، يمكن القول بأن في الامكان التوقف طويلا أمام تقليد أو ظاهرة النمي العلني الذي نشهده في صحف موتانا صبيحة موت المرحوم ، وكيف ان الميت ينتمي الى عائلة كذا ، ويتناسب مع عائلة كذا من حيث الام ، وكذا من حيث الاب ، وكذا من حيث - ميكائيم - التزاوج العائلي من داخلي وخارجي .

في دراسة مثل هذه الظاهرة أو النسق ، انفتاح على بنية كاملة ، ووصلت العلوم الانثروبولوجية والاثنولوجية في دراستها لهذا النسق أو البناء القرابي ، سواء على المستوى البدائي أو

القبائلي في مجتمعات العالم خارج الغرب ، خاصة أستراليا وأميركا اللاتينية أو داخل المجتمعات الغربية المعاصرة ، وصلت الى حد من الدقة الرياضية ، فمثل هذا النسق - القرابي - مثل بقية الابنية الاجتماعية في تساندها الوظيفي من الاقتصادية والسياسية ، بل ان في دراسة اي نسق أو بنية اجتماعية على حدة خاصة اضلاع هذا المثلث الثلاثة التي تتحكم في المجتمع - أي مجتمع - من قرابية واقتصادية وسياسية ، لن تحقق غايتها الا في تساندها مع بقية الانساق .

فدراسة اي نسق لا يصح أن تجري بمعزل عن بقية الانساق والابنية التي تؤلف البناء الاجتماعي كنسق متكامل هدفه تحقيق التساند الوظيفي والطبقي ، وهو ما عرّفه دوركايم بالتركيبات المورفولوجية ، وعرّفه ماركس بالتركيبات السفلى والتركيبات العليا .

ومن السهل تصور ان التركيبات العائلية ، بل لنقل القبائلية ، تبدى بوضوح في - نص - نعي الميت من تشابك أو اتصالات عائلية أو قبلية أو بدنته أو فخذته أو بقية الاعضاء العائلية القبائلية يقود الى شجرة العائلة - أو نخلتها - عند العرب الساميين .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان في دراسة البناء القرابي في علاقاته المتبادلة مع بقية الانساق ، تبصير البنية الطبقية الاقتصادية والسياسية ، كما قلنا .

ومن هنا فليس مدخلنا الى دراسة النسق القرابي ، على مستوى العالم العربي أو المنطقة السامية ، بهدف التوصل الى نتائج عنصرية أو ازكاء النعرات القبائلية الطوطمية في معظم حالاتها .

وهو ما تتوسع فيه الدراسات العبرية اليهودية ، ربما بايقاع قرن اثر قرن منذ كوزمولوجي سفر التكوين - اصحاح ٤ - بدءا بآدم أبو البشر « يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله » . فابناؤه من بنين وبنات حتى نعمة أو نعيمة في البلاد الشفاهية

الشعرية - ثم سلسال نوح وإبنائه وأخصه سام أو شام المطلق على بلاد الشام والساميين بعامة وما توالى من نسله ، لحين بنيان مدينة بابل ، حين قال بعضهم لبعض : « هلم نصنع لبنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللبن محل الحجر ، وكان لهم الحجر مكان الطين » لحين تبلبل الالسنه خلال بناء برج بابل .

فيلاحظ هنا ، انه بالنسبة للكوزمولوجي السامي ، أو نسق القرابة ، تبدأ شجرة العائلة ، منذ آدم ، حتى نارج - الذي يجمع الكثيرون على انه طوطم سلف - ونوح ، منسقا ومقربا بين حضارات النسل السامي ، وخارجه مثل عيلام أبو العيلاميين ، وكاشور ، وآرام ، وإبنا عامر فاتح وأخيه يقطان ، الذي هو بذاته قحطان أبو العرب اليمنيين القحطانيين ، ملوك دول سبا ومعين وإبنه حضرموت .

وقحطان طبعاً ما يزال يتردد الى اليوم ، واليه تنسب عديد من القبائل العربية سواء في اليمن والجنوب العربي ، أو في بقية أقطار عالمنا العربي المعاصر .

بل لقد ظلّ نسق القرابة متواصلاً داخل التراث العربي متواتراً ، وتصرّ على تدعيمه وأحيائه كثير من القبائل العربية الحاكمة ، خاصة في الكويت والسعودية واليمن والجنوب العربي .

ومرة ثانية ، من مدخل تنشيط دراسات نسق القرابة وعلى مستوى بلداننا العربية بهدف استيضاح البنيان الطبقي والقبلي ، لا بهدف التأسيس العنصري المفضي بالضرورة الى الفاشية ، ستوقفنا مثل هذه الدراسات على واقع بنياننا السكاني .

فليكن الهدف هنا ، هو الدخول الى أحسـد ميادين العصر الكبيرة ، وهو ميدان الاتصال .

فكما يقول شتراوبس : « يجب أن تخضع دراسة القرابة والزواج لبعض المناهج التي تنبع مباشرة من نظرية الاتصال .

ولعل الملمح الاساسي لتقدم الانثروبولوجيا الاجتماعية منذ القرن الماضي ، كانت زيادة الانتباه الى البناء أو النسق القرابي ،

ويرجع هذا التقدم الى عبقرية لويس مورجان في كتابه الرائد في هذا الميدان عن « أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلان الانسانية » عام ١٨٧١ ، وساهمت هذه الدراسة في وضع أسس الدراسات الانثروبولوجية والقرايبية ، الى أن اكتملت هذه الدراسات في علوم الاتصال ، ثم ما تلا ذلك من جهود العلماء الاجتماعيين في هذا المجال البكر ، مثل لوفي عام ١٩٤٨ ، ومردول عام ١٩٤٩ ، وسبوش عام ١٩٥٠ ، ودراسة العالمين الكبيرين رادكليف براون ، وفورد . وجميعها بالطبع تعتمد اعتمادا كبيرا على الدراسات الميدانية ، أي التوسع في جمع المعلومات والبيانات وهو ما نطالب به بالنسبة لقيام مثل هذه البحوث في مصر والعالم العربي ، على أن تجيء مثل هذه الدراسات مستهدية ومرتكرة على الجهود الضخمة التي بذلت منذ مطلع هذا القرن ، والتي يرد ليفي شتراوس انها لم تثمر كما يجب رغم غزارة موادها وبياناتها الانثوجرافية المتصلة باختيارات الزواج ، وأنماطه من داخل وخارجي ومن أبوي وأموي ، بالإضافة الى كيفية تنظيم العائلات والعشائر والقبائل وبقية النظم والمعتقدات الطقسية والدينية واللغوية ، بل ويمكن القول بأنه حتى لعب الاولاد ، أو نظرا للالعاب التي كان كروبير أول من لفت الانظار الى أهميتها عام ١٩٤٢ فساعد في ايضاح النسق القرابي .

ومن المفيد الاشارة بالدور الذي أصبحت تلعبه بعض الدراسات الميدانية في التبصير بأهمية جمع ودراسة لعب الاطفال في بعض بلدان العالم العربي ، مثل العراق والكويت .

وقد يكون للدور الكبير الذي لعبه رادكليف براون بشك خاص بالنسبة للدراسات البنائية في عمومها ، وبالنسبة للنسق القرابي خاصة ، أهمية جديرة بالتوقف عندها ، ففي دراسة الميدانية ومنهجه في التصنيف بالنسبة لنظم القرابة في استراليا أو في اكتشافه القوانين المتحركة في نظام القرابة عند قبائل كايير والتي كما يقول شتراوس : « ستبقى الى الابد واحدا من أعظم النتائج في الدراسات الاجتماعية البنائية ١٩٣٠ - ١٩٣١ »

كما تعتبر مقدمته الرائعة لكتاب « أنساق القرابة والزواج في إفريقيا » خطوة متقدمة نحو إخضاع نظم القرابة في العالم الغربي ، لنظرية عامة في التأويل على مستوى عالمي . كذلك دراساته المتفرقة عن مصطلحات القرابة وسلوك الأقرباء : السلوك المصاحب لاطوار العمر الثلاثة من ولادة وموت وزواج . كيف تتصرف الام والاعمام والخالات خلال زواج ابنة أو طلاقها ، أو موتها أو حملها . . . الخ .

السلوك المصاحب لعادات الاقتتال والثأر ، أو المصاحب لتصرفات الأسرة أو العشيرة في حالات مولد الاناث والذكور .

ففي أهمية دراسة السلوك داخل النسق القرابي ، كما يقول « لوي » ، ما يشير ويكشف عن جوهر النسيج الاجتماعي ، مثل ملاحظه ظواهر التزاوج الخارجي الاكسوسامي ، وارتباطه من جانب آخر بظواهر وسمات محددة ، مثل تأثير مكان الإقامة أو الحقل الميداني موضوع الدراسة سواء أكان قرية أو مدينة ، أو كانت بيئته يدوية أو زراعية على البنية ، وعلى عادات المباح والمحظور من التزاوج والعلاقات الجنسية .

ولقد اعتبر شتراوس ان من أغراض نظم القرابة وقواعد الزواج التي يسودها تناسق وظيفتها في اتجاه حفظ بناء الجماعة عن طريق الربط بين علاقات الدم وعلاقات المصاهرة ، بل ومن أهدافها اخراج النساء من العائلات التي ينتمين اليها بروابط الدم ، وإعادة توزيعهن على جماعات أخرى .

ففي رأيه ان النساء في أحسن حالاتهن ، أحد مستويات الاتصال ، وعلى ذلك فمن الزواج الى اللغة يمرّ المرء من سرعة اتصالية منخفضة الى سرعة اتصالية مرتفعة .

كذلك استطاع براون أن يصل في دراساته الى وضع مصطلحات أو قوانين لها عموميتها ، ولها ميكانيزماتها المحددة ، سواء بالنسبة للزواج والاحتفالات وسلوك أبناء العمومية في المجتمع الذكوري وأبناء الخالات في مجتمع أموي ، وكذا أوضاع الحموات وأقارب الزوجة والعكس .

ويتفق براون مع مالمينوفسكي في ان الروابط البيولوجية وروابط الدم ، هي ذات الوقت الاصل والانموذج لكل نمط من أنماط القرابة ، وان كان لم يرفع نظرية القرابة الى مستوى نظرية الاتصال ، كما فعل شتراوس .

الا انه يتفق مع ماكلينان ومالمينوفسكي في أن « تنظيم العائلة الذي يسود فيه حق الذكر في كل مكان ، قد تم بفعل قوة أساسية هي حق الملكية » .

وبالنسبة الى البناءات الطبقية ، وصكوك الملكية ، ونظم التوريث وعلاقتها بالبناء القرابي والمصاهرة ، فان الامر يصبح اكثر وضوحا . فكما يقول وارنر ، فانه « من المستحيل في بعض الحالات ان ينتمي اي فرد تلقائيا لطبقة معينة . ووصل الامر بلويد وارنر الى حد انه افترض ان الاهالي يدركون ويفطنون الى العلاقات البعيدة جدا بالنسبة لنظام القرابة ، داخل انموذج او طراز « مورنجن » ، الذي انتهى به الى علاقات رياضية او قوانين ، أثارت الكثير من الجدل ، كنظام محقق لحاجات ومطالب الزواج والنظام الطبقي ، على اعتبار ان أولهما في خدمة الثاني .



وكما هو واضح يتبدى مدى تأثير المجتمع الاموي داخل تراثنا العربي والسامي بعامة ، والعبري - من حيث الدلالة اللغوية الاثنولوجية - نظرا لان التعريف السائد لليهودي الى اليوم داخل اسرائيل المعاصرة ، هو من جاء من رحم أم يهودية .

وتنقصني معلومات عن نظام التوريث والميراث الاسرائيلي . ذلك ان خط التوريث شديد الارتباط بسيادة مجتمع نوعي ما ، سواء كان أبويا أو أمويا . كذلك يرتبط التقويم بهذه السيادة . ومن المعروف ان الارتباط - بالتقويم - القمري عند كلا العرب واليهود الساميين ، ما يزال الى اليوم تقويم قمري مثل السنة او التقويم الهجري القمري ، المرتبط بالقمر ورؤية الهلال عند كلا المجتمعين - البدويين - الساميين .

وفي حالة التوريث ، يمكن الرجوع الى فكرة الفصل بين الابوة البيولوجية والابوة الاجتماعية ، كما حققها الى حد الحسم مالمينوفسكي خلال دراسته الميدانية على بعض قبائل استراليا وسكان جزر الشروبرياندي في غينيا الجديدة - قبل ان تحقق انقلابها الثقافي الحضاري الاخير - حيث ان الرجل لا علاقة له بانجاب الاطفال ، ولا يعتبر ابا بل مجرد زوج للام ، كل دوره هو ان « يحمل الطفل بين ذراعيه » ويرعاه ويحميه ، ومن هنا لا يرث الابن اياه ، بل ان وريث الاب هنا يشترط ان يكون ابن أخته . فالتوريث يتم عن طريق سلالة الام ، وبذلك يرث الرجل خاله وليس اياه ، كما انه يورث اولاد أخته وليس اولاده .

كذلك لاحظ مالمينوفسكي وغيره داخل هذه المجتمعات الامومية ان في مقدور أي فرد ان يذكر سلسال انتسابه الاموي حتى الجيل الثالث عشر ، دون ان يحفظ ويتذكر اكثر من ثلاثة أجيال أبوية (١) .

ويمكن القول بالنسبة لعالمنا العربي ، ان كلا التوريث والانتساب للجدود يسير في خطين . صحيح ان السلطة للرجال في هذا المجتمع الذكوري ، الا ان الجنة تحت اقدام الامهات . الا انه من حيث الميراث والتوريث يسير في خطين .

وكان لريموند فيرث سبق التوصل والتبصير بهذه الطريقة الثالثة التي لا هي بالابوية الذكورية ، ولا هي بالامومية الانثوية ، وانما هي تجمع بين النظامين ، وعرفها فيرث بالقرابة المزدوجة أي التي يمكن تتبعها الى أناس آخرين عن طريق كل من الاب والام . كما يمكن تتبع ملامحها عبر مختلف الطرق والابنية أو المداخل ، من لغوية ، واقتصادية أو قرابيسية تتصل بالميراث والتوريث ، بالإضافة الى رواسب نظام التابو والطوطمية .

ومن المفيد هنا الإشارة الى انه من الصعب علينا كمجتمعات عربية ، أبوية ، تصورنا لامكان استمرار مجتمعات أخرى كثيرة

(١) فورشن وايو أوستن حققا ما سبق اليه مالمينوفسكي .

مخالفة يتم نقل السلطة والامتيازات فيها عن طريق الام ، أو السلسل الاموي ، وهو ما يحدث فعلا عند كثير من الشعوب خصوصا البدائية في ميلانيزيا وشمال اميركا وقبائل وسط افريقيا وشمال روديسيا وكثير من الولايات الهندية وجزر الهند الشرقية عامة .

وتذكر مسز اودري ريتشاردز ، التي سجلت دراساتها الميدانية الانثروبولوجية داخل قبائل البامبيا في شمال روديسيا ، ان الحكومة العنصرية شجعت عن طريق الارساليات منع انتساب الشبان الى امهاتهم ، وتشبها بالاقلية الانكليزية ، عليهم أن ينتسبوا لابائهم .

كما ان رحيل الرجال للعمل في مناجم النحاس ، قضى على عادة أو نسق مبدأ اقامة الرجل في موطن زوجته ، وحتمية أن يجيء من قريته الاصلية وهي المكان الذي ولدت فيه أمه وأخواله .

كذلك كان لفيرث سبق الريادة في دراسة نظام أو نسق الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، وهو المثال الشائع في العالم الاسلامي والضيمن وأجزاء كثيرة من افريقيا خاصة الاوقيانوسية .

وسجل ملاحظاته على النحو التالي ، بأن مثل هذا الزواج عادة ما يمارسه الاثرياء ، وهم عادة رجال تخطو الخامسة والاربعين .

كما ان من اسبابه الاشباع الجنسي ، لا على اعتبار انه مجرد شهوة ، ولكنه اشباع لما يمكن اعتباره رغبة طبيعية ، بالاضافة الى ما يتصل بالمحارم الجنسية ، وتابو تحريم ونجاسة المرأة بعد الولادة الذي قد يمتد لعدة شهور ، ويستلزم منع الاتصالات الجنسية بها .

بالاضافة الى علاقة تعدد الزوجات ، بارتفاع عدد الاناث عن الرجال وبالاسباب الاقتصادية ، وهجرة الزراعة ، وزيادة القوة المنتجة ، وارتفاع صيت الرجل . فالعائلة المتعددة الزوجات هي عبارة عن عدد من الاسر الصغيرة المتميزة ، والتي يكون فيها الزوج ملتقى عدة مثلثات لها أب واحد مشترك ، في موقع الجد السالف .

وبالنسبة للسلفية ، تلك التي عرفها شيخ المؤرخين واحد

فلاسفة التاريخ ، ارنولد توينبي ، بأنها سباحة ضد تيار الزمن والتاريخ ، فيبدو ان جدلية الحياة، أو لنقل حركة التاريخ اليومية، تدعو الى تزيين السلفية ومن وجوه عدة ، لعل أبسطها جاذبية الرخاء القديم الغابر » حين كانت البيضة بمليم ، ورطل اللحمية بكذا . وتتمثل عند العرب عامة في الافراط بكاء على الاطلال ، والزمن المنقضي .

ومن جانب آخر تتمثل السلفية في سحر اللغة ورونقها ، ولنقل سحر عصور وأحقاب بعينها لازهى عصور الخلافة العباسية، والتوقد العقلي للهلينية ، والشوامخ من فحول الشعراء العرب ، ومشكلي عصر النهضة العظام .

كما ان أقصى جاذبيتها تتبدى في الاساطير والتحليق في رومانتيكية العقل الغيبي ، المضاد والمعادي في ذات الوقت للعقل كهدف أخير للتاريخ .

ويا له من عالم رائع - من حيث جمالياته البحتة - عالم الاساطير المكبل بسلطان العادة والتوارث .

منذ أساطير خلق العالم والانسان الاول أو القديم أو الاديم، المصاغ من طين العمق ولازبه .

فالسلفية هنا جزء من التصور القبلي ، ذلك الذي لا يقف عند الاحياء، بل هو يمتد خلفا في أفوار الماضي التاريخي الاسطوري خاصة تراثنا العربي السامي ، شاملا الموتى قبل الاحياء ، فالارض هي ارض الاسلاف والجدود ، وهو ما لا يزال يشاع بكثرة فسي أغانينا المعاصرة خاصة في ربع القرن الاخير . كما ان مثل هذا التصور لا يبعد كثيرا عن التصور الطوطمي الافريقي حيث ان طوتم العشيرة البدائية كان رمزا وشعارا للعشيرة الخالدة مشتملا على الطوتم السلف والخلف في وحدة شاملة تعبر عنها أساطير وأغاني وامثولات القبائل البدائية .

ومن هنا فكلا الاحياء والاموات يوجدان الجماعة أو الامة ، مع ملاحظة الانتساب اللغوي الى الانثى الام ، بل إن أدنى الوحدات

الاجتماعية للامة أو القبيلة ، يطلق عليه البطن ، والفخذ ، والرحم .
ويمكن القول بأن حالة الانجذاب هذه نحو السلفية ، سماها
الكثيرون بحق بحالة الهستيريا ، ومحاولة استحضار الماضي
وطبعه على الحاضر ، وهو ما يتمثل في التصورات الشمولية الى
النازية والفاشية والصهيونية .

الفصل الحادي عشر

التابو والفولكلور

طبيعي أن لا تقتصر دراسة « التابو » على الباحث الاجتماعي، نظرا لأنها تصادف جامع ودارس الفولكلور ، سواء على المستوى الادبي أو الشفهي ، وعلى مستوى الممارسات والتقاليد عامة .

ومعنى التابو ، ذلك الذي ينتمي في المجتمعات البدائية للقوانين الطقوسية الخالعة ، المحوطة بالملوك والرؤساء والكهنة المقدسين ، والذين اتفقوا فيما بينهم على بعض الحالات ، مثل ما يحكم قتل الانسان واحزانه وهو اجس الام عند طفلها ، والصيد في مواجهة البحر والفريسة وهكذا . لكن الرجل البدائي لا يفرق بين حالة وما يخالفها ، والمستقبل العادي بالنسبة له يمتد على مجمل حياته ، وهو في مجمله مليء بالاحطار والمخاوف ، فالخطر الذي يواجهه به الآخرين قد تغلفه وتملكه الروحانيات والاشباح ، ومن هنا تتدخل التخيلات . فالخطر على أية حال ، لا يقل عن الواقع ، اذ انه واقع يغذيه التخيل . والخيال - على أية حال - بالنسبة للانسان له نفس الدور الجذاب الذي يلعبه الواقع .

وتفارق بحار التابوات وقنواتها مجمل حياتنا اليومية بشقيها الصاحي والنائم . فلكل حركة وكلمة وفعل تابواته ومحرماته .

للبدء تابواته وللنهاية . وهو ما تزايد خطره واستفحل الى

أن وصل في السنوات الاخيرة الى حد طبع به مجمل حياتنا وعلاقاتنا على المستوى المدني والرسمي ، فأصبحت تعويذاته تتصور الخطب والتقارير اليومية والوشايات ، والشكاوى ، وطلب الحاجات .

ومن هنا تفجرت شرايينه ونفدت دون سدود أو حدود الى أجهزة الدولة وأنشطتها المختلفة ، حتى أنشطة الاعلام الداخلي والخارجي .

فلبداية - أي بداية منذ الكلام والفعل والكتابة حتى الولادة - محرماتها وتابواتها .

والنهاية - أي نهاية سواء أكانت وصولاً أو تذييل خطاب أو نص أو أكل أو وفاة - طقوسها ومحرماتها ، وممنوعاتها .

ومن هنا أصبحت تنقسم حياتنا هذه المعاصرة الى مباح ومحظور ، أو حلال وحرام . وإذا ما عرفنا ان المباح والممنوع أو المحلل والحرام ، قد مرّ بمرحلة طويلة من الدراسة والاجتهادات العلمية للتعرف على الكيفية التي قسم بها العالم القديم الحياة في عموميتها الى مباح ومحظور ، وهل هو مجرد رمز شعوري أو لا شعوري تشكل بمقتضاه ذهن البدائي والفبي وما يزال يواصل سريانه داخل مختلف المجتمعات ، من متحضرة ونامية ، خاصة مجتمعنا العربي ، سائلة ومعاصرة .

فكلمة تابو كلمة بولونزية تعني الممنوع أو « ذلك الذي لا » تعرف عليها المبشرون والرحالة والمستكشفون الاوروبيون منذ اواخر القرن ١٧ خاصة كابتن كوك ، تتردد بكثرة شديدة ، بنفس الكثرة التي يسمع بها الزائر الاوروبي لمصر ، كلمة « بقشيش » ، وهي تنطبق في بعض هذه الجزر مثل تاهيتي تافو (TA 700) وبطريقة أقرب الى تعبير « تفو » المتداولة في لفتنا تعبيراً عن الرفض والقرف .

ويؤكد التقارب اللغوي الاشتقاقي بين تابو - وتفو - تعريف د. مارجريت ميد للتابو في دائرة معارف العلوم الاجتماعية ، من انه تعبير يشير الى الموقف السالف .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت هذه الكلمة الى اللغات الاوروبية ،
فاستخدمها كتاب عصر التنوير او القرن ١٨ ومنهم جاك جان روسو .

الى أن شغلت كلمة تابو هذه فيما بعد عديد من المشتغلين
بالعلوم الاجتماعية او الانسانيات زمنا طويلا . وهل المقصود بالتابو
هو اتيان أفعال مباحة أو مقدسة ، والاقلع والامتناع عن أفعال
أخرى محرمة أو ممنوعة ، مثل لمس أشياء أو الذهاب الى أماكن
بعينها ، أو حتى مجرد النظر أو الشم أو السمع الى أشياء أو
وجهات أو منازعات أو حروب بعينها .

والملفت ان مكتشفي القرن ١٧ للعالم خارج الغرب ، مثل
كوك وغيره ، قد تخرجوا في المطابقة بين التابو وبين المقدس ،
وذلك للملاحظة ان النظام الذي يحده التابو يتصل بمعاملات
وممارسات الرجل ابتداء من الجنس ، حتى عادات الولادة وتربية
الاطفال ، والحروب ، وعادات الطعام ، كأن لا يسمح لشخصين
بالاكل معا على مائدة واحدة ، وكذلك لا يسمح للمرأة مشاركة
الرجل طعامه ، بنفس ما كان يحدث داخل مجتمعاتنا اليوم الى
أيامنا هذه .

والملفت هنا ان تحريم اكل المرأة مع الرجل عندنا ، على
اعتبار ان المرأة - هنا في بلدنا - ككل كامل ما هي الا حريم او
حرام او حرمة او محرمة - وهو ما يطلق على طريقة اخذ الوش
والبكرة .

عدم مشاركة المرأة للرجل الطعام ، بل والكثير من الافعال ،
مرجعه كما سبق أن أوضحنا ، انها مدانة وأقل منزلة منه ، كما
يتبدى في أساطير الخلق والخطيئة والسقوط والسامية . وهو
على عكس وضع المرأة في تلك المجتمعات البولونزية ، التي فيها
تحتل المرأة وضعا أعلى منزلة من الرجل ، بحسب ما تشير به
أساطيرهم وتقويماتهم الامومية الى اليوم .

ونظرا لكثرة تدخل التابو - من محلل ومحرم - في حياتهم ،
فقد استغرقت دراسته حيزا كبيرا داخل مختلف مجتمعات
ومؤسسات هذه الجزر المتعددة .

فزارتهم عشرات البعثات المتعاقبة لدراسة مجمل أنشطة حياتهم
وشعائهم الحرية الدينية ، التي يقيمها ويتحكم فيها التابو .
فحتى المعاملات اليومية من تجارة واستثمار وعمل أخضعت لنظام
التابوات المتوارثة السائدة .

وما أن تجمعت المواد الميدانية أو الخام التي جمعها الرحالة
والمبشرون في القرن الثامن عشر لدى الدارسين الاوروبيين حول
ظاهرة ، أو النسق البنائي للتابو في تسانده الوظيفي ، وعلاقاته
المتبادلة مع بقية الانساق مثل البناء الاقتصادي والسياسي
والقرايبي ، حتى نشطت حركة دراسات ملفتة حول هذا النسق
داخل مختلف المجتمعات ، خاصة مجتمعاتنا العربية سواء في غرب
آسيا أو الشمال الافريقي أو بالنسبة للغات السامية ، وأخصها
المعاصرة العربية والعبرية ، أو على مستوى الممارسات والنظم
الاجتماعية والسياسية ودورها في حماية الملكية والميراث
والتوريث ... الخ .

فعن طريق الاستغراق في دراسة مختلف الأنشطة والتصورات
التي يحكم ناصيتها التابو ، داخل هذه المجتمعات البولنزية ، أمكن
التوصل الى ان الكثير من مختلف العادات والممارسات التي ما تزال
تواصل سيطرتها على مختلف أنشطة الدهن والمخيلة البدائية عند
مختلف القبائل والشعوب - خاصة في عالمنا العربي - مثل طرق
القسم - أو الحلفان - سواء بالآلهة أو الموتى أو الاشياء والاماكن
المقدسة ، ومنها اجزاء الجسم البشري ، مثل الشعر ، والعينين ،
والفرج ، ومثل الدعاء والتوسل بحلول الكوارث والمصائب بالآخرين
والاعداء ، وهو ما كان يحدث بكثرة مفرطة وعلى مستوى مختلف
مؤسساتنا في حروبنا الاخيرة مع - الاعداء - مثل الفرنسيين
والانكليز ، بل واليهود في أيامنا هذه .

فحين كان أئمة المساجد وشيوخها ، يواصلون تنعيم دعائهم
على الاعداء - الاسرائيليين اليهود - على طول مساجد مصر والعالم
العربي ، وعلى مستوى أجهزة الاعلام الاليكتروني ، كان المهتمون
بدراسة الظواهر الاجتماعية ورصدها في مختلف عواصم الغرب

— الامبريالي — وعن طريق رصد مختلف طرق — تابو — الدعاء على الاعداء ، توصلوا بالطبع الى نتائج مخزية حقا ، كما اشارت بهذا الصحف الغربية بكثرة .

بل ان دراسة طرق وقنوات التابو ، كشفت عن ان الكثير من بقايا الممارسات السحرية التي ما تزال تواصل سريانها ، مثل الشبشبة ، والكلمات السحرية ، وحرق واحراق وافساد تماثيل الاعداء الورقية والطينية والمصنوعة من العجين — وهكذا . .

بل ان متنوعات التابو شملت كيفية التعامل مع المواسم المختلفة والشهور ، وأيام الاسبوع السبعة ، وما يصاحب بعضها من ممنوعات — السبت عند اليهود ، والاحد عند المسيحيين ، والجمعة عند المسلمين — وهكذا .

فيلاحظ انه على الرغم من ان الالتفات للتابو لم يعرف فيما قبل العصر الفيكتوري بالنسبة للمجتمعات الاوروبية ، الا انه واصل سريانه داخلها حتى فيما بعد الثورة الصناعية ، بل هو ايضا تحكم في مخيلة الطبقات الشعبية الاوروبية . ويمكن القول بأن العصر الفيكتوري كان واقعا بدوره تحت تأثير « الذهن التابو » . فكانوا ينظرون للمرض على انه جريمة او خطيئة ، وقالوا بأن « المريض مكانه السجن » .



وبالنسبة للمرأة يشمل تابو النظر لها كمحرم عند مجمل الشعوب الشرقية الى حد رفض . . الانثى — في مطلقها العام كنوعية — وهو ما عبر عنه في الاخوة كرامازوف بطل ديستوفسكي ، الاب الرافض « فيدور بافلوفتش » في حديثه التهكمي مع الراهب « هل تعلم ان زيارات النساء في — دير — جبل اتوس ، ليست وحدها ممنوعة ، وانما يمنع هناك ايضا وجود الاناث من أي نوع من أنواع الحيوان ، فلا دجاجة ولا أوزة ، ولا أية عجلة صغيرة يمكن ان يحتمل وجودها هناك ؟ » .

ولعل اخطر التابوات عندنا — في مصر والمنطقة العربية —

هو ما يتصل بالمرأة والجنس ، سواء على مستوى الرجل بالمرأة
أو الرجل بالرجل ، أو المرأة بالمرأة .

فنحن ما نزال ننظر للمرأة تبعا لتواتر النظرة الحجرية
أو الطوطمية ، أو الاسطورية السالفة ، على اعتبار انها منبت
الخطيئة الام ، كذا شملها التحريم أو الحرام أو الحريم والحرمة
(فاعتبرت من المحرمات) وربط التابو بين النظر اليها والخطيئة
على اعتبار ان « العين تزني » .

وفي تقديري انه لو كانت هناك دراسات علمية جادة تغطي
تابو المرأة على مختلف مراحلها وأبعاده ، لاصبح في الامكان التوصل
الى نتائج مفزعة سالبة ، تتصل بأفرع النشاطات الابداعية
والانتاجية والعقلية ، لعل أبسطها هنا تصورنا لمدى التخلف الذي
انتهت اليه ، نتيجة لظروف القهر والادانة المنحدرة الممتدة من
عصور ما قبل العلم . وبالطبع والضرورة يواصل هذا التخلف
تفريخه داخل الاسرة التي هي نواة وركيزة المجتمع الاولى .

كذلك ستقودنا الدراسة الى مدى العلاقة الوثيقة بين تابو
المرأة والجنس ، وبين آفة الانفجارات السكانية المهددة التي
تعانيها شعوبنا ، خاصة في مصر .

ويلاحظ انه قد يبدو للوهلة الاولى ان جدلية العلاقة بين
تابو المرأة أو الحرام (HARAM) كما تنبه اليه وسماه روبرت سميث
منذ مطلع هذا القرن ، وبين الانفجارات السكانية المخيفة التي
أصبحت تتهددنا .

وبمعنى آخر ، هل يؤدي تابو المرأة والجنس المتسواتر منذ
منبعه على طول منطقتنا العربية وأخصها مصر ، الى خدمة النسق
أو البناء السكاني ، أو ان ما يحدث وتؤكد احصاءات الامم المتحدة
هو العكس ؟

بل ان في الحلول المتعسفة التي مداها التحلل الجنسي ، في
اتجاه عقلنة هذه العلاقة ، والتي يلجأ اليها الغرب ومجتمعات ما
فوق التصنيع ، هدفها الاخير بالطبع هو التوصل الى انضباطات
سكانية بالغة الدقة .

كذلك ستوقفنا مثل هذه الدراسة الى الارتباط الشديد بين معوقات وتابوات الجنس وبين تخلفنا العقلي والحضاري .

ولا يمكن تصور مدى الارتباط بين حلول تابوات وموروثات الجنس ، وبين الاندفاعات العقلية والحضارية في العالم المتقدم من حولنا بشقيه الاشتراكي العلمي ، والرأسمالي الامبريالي . فما يحدث حولنا من ارتباط بين الجنس والثقافة ، ممثلا في مختلف الأنشطة من نوادي ، لمجلات ودوريات وكتب وأفلام ومسرح وسينما وتلفزيون ، وتربية وشارع وسرير ... الخ ، لا يحدث اعتباطا أو انحلالا كما يدعي الجهلاء الفاشست المخربون .

ولعل في ظاهرة انفكاك وتفجر تابوات الجنس في الخفاء والظلام والزحام ، بالشكل والكم الذي نشهده ونعرفه جميعا ، ما يشير بوضوح الى ظواهره المرضية . وكلنا يعرف الى أي مدى تتحول وسائل المواصلات - خاصة في القاهرة - الى حالات جنسية جماعية .

ففي الوقت الذي يصعب جدا على الرجل أو الشاب التعرف بامرأة أو فتاة ، خلال زحام الاوتوبيس ، يمكن له بسهولة ممارسة عملية أو علاقة جنسية شاذة دون عناء سواء تمت هذه العملية ظهرا لوجه أو ظهرا لظهر ، فيشترط في هذه الحالة الغامضة - المرادفة لممارسة الجنس في الظلام والخفاء - أن لا تلتقي العيون ، ويتعرف الواحد الآخر ، أو يتعارف الطرفان ، أو حتى تتلاقى عيونهما في نظرة خاطفة .



ولعل أكثر الحالات أمنا ، والتي لا يعيرها الكثيرون التفاتا ، هي حالة الشدوذ النسائي أو البناتي - السحاق - وهي أقل حالات التابو عندنا . وتبدو كما لو كانت طبيعية أو غير متصورة ، على عكس ظاهريتها في الغرب الملفتة جدا - كتابو - خاصة انكلترا وأميركا .

فاذا ما تعمقنا قليلا في جدلية العلاقة بين تابوات الجنس

والزحام في مدننا ، لهالنا ما وجدنا انها ردة - لا شعورية - لمراحل
الاباحة - وليس القباحة - التي مرت بها مجتمعاتنا التي قدست
عشار والتعشير منذ ٦ آلاف عام .

ولوجدنا ايضا انها حالة يمكن تصنيفها مع ظاهرة الثقافة
أو المواقف المضادة التي تتمثل أول ما تتمثل في النكت والنكت
الجنسية بشكل خاص ، في تلخيصها لرغبات دفينه ، وفي
مجابيتها لمختلف الضغوط - الفوقية - والممنوعات أو التابوات ،
ممثلة في الموقف الرافض المضاد للعرف - المثالي أو العاطفي -
للمجتمع المغلق .

وبالنسبة لتابوات اللغة ، فكما يقول مالىنوفسكي (١) ، فإن
اللغة - أي لغة - لا تلعب فقط دور الحارس والحامي للاسطورة
والاديان بعامة ، بل ان اللغة في حد ذاتها لعبة الحكم والحفاظ
الامين على الاوضاع الطبقية والاجتماعية .

ويذكرنا هذا على الفور بمدى سيطرة عائلة اللغات السامية ،
التي انتهت اليوم في العربية - الفصحى - والعبرية ، وكيف انهما
ما زالتا الى اليوم مكبلتين أو هما حارستين للتراث أو الاساطير ،
أو الوهم كما يسميه كافكا .

كما ان هذا يذكرنا بمدى اكتمال اللغات السامية في الفصحى ،
واتساع رقعتها ، لدرجة أنهت بها ، أو هي اكتملت فيها مجموعة
الحضارات السامية .

وقد يكون في تابوات الفصحى ومنمنماتها اللغوية ما يحفظ
الى اليوم اصفاء صفتي القداسة ومعاكسها من نجاسة وشؤم ،
على الجهات الاربع الاصلية ، والتي في أدنى صورها ما هي الا
اربعة أركان التابوت - العهد - وملائكة الفرش الاربعة المكلفين
بالخلق والموت والقيامة والرسالة ، وهو ما يتواتر الى اليوم في

(١) عالم انثروبولوجي روسي ولد في كركوف سنة ١٨٨٤ ودفن في نيوهافن
سنة ١٩٤٢ . تحول الى دراسة الانثروبولوجيا على الفور ، حين قرأ الاجزاء
الثلاثة الاولى من موسوعة فريزر الشهيرة « الفصحى الذهبية » .

الموروث الشعبي ، بالاقطاب الاربعسة ، وهم : قطب الغوث ،
والبلاوي ، والرجال ، والمتولي .

ويصل الامر الى اضعاف شطري التابو من مباح ومحظور على
بقية أضلاع - المكعب - من ارتباط أسفله بالسفالة أو الواطي
الواطي . وأعلاه ، كما يعلو الهامة والرفعة - من ارتفاع - مرادف
السمو ، والتسامي أو السامي ، بما قد يذكرنا بتسمية الساميين
- سمو وسماء - من عرب وعبريين .

بل ان أخطار التابو - اللغوي - على التنمية من بشرية أو
عقلية أو حضارية ، تصل الى حد اعتبار طريقة أو أسلوب نطق
الكلمات ومقاطع الحروف في اتجاه الحفاظ على اللهجات المحلية ،
أو لنفل المفرقة في المحلية الى حد اعتبار كل قرية أو كفر أو عزبة
أو أدنى أشكالها تجمع سكاني ، له لهجته وتعابير الخاصة به .
الحافظة له أدنى أصوله وجذوره الطوطمية .

ومن هنا يكون للتابو كعب أو شيء معيب أو ممنوع دوره
الحافظ ، المتسق الاخلاص مع المجتمع المحلي القبلي التعصبي ،
حتى في حفاظه على لهجته ، وإيقاعاته اللغوية ، مثل عده نطق
نهايات الكلمات في بني سويف مثل : عايز آ ، ومنا ، ويا ، بدلا من
ياه . أو طريقة قلب حرف - الياء - الى - ألف - في واحدة أو
أقليم الفيوم ، المتاخمة ، مثل قول : عايز آه . وفا ومناه ، بدلا
من : عايز ايه ، وفين ، ومنين ، الخ .

وعلى هذا يصبح عيبا وتابو مثلا لمواطني بني سويف وقراها
النطق على الطريقة المعتادة في تأكيد نهايات الكلمات ، كما يرى
نفس العيب على قرويي الفيوم حين يتساءل قائلا : - ليه ؟ بدلا
من لا - وهكذا . بل ان تابو الحفاظ على - عادة - اللهجة ، يصل
الى حد ادانة كلمة حضارة أو الحضور ، فحين يقدم متحدث مثلا
على تغيير طويقة نمطه ، قد يخجله آخر على الفور قائلا :

- انت بتتكلم زي الحضور ، أو عاملي « حضري » .

ومن هنا فالحضري أو المتحضر ظل أقرب الى الرفض خاصة

في مصر الوسطى ، وقد يقول له سائله ساخرا :
- انت بيتهلي . ويبدو ان اصل كلمة « تيهلي » متواترة من
« توهني » بمعنى التيه والتوهان .

فالحضري أو التحضر ، غير مستحب ، أو هو أنموذج
لا يصح التمثل به . وتحفل الحواديث والحكايات والامثال بالآلاف
النماذج مثل « من نسي قديمه تاه » .

وفي قصص الشطار وخرافات الجان ، عادة ما يأخذ ابن
زوجة - الملك - الحضرية أو المتحضرة ، جانب الخصم الظالم
المعتدي ، بل هو يقف في صف أبناء الظلام والشر ، في مواجهة
بطل الحدوتة - الموعود - أو المكشوف عنه الحجاب ، المضطهد
ابن الزوجة الفلاحة ، أو البدوية ، ابن النور المنتصر .

وطبعا واصل مثل هذا الموروث ، المدعم بسلطة العادة والتأبو ،
نموه داخل عديد من أنظمتنا الثقافية ، كأفلام السينما ، ودرامات
الراديو الرخيصة ، منذ زينب حتى اليلتان ، ليلي بنت الفقراء ،
وليلي بنت الأغنياء .



ولعل التكنيات والاستعارات هي آفة اللغة - أي لغة -
وبالنسبة للفتنا تصل الى اخفاء اسم الاناث عامة ، خاصة الام
والخالات . أو في حالات التخوف من الحسد ، كأن يكنى عن
المولود الذكر واسمه بالانثى واسمها ، أو في حالات الترفق - شيمة
اليوتوبيا السامية بعامة والاسلامية بخاصة - كأن يكنى عن الاعمى
بالضير ، والعوراء بكريمة العين ، والاصم بثقيل السمع ، والمريض
بالعائف أو المصيون أو المنفوس أي المحسود . وقد يقال في بعض
المناطق حين السؤال عن مريض بأن « اشيته - شيئه - بعافية »
أو انه « بعافية » فقط ، وفي المدن : راقد ، وتعبان . وكذا عن
الميت ، بالمتوفي ، وتعيش انت ، والمرحوم ، والبقية في حياتك .

وبالطبع يمكن الاستطراد الى حد الادعية ، سواء بهدف جلب
الخير أو الشر ، بتعاويذها وأعمالها السحرية ، والتي يعتبرها

« كراب » مادة مثقفة متهاففة هبطت الى أوروبا غازية مستشرية من البحر الابيض حملها اليهود والعرب الساميون .

ويمكن الاستطراد الى تابوات أسماء وممارسات بلاد وأماكن بعينها على طول بلداننا العربية ، وكذلك بالنسبة للاوقات ، وفصول السنة وأشهرها ، مثل شهر طومية « خلا الصبية كركوبة » ، وازدهار المحاصيل في برمهات « روح الفيظ وهات » .

وتعرض الكثيرون للتأبوات المصاحبة لمأثورات البنات والطيور والجشرات والهوام ، وشعائر الطقس ، التي سماها « فان جنب » بشعائر الانتقال .

وبالنسبة للقسم أو - الحلفان - أفرد الشاعر عالم الاساطير روبرت جريفز ، مؤلفا هاما من ٣٤٠ صفحة ، يعاد نشره الى أيامنا هذه ، منذ أن نشره جريفز وجمع معظم مواده من مصر وبقية بلدان الشرق الأدنى .

وقبل الاستطراد لكتاب جريفز الشيق ، يمكن القول بأن القسم في معظم أحواله أقرب الى التابو ونظامه ومفلقاته ومحرماته . وهو أيضا في معظم أحواله قد يكون مضحكا .

ويبدو ان أقدم نماذجه موجودة في حضارات الشرق الأدنى السامية ، منذ الفراعنة والبابليين والعبريين ، مثل القسم على جثث الموتى والتفرس في وجوههم ، والقسم بالآلهة ، والقسم بالطواطم من نباتات وكواكب وليل ونهار ، والقسم بأجزاء الجسد البشري من بطن لفرج لعينين لشعر ومقاصيص ، ومن أقدمها قسم الآله - يهوه - لنوح وبنيه من الساميين : « وضعت قوس فسي السماء لتكون علامة ميثاق بيني وبينكم » . وقسم يعقوب - أو اسرائيل - لابنه اسحاق بأن وضع يده تحت فخذه مقسما ، وهو ما لا يزال شائعا الى اليوم .

ولا حاجة هنا الى تأصيل القسم ، فكما يقول روبرت جريفز فان القسم قديم قدم اللغة .

وفي رأي جريفز ان الايمان والاعتقاد في القسم ، مرتبط بفكرة ادانة أو - قباحة - المرأة الانثى الام .

وعلى هذا فكثير من الحضارات والاقوام ، لم تعرف القسم ،
مثل حضارات الهنود الاميركيين الحمر ، في بيرو والمكسيك ،
ومثل الاستراليين ، وقبائل البوشمان في افريقيا ، وبعض
المجتمعات ذات الميول الثقافية .

ولعله في الامكان القول بأن مركز الثقل بالنسبة للدراسات
ونتائجها أو تقنياتها العلمي المختصة بالتأبو ، قد انتقل منذ أواخر
القرن الماضي بشكل مطرد الى اليوم ، من الجزر - البدائية -
البلونزية الى عالمنا العربي ، سواء الشمال الافريقي خاصة - اللغة
والريف - المراكشي ، أو في الجزيرة العربية ، والجذور الحضارية
- واللغوية - السامية .

شارك فيها جيش من الرواد الاوائل أمثال : ماريت ،
وفريزر ، وتيلور ، وفرويد ، ودافيد سون ، وسبنسر ، ورادكليف
براون ، وسنيث ، وروبرت سميث ، والاخير هنا هو فرانز شتيز
- ١٩٥٢ - ١٩٠٩ - وأهميته هنا انه انشروبولوجست متخصص
في الساميات . . أو عالمنا العربي متضمنا الجانب العبري .

ووجه شتيز أقسى نقده ومعارضته لنظريات سميث التي
ضمنها موسوعته الهامة عن الاديان السامية . أما شتيز فيدراسته
عن التأبو ، فيرى انه « ليست كل التأبوات تنتمي لاغراض دينية »
كما ذكر روبرت سميث .

الا ان شتيز أشاد بالجوانب اللغوية في دراسات روبرت
سميث ، الذي تنبه الى أن أصل تسمية تأبو ، لا ترجع الى
استخدامها الى اليوم بنفس هذه التسمية ، بل هي ترجع في أصلها
ومنشأها الى لغتين ساميتين ، فاليهود استخدموها بمعنى Kadesh
قدس أو المقدس ومنها جاءت تسمية القدس أو المدينة المقدسة ،
وأیضا قدس الاقداس داخل أخفى أماكن المعابد سرية . والعرب
استخدموها بمعنى حرام وحريم وحرملك وحرمة وهكذا .

ولقد شارك أيضا في هذا البحث اللغوي رائد التحليل
النفسي فرويد متصورا هو أيضا - ان كلمة حرام العربية هي
بدايتها قادش أو المقدس اليهودية . بينما قدس أو المقدس هسي

أيضا كلمة عربية كما هو معروف . فهي كلمة سامية استخدمت بكثرة في النص العبري للاسفار الخمسة - البنتاتوك - .

ولقد لاحظ روبرت سميث ان قادش بمعنى المقدس في اللغات السامية على عكس تابو التي تشير الى الحرام والتحريم والمحرم او الممنوع ، عند البولونزيين .

فعند العرب الاراضي المقدسة حرم مكة أو حمى الطائف ، ومن حمى القبيلة ، تواترت كلمات حميه أو الحمية وحماية .

ولا يصح هنا افغال ما توصل اليه روبرت سميث الذي أولى اهتماما فائضا للتأبو في موسوعته الكبرى عن الاديان السامية خاصة فيما يتصل بمفهومه عن « عدوى » التحولات الاممية .

وفي رأي سميث انها كلمة سامية مشتركة ، قبل ان تكون بولونزية ، وانها مرادفة لكلمة - مقدس - في اللغات السامية ومنحدرة من جذرين لغويين ساميين .

واستخدمها فرويد بمعنى قادش Kadesh ، فمعنى الكلمة العربية حرام ، تقابل الكلمة العبرية قادش ، ووردت بهذا المعنى والرسم في البنتاتوك أو الاسفار الخمسة في العهد القديم .

ومنها اسم قاديشا ، وهو ما كان يطلق على معابد البغايا في اسرائيل ، فكان لسميث فضل طرح المقارنة اللغوية بين الكلمة البولونزية « تابو » ، والعبرية السامية عامة « قدس » أو مقدس . الخ .

وتعرض سميث للجزيرة العربية حيث يوجد الكثير من الاماكن المقدسة ، وحيث كان يحرم المساس بأي شيء طبيعي مثل الجبال والاشجار ، بل وحتى الممتلكات الشخصية كأن ينظر اليها على انها ممتلكات الله التي خص بها ممثليه أو من اختارهم ، وهو ما يتبدى بخاصة في تراثي الحرمين مكة والطائف ، أو حرم مكة وحمى الطائف : حيث حتم الغاء الممتلكات الشخصية داخل القبيلة، فللقبيلة حماها الذي قد تحدده تلال أو جبال ، وداخل الحمى الارض والزرع والكلا وموارد الماء ، مشاع للجميع .

كما تعرض - لنذور - النوق أو الجمال السائبة ، وضرب مثلا بناق صالِح والرعاف كعقاب .

فكان المفروض في الأماكن المقدسة أن تترك الأشياء والممتلكات والنذور ، فقط لاستخدامات الآلهة ، محاطة بالشعائر التي تمنع من أن يستخدمها - الناس - الآخرين ، إلا بطرق معينة ، وكثيرا ما يحرم استخدامها نهائيا .

فليست كل التابوات تنتمي إلى أغراض دينية كما يقول شتيز معارضا سميث .

واستخدم قوانين النظافة بتوسع منذ الاستنجاء والوضوء حتى تابو المرأة الطامث ومن لمس جثة ميت . ويرى سميث الذي استفرقه المنهج أو البحث المقارن ، أنه استطاع خلال أبحاثه الطويلة المضنية في الأديان السماوية المقدسة ، التوصل إلى نوعين من التابو رصدهما بالتحديد من الكتاب المقدس .

فالإنسان - السامي أو العربي - تحتم التابو ألا ينظر إليه كمقدس ، بقدر ما هو يتقي أخطار قوى ما فوق الطبيعة ، وكاتقاء لغير المقدس والأشياء غير المتطهرة أو النظيفة أو المباح استخدامها . وضرب لذلك عشرات الأمثلة ، التي نعيشها ونعاشرها بالطبع وبالضرورة دون التفات كاف لها . نكتفي منه بهذا المثال المتصل بحتمية الطهارة بعد الجماع ، والا ظل الإنسان غير نظيف وبالتالي محرم أو غير مقدس .

كما تعرض لمفهوم النجاسة وعدم لمس أشياء بعينها مثل الكلاب والخنازير وأجساد الموتى والمرأة الطامث ، ومن لم يتطهر بعد الجماع من الجنسين ، على اعتبار أنهما نجسين .

كذلك عدد روبرت سميث ، خلال دراساته على مختلف المجتمعات السامية ، كثيرا من الأشياء التي لا يجب أو يصح المساس بها ، والتي هي في حكم التابو مثل : الرداء الكهنوتي ، والأواني والأوعية ، لأنها في حكم المنسوعة أو الخطرة . ومن المدهش اكتشافه بأن هناك طريقتين متناقضتين مختلفتين تؤديان ذات الغرض أو المسلك وهو إضفاء صفة القدسية التي تستوجب

التحريم المحاط بأخطار التابو ، التي قد تستوجب - حتى - أبشع أنواع القتل والاغتيالات .

وأستخدم سميث مثلا متداولاً بيننا نحن العرب الساميين حين نقول : « مبروك على الأرض » . وانتساب الحذاء للأرض الأم . ثم ما يتصل بالمسالك نحو الاحذية والمداسات . وكيف أن مسبة مخلوع النعل ، وابن مخلوع النعل في إسرائيل وفلسطين كان تعني المهان المضطهد بمعنى الخارج والمدان والنجس : كما أورد في أماكن عدة في التوراة (١) عن الكيفية التي يجب أن يحرك بها المرء حذائه على حذائه (٢) على أرض يطأها للمرة الأولى (خورج ٣ - ٥) وما يصاحب هذا من تابوات البدء المصاحب للدخول يا سائر . ويا أهل البيت . ويا أهل الله . الخ . .

ويمكن القول بأن تنبه روبرت سميث لفكرة العلاقة بين التابو والمقدس ، كان له التأثير المشع في عديد من أفرع الدراسات الانسانية ، من اجتماعية لاثنولوجية لتوراتية خاصة بالنسبة للأسفار الخمسة ، بالإضافة إلى جهوده في دراسة الأديان - السامية - البدائية .

وكالعادة تعرضت نظريات سميث لكثير من النقد ممن جذبهم حقل التابو والدراسات السامية ، مثل دراسة سنيث Snith عن « أفكار مميزة عن العهد القديم ١٩٤٤ » حيث ركز انتقاداته العنيفة له ، وأن ظل حبيسا لما سبقه إليه سميث ، خاصة في مجمل دراساته عن العلاقة بين التابو والمقدس ، على كلا مستوياتها الثلاثة المختلفة التي تبذت في البنتاتوك للبدو الساميين الرحل ، قائلا أو مشيرا إلى أن المعنى يفهم من التعبيرات والممارسات الثقافية . ذلك أنه معنى - أو ممارسة - قبلي مغلّق ، معدّ لفئة

(١) وردت بكثرة في التلمود الاورشليمي الفلسطيني ، وفي ممارسات وادانات خلقية وسلوكية .

(٢) ممارسات وشعائر التصرف حيال الاحذية منتشرة في السلوك المنزلي العربي ، وفي المساجد . بما يتقابل ويتعارض مع أغطية الرأس ، سواء على النسقين التابو ، والشعائر أو الشفارات الطوطمية ، من طرابيش وعمم وطواقي وحطات ، الخ .

قليلة ، ويجري على ثلاثة مستويات من حيث المعنى لا تتغير في هذا التراث . وحاول سميث أن يرى التوراة من وجهة نظر العبري العادي .

أما الدراسات التوراتية لهربرت سبنسر وآرثر تيسلور « الثقافة البدائية » ، وفريزر في « الفصن الذهبي » ، والمجلدات الثلاثة عن الفولكلور في « العهد القديم ونظريات العهد القديم » لدافيد سون .

والاخير أولى اهتماماته لكلمة « قادش » وعلاقتها بالبابلية والبوذية ، وتوصل الى انها تعني « فصل » أو انفصال . فالاشياء - والممتلكات - التي تنتمي للآلهة وخص بها البشر ، تشير وتؤكد الانفصال أو الاختلاف بين الله والانسان .

ثم تعرض دافيد سون لعلاقة المقدس بالعادي (صمويل ٢٢ - ٢١) وعلاقتها بحلل وحلال والاختلاف بينهما ، خاصة في حزقيال ٢٢ - ٢٦ ، ثم علاقة حل بالكلمة العبرية ، حرر (أعطى الحرية) في عدد ٢٠ - ٦ وأرميا ٣١ - ٥ .

كذلك تعرض لقادش وحرام ، ولاحظ ان في طنجة لو لمس أحد الاهالي جثة ميت ، يظل تابو ١٠ اشهر . كما تعرض بالنقد لنظرية رادكليف براون عن القيم الشعائرية والعقاب ، مروراً بدائرة الخطيئة والعقاب . كأن ينظر للأطفال حديثي الولادة على انهم غير نظيفين متطهرين ، ويتم التطهر بالقائم في النيران المشتعلة ، فالوليد الحديث مثله مثل الميت الحديث . ومن يحمل جثة في نيوزيلندا ، يدهن باللون الاحمر ، فالاحمر هو اللون التابو هناك . وفي جزر هاواي وتاهيتي وطنجة يحرم على الرجل التابو ألا يقرب امرأة أو يطهو طعاما .

ويتفق دافيد سون مع فريزر في النظر للتابو خاصة من خلال الشعائر الدينية بالاضافة الى المدنية ، انه منحدر من الحيوانية ونظم الكهف ورؤساء القبائل بما يخدم أغراض حقوق الملكية والتوريث وحفظهما ونظم الزواج .

أما فرويد في « الطوطم والتابو » . فربط بين قانون الملكية

— على المستوى الطبقي — والملكية الجنسية بما يحتم اطاعة الاوامر .

أما ماريت ، أهم نقاد فريزر ، فقد أشار الى ان أفضلية فريزر تمثلت في الربط بين السحر والتابو ، على اعتبار ان السحر يحتم تجنب وتحريم اتيان أفعال وأشياء محددة ، لكنه عاد ثانية فأشار الى ان أول من حقق هذا الربط بين السحر والتابو ، هو د. تيلور في أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري عام ١٨٦٥ .

فلقد كان تيلور أول من أشار بوضوح ، خلال تعرضه بالدراسة لبعض المجتمعات المحددة ، للعلاقة بين التابو ثم ذلك الارتباك والخلط في الربط بين الموضوعي والذاتي . وأورد تيلور قائمة طويلة بأفعال وأعمال ، تتصل بالفوز والنشاطات الجنسية والشعائرية . وكما يقول تيلور فان كثيرا من الاطعمة البدائية الاصل ، تعتمد في شيوعها على ما يشاع عنها وحولها من أكذاس من الخزعبلات .

وهو ما لا يزال عندنا حول الفواكه والاطعمة ، مثل « النث » أو الفحومة المرتبط بطهارة الفم ، عقب — تابو — الشخير ، ومثل العلاقة اللغوية بين الجوع ، وبين الجوع ضاع ، ومثل نبات القرع — المقدس — عند العرب الساميين ، وكذا الجميز والجوافة ، وتحليل أكل الضب والزواحف الصحراوية عند البدو ، والقبائل العربية ، وتحريم نفس هذه الزواحف في البلدان الزراعية ، والجبليّة .

فلاعتقاد منصبّ على ان قيم الاكل تسري خلال الاكل .

واستنادا الى ما يقوله د. تيلور فقد وصلت اباحة الاطعمة وتحريمها الى حد الاعتقاد عند كثير من القبائل الاميركية — اللاتينية — بتحريم أكل لحوم الحيوانات الاليفة أو الجبانة ، اعتقادا في ان خصائصها الجبانة ستتسرب لاكلها ، ولهذا فضلوا أكل لحوم النمر ، والايائل أو المهر البري المتوحش من اناث الخيال البرية ، والخنازير البرية ، لشجاعتها وسرعتها وما تتميز به من خصال تسري خلال جسد آكلها . وحرّموا الحيوانات الجبانة من ماعز وأبقار .

ويقودنا هذا الى العلاقة بين السحر والتابو عند فريزر ، خاصة في مقاله بدائرة المعارف البريطانية ونشره بالطبعة الثالثة من المجلد الثاني لموسوعة « الفصن الذهبي » وفيه يقول : حوالى عام ١٨٦١ عندما كلفني صديقي وليام روبرتسون سميث ، أن أكتب مقالا عن التابو للطبعة التاسعة من البريطانية ، كتبت من وجهة النظر السائدة للأنثروبولوجيين والتي كانت قاصرة على دراسة الجنسين الاسود والبنى لشعوب الباسيفيكي ، وسرعان ما انتشرت الملاحظات الدراسية والميدانية للبولنزيين ، وكان من واجبي أن أعدل وجهة نظري ، فالتخاليل التي طرأت على نظام الخزعبلات بعامة لا تقتصر على المجتمعات الهمجينية بقدر ما هي ممتدة داخل المجتمعات المتحضرة ، فالتابو ما هو سوى واحد من الانظمة المعادية للخزعبلات داخل مختلف المجتمعات والاجناس تحت مختلف المسميات والتفاصيل لابنية المجتمعات المركبة من مختلف الوجوه من دينية واجتماعية وسياسية ، لاخلاقية واقتصادية . ولقد ضمنت هذه النتيجة مقالتي ، ولقد ضمنت آرائى بعامة عن الموضوع ، صديقي روبرتسون سميث ، المنشورة في مجموعته عن الدين السامي ، ومن هنا فان أهمية التابو ونظامه في التغير الديني والاخلاقي في نظم الحكم والميراث ، أصبحت موضع الملاحظة . واتخذت مكانها الجديرة به داخل الأنثروبولوجيا المعاصرة .

أما ما عالجه فريزر في مجلده الثالث من « الفصن الذهبي » : « التابو وأخطار الروح » ، فيمكن تلخيصه على النحو التالي : بأن هناك أربعة أفعال أو أشياء تابو أو محرمة هي :

- ١ - الأفعال المحرمة ، الأشخاص ، والأشياء ، والكلمات . وبالنسبة لممارسات التابو أو المحرم ، نجد تابو التعامل مع الغرباء (١) .

(١) سواء حملات الاستعمار أو التبشير ، التي لعبت الدور الرئيسي في التعريف وجمع المعلومات والملاحظات الميدانية الفولكلورية وثقافات ما خارج الغرب .

- ٢ - خلال الطعام والشراب .
- ٣ - خلال رؤية الوجوه .
- ٤ - المنازل وخراب المنازل - خلال الصيام عن الطعام .
- ثم تابو الاشخاص :
- ١ - الرؤساء والملوك .
- ٢ - الندابون .
- ٣ - حيض النساء والولادة .
- ٤ - المحاربون .
- ٥ - القتلة . . .
- ٦ - صيادي الوحوش والاسماك .

بالاضافة الى الاشياء المحرمة وهي : (١) الحديد .
 (٢) الاسلحة الحادة . (٣) الدم . (٤) الرأس . (٥) الشعر .
 (٦) احتفالات الحلاقة . (٧) تقليم الشعر والاذفار . (٨) البصاق .
 (٩) الطعام . (١٠) الخبط والطرق والاجراس . (١١) حيوانات
 التوراة المحرمة مثل الجمال والخنازير .

وأخيرا الكلمات المحرمة وهي : (١) أسماء الاشخاص .
 (٢) أسماء الاقرباء . (٣) أسماء الموتى . (٤) أسماء الملوك
 والاشخاص المقدسين . (٥) أسماء الآلهة . (٦) كلمات عادية .

وعلى هذه الافعال والاشياء والممارسات التي حددها ، أقام
 فريزر نظريته في الربط بين السحر والتابو ، والانتهاه الى انه
 - أي التابو - نوع من السحر السالب .

وهي النظرية التي تعرضت لاشد الهجوم وأقساه ، خاصة
 من مارييت وغيره ، مما دفعه الى تعديلها مرات ، كما حدث في
 خطابه لروبرت سميث .

وأخيرا فاذا كان هناك من قول بأن للتابوات ، كنظام أو
 مؤسسة ، دورها الوظيفي أو النفعي داخل المجتمع - على اعتبار
 ان التابو ، كنسق أو بنية اجتماعية يحقق مع بقية الانساق ،

ويتساند معها في دورها الوظيفي أو النفسي لتحقيق مضمون البناء الاجتماعي كنسق عام متكامل ، وهو ما يدعو بالنسبة لمجتمعاتنا المعاصرة الى كل سخرية ، فلعل في اغراق المجتمعات القديمة في تابوات المرأة والجنس ، جانبه النفسي الدافع في اتجاه تحديد النسل البدائي مثلا ، لكن ومن الصعب تصور مدى العادم والخسارة التي يسببها التابو بالنسبة للانفجارات السكانية اليوم ونقص الانتاج ومشاكل نقص الطعام التي تعاني منها شعوبنا .

واذا ما أخذنا مثلا بسيطا ، وليكن التابوات المصاحبة لطرق ذبح الحيوانات والطيور عن طريق إراقة دمائها ، وعدم الاستفادة من هذا الدم ، بنفس الطرق المتوارثة منذ الكلدانيين العراقيين أي منذ ٥ آلاف سنة الى اليوم .

ولعل الكثير من تابوات ومعتقدات أولئك الكلدانيين الذين انتهوا في فلاسفة وكهنة حران بسوريا العليا ، ما تزال سارية في تراثنا الى اليوم ، منها انهم كانوا أول من ربطوا بين أعمدة الحكمة السبع ، وبين سبعة أيام خلق العالم ، وسبعة أيام الأسبوع ، والكواكب السبعة السيارة ، فقد جعلوا يوم الأحد للشمس واسمها ايليوس أو شمس ، ويوم الاثنين للقمر ، وهو نفس اسمه البابلي والكلداني سن ، ويوم الثلاثاء للمريخ ، ويوم الأربعاء لعطارد ، واسمه نابق - ميركوري - ، ويوم الخميس للمشتري (جوبيتر) واسمه بل أو بعل ، ويوم الجمعة للزهرة واسمها بلتي أو بعلتي أو عشتار ، وهي ما أصبحت فينوس عند اليونان ، ويوم السبت لرحل واسمه كرنس أي ساترن أو كرونس .

كما انه من الصعب تصور السالب والعادم الذي يسببه التابو ، بالنسبة للصحة العامة ، مثل اخراج طعام الملائكة ووضعه في أريافنا الى جوار جدران المنازل ، وبدلا من أن تلتهمه الملائكة يتحول بالطبع الى حشرات وأوبئة وجراثيم يعاني منها ريف مصر خاصة والريف العربي عموما أشد المعاناة .

كما انه من الصعب أيضا تصور مدى سيطرة التابو على الذهن البدائي ، ممثلا في عادات حفظ النصوص والترنم بها لتحقيق

غايات وأحتياجات ، قد تكون عصبية ، إلا انها في نفس الوقت منافية ومعرّقة لكثير من الطاقات الابداعية .

فالسكينة أو الطمأنينة التي تضيفها مثل هذه الترنيمات ، أقرب الى السكون منها الى الحركة والبحث ، والديناميكية والاقترام، وهو ما يتنافى كلية مع أهداف التربية - البيداجوجيا - المعاصرة والحديثة .

الفصل الثاني عشر

اللغة ... والفولكلور

من المفيد لجامع ودارس الفولكلور الاهتمام بدقائق
- فونيمات - اللهجة أو اللغة . واللغة مثلها مثل الكائن البيولوجي
الحي تخضع للتغيير ، بل هي تتغير فعلا ، وبأسرع مما نتصور ،
مثل ما يحدث للغات الحية من حولنا . فما بالناس بلغتنا العربية ،
التي لا تكف عن تمجيدها والتغني بجمالياتها ومحاسنها دون
سلبياتها ، وكأنها من المقدسات .

ودعاة الإبقاء على اللغة والنظر إليها كنوع من المحرمات أو
التابو الذي لا يجب أبدا مساسه ، بل ومجرد مناقشته واخضاعه
للحتميات العلمية والحياتية التي نعيشها ، والا وجب علينا أن
ننطق ، فهم - بحق - دعاة جمود .

فتغير الحياة وميكانيكيته الجديدة في نقل الصور ، يحدث
بالقطع تغيراته بالنسبة لادوات الاتصال جمعاء ، وأخصها اللغة .
وكما يقول عالم اللغويات ستيوارت فليكسندر كبير المشرفين على
اعداد معجم - قاموس - راندوم هاوس للغة الانكليزية فان الكلمات
التي نستخدمها تتغير اليوم بسرعة أكبر - ليس فقط بالنسبة
للعامية ، لكن بالنسبة لكل مستويات استخدام اللغة . وان السرعة
التي أصبحت تظهر بها الكلمات وتختفي قد تزايدت بشكل حاد ،

وما يصدق على اللغة الانكليزية في هذا الشأن يصدق ايضا على الفرنسية والروسية واليابانية ، وبالطبع العربية .

ويرى فليكسبتر ان وليم شكسبير قد يبدو اميا اليوم ، فعلى ايامه لم يكن عدد كلمات اللغة المفهومة يتعدى ٢٥٠٠٠٠ كلمة ، أما اليوم فالعدد يصل الى ٥٠٠٠٠ كلمة . فبالنسبة الى الانكليزية استبدل حوالي ٢٠٠ ألف كلمة وربما أضعاف هذا العدد ، على مدى القرون الاربعة المنصرمة ، بل واستنادا الى آراء هذا اللغوي الكبير ، فان معدل التغيير داخل اللغة وتواصلها قد وصل الى معدلات هائلة حقا ، منذ ما بعد الحرب العظمى الاولى ١٩١٤ ، وذلك نتيجة لثورة المواصلات ، وأخصها الراديو والتلفزيون .

بل ان التغيير لحق حتى مدلولات اللغة ، فأصبحت كلمة - أسود - المهينة تعني القوة السوداء ، بالإضافة الى استخدامات لكلمات الخنافس ، والضفادع ، والجاموس البري ، والثعالب ، والكلاب السخنة وهكذا ، ومما تستحسده فرق الجاز والروك ومسارح الشوارع وغيرها ، وتسجله اسطواناتها من كلمات كانت تعدّ خارجة أو ممجوجة لتصبح على الفور كلمات مشهورة جدا . والملفت ان مثل هذا التغيير الموازي للسرعة الاليكترونية لا يلحقنا هنا في مصر والعالم العربي بشكل كاف . كيف ؟

فاللغة عندنا ، ما تزال الى ايامنا هذه مكبلة بالاساطير وأبنيتها اللغوية . والاساطير تحكم حياتنا .

وكما تقول الأنسة لينا ماكليد ، فان آفة اللغة هي الاساطير .

وهناك مدرسة كاملة تعرف منذ منتصف القرن الماضي بالمدرسة الميثولوجية لدراسة الفولكلور ، أو لاتخاذ الفولكلور - برمته - مجرد خلفية للتبحر في الاساطير ، وذلك منذ يعقوب جريم ومن سار في فلكه من الدارسين الالمان ، منهم مانهاردت وشفارتز وألبيرت كون ، وأعلامهم باعا هنا هو الألماني الاصل الانكليزي المعرفة والثقافة ماكس مولر .

ووصل بألبرت كون في استخدامه لهذا المنهج الى حد بناء نظريته بكاملها (١٨١٢ - ١٨٨١) التي اكتملت في كتابه « أصل النار وشراب الآلهة » كعالم لغوي في كلا الالمانية والسنسكريتية ، شارحا أسطورة بروميشيوس اليونانية الذي جاء بالنار من السماء الى الارض ، فقط من خلال تعقبه اللغوي لاسم بروميشيوس ، وصلته بالكلمة أو الاسم السنسكريتي براماتياس .

وعندما تقدم بكون السن ، وضع كتابه عن « مراحل نمو الاساطير » ، أو مراحل تطور تكوين الاساطير لغويا .

وسار على نفس الدرب رواد هذه المدرسة اللغوية الميثولوجية عن الاصول - اللغوية - للاساطير ، والميثولوجيا الدينية بعامة ، مثل شفارتز ، ورأس منتصف القرن الماضي ماكس مولر ، في محاضراته في علم اللغة ، والاساطير المقارنة ، وهو في نظريته عن الاصل - اللغوي - للاساطير ، وسماه بعلة اللغة ومرضاها من كنايات ومترادفات واستعارات ومتشابهات الخ .

وطبعاً لا حاجة هنا الى شرح لوغاريتمات وطلاسم لغتنا الجميلة - العربية - من نصب ورفع ومطلق وكل ما يتصل باعرابها نسبة الى يعرب ابو العرب الساميين ، وينسب له انه أول من تكلم العربية وكان من فحول اللغويين الطبقيين المتبحرين في الاعراب ، فهو القائل : « وليس جمع خيراً من جمع ولكن جد خير من جد » .

وكما يقول العالم الانثروبولوجي الروسي الاصل برونسلاف مالينوفسكي (كركوف ١٨٨٤ - نيوهافن ١٩٤٢) فان اللغة - أي لغة - لا تلعب فقط دور الحارس أو الحامي للاسطورة ، بل ان اللغة هي في حد ذاتها لعبة الحكم والحفاظ على الاوضاع الطبقية الاجتماعية .

وبالطبع يذكرنا هذا، بمدى سيطرة مجموعة اللغات واللهجات - للعائلة - السامية التي انتهت وتبلورت في العربية - الفصحى - والعبرية . وكيف انهما ما زالتا الى اليوم مكبلتين ، أو هما

حارستين للتراث الاسطوري ، أو الوهم كما يسميه كافكا ، غير مدرك لدوره أو المصلحة المناطة به طبقيا .

كما يذكرنا هذا بمدى اكتمال روافد لغات العائلة السامية في الفصحى واتساع رقعتها ، لدرجة أنهت بها عديد من الحضارات السامية وغير السامية ، مثل الحضارة المصرية الفرعونية التي - لا بد - وانها مرت بتغيرات كمية ربما منذ أواخر الدولة الوسطى ، لحين دخول العرب مصر وسيادة العربية فيما بعد .

وكما هو معروف فقد أطلق الساميون واشتقوا من لغاتهم اسمائهم وأسماء أعلامهم وتقويماتهم ، فتسمية الساميين نسبة الى سام بن نوح وأصله في العربية والعبرية سام أو شام أو شم .

كما ان جده الأعلى ، الانسان الاول آدم ، نسبة الى أرض أدوم ، التي اكتشفتها منذ سنوات قليلة ، البعثات الحفريّة العاملة في الاردن وبادية الشام .

ولفظة آدم تعني أديم الأرض ، كما انها تعني الانسان - الأديم - القديم ، وارتباطها باستمرار الحياة يعني الحاجة للطعام أو الأدام (١) .

أما زوجته حواء فيشير اسمها الى الحياة والحيوات ، وبما ان حواء كانت قد جلبت الخطيئة الاولى وما أعقبها من طرد من الفردوس أو جنة عدن ، نتيجة لتوحيدها بالحياة ، وهي المخلوقة الوحيدة المستأثرة بالحياة والحيوات ، نتيجة لقدرتها على تجديد جلدها كما يرد في ملحمة جلجاميش الذي يدعوها بـ « أسد التراب » ، بعد مخاطراته ورحلاته العبورية للحصول على ماء الحياة أو بية الحياة ، أو نبات يعيد الشيخ الى صباه ، فكان أن سرقة الحياة ، وبهذا قدر للحياة تغيير جلدها ونيل طيلة العمر - بدلا من الانسان القديم .

وطبعا ترتب على طرد حواء من الجنة أو الفردوس عساياها الشهري الممثل في الحيض وسيادة الرجل الذكر عليها : « تكثيرا

(١) يطلق على السمن المخزون ، ادام في ريف مصر .

أكثر أتعاب حملك ، وبالوجع تلدين أطفالاً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك » .

ثم ذلك العداء الأزلي الرباعي بين الرجل والمرأة والحياة والشیطان : « انزلوا بعضكم لبعض عدو » .

وحواء الأولى هذه هي بذاتها أناثا أو أنثى أو أنثى ، كما وردت بنفس هذا الاسم منذ السومريين اللساميين { آلاف عام قبل الميلاد ، واكتمل اسمها في روافد اللغات السامية القديمة ، إلى أن وصلنا اليوم نفس الاسم ، بل والادانة الاجتماعية — أنثى — على اعتبار أنها أدنى منزلة ، وتعقلا من الرجل كامرأة — أو مره — أو أنثى « ناقصة عقل ودين » الخ .

مع ملاحظة أن أقدم أشكال العبادات البدائية تمثل عند عديد من مجتمعات العالم القديم ، وما يزال محفوظا إلى اليوم والآن في لغتنا الأسطورية مثل عبادة « الرحم » الخالق ، ومنه كما أشرنا في جزء هذا الكتاب الأول ، تواترت اشتقاقات العودة للرحم (١) في رحمة ومرحوم بل وحرام وتحريم ، ثم أسماء الله الحسنى رحيم رحمن الخ . . ، وأسمائنا عبد الرحمن ، رحمة ، رحيم ، رحمي . الخ . .

أما فيما يتصل بابليس أو الشيطان أو الجنى الذي أغوى حواء ، وعديد من الزوجات مثل « برهة » زوجة نوح التي أشعلت فلكه نارا قبل أن يكتمل بنائه ٣١ مرة . ومثل « رحمة » زوجة النبي أيوب نبي الإدوميين ، حين استجابت بدورها لغواية الشيطان أو الجنى .

فالجنى كما هو واضح من الاشتقاق اللغوي ، حارس الجنة ، ومنه يتواتر الجنون . وهو عادة ما يسكن كشیطان شيطان البحار والمستنقعات وآبار الماء بل والرأس مسببا الجنون ، كما قالوا بأن الرأس مكنم الخطايا . وجاءت صياغته من مادة أعلى منزلة من تلك

(١) وهو ما يكتمل فلسفيا اليوم في علمية مسرح وفكر الكاتب الأيرلندي الأصل الفرنسي الثقافة صمويل بيكت .

التي صيغ منها الانسان القديم ، آدم من اديم الارض أو طين العمق ، فهو قد صيغ من نار ، على العكس الكامل من حواء ، التي ترد في الاساطير الكنعانية الفينيقية أدنى منزلة من الرجل ، حين خلقت من الضلع السادس للرجل - آدم - أو ايل الكنعاني وهو اله الساميين الفينيقي الاصل المتجبر ، الذي عرفه اليونان في كرونس ، والذي تنسب له عادة التضحية بالابن البكري بل والوحيد ، حين ضحى بابنه الوحيد وسمي بالفعل - وحيد - عندما اجتاح الطامعون مدن الشام ، فأحرق وحيده تشريفا لابيه أورانوس ، وهي شعيرة وجدت بكثرة مفزعة الى اقصى مدى أي بمئات الالوف المؤلفة ، ويفسرها البعض بنوع من تحديد النسل البدائي أو الهمجي . بل وظلت سارية ومتأصلة الى ما بعد مجيء الاسلام . وطبعاً ما تزال بقاياها سارية حتى وقت قريب ، حتى فيما يتصل بوضع طفل أو نحره في أساس المنشآت الدينية ، بل والتي دخلتها الآلية كماكينات الطحين ، وربما يكون يوسف ادريس قد سمع أو انه لحق مترادفاتهما الى أيامنا هذه .

بل ان الاسم المفضل لبطل السينما المصرية - خاصة فريد الاطرش وأنور وجدي وعبد الحليم حافظ - هو « وحيد » وهو أحد عوامل ترويج الفيلم المصري في الشام في الخمسينات .

أما في أساطير العرب واليهود فان الله استخدم الرواسب الطفلية في صياغة حواء الاولى في الميثولوجيا العربية والعبرية .

والاخذ الثانية من بنات الله الثلاثة - اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى - فالعزى كانت النار ، ومعناها في اللغات الكلدانية والبابلية النار ، أما معناها في العبرية والعربية القديمة فهو الشدة أو القوة ، الى ان عرفت الى عزه ومشتقاتها فيما بعد ، العزه ، ويعزز وعزوه وعزه ، وهو اسم أصبح يطلق على جيل ما بعد ثورة يوليو من البنات ، ربما كنتيجة لتشديد زعيمنا الراحل عبدالناصر في استخدامه وإطلاقه منذ ١٩٥٦ .

أما شقيقتيها : الاولى - اللات - والثانية مناة ، وهما أيضاً بالنسبة للعرب والعبريين من أصول سومرية واكادية وبابلية ،

بأكثر من ألفي عام . فالات تأنيث الله في اللغات السامية القديمة ،
كما ان الاسم منى أو مناة أو منوات ، فله مترادفات واشتقاقاته ،
منها منى ، ومنية ، ومنى ، ومنها جبل منى الى اليوم في
السعودية .

وجمعها طبعاً منايا ومنوات ، وهو ما لا يزال يفرق الشعر
العربي الى اليوم .

ومن بين أسماء الآلهة التي حفظتها اللغة وخاصة الفصحى ،
اسم « بعل » ، وهو اسم اله أو صنم ، أصبح لقباً بمعنى زوج
أو سيد . وكان الساميون الأوائل وخلفائهم العرب والعبريين ،
يلقبونه - بعد أن أطلقوه على كل مظاهر الطبيعة من حولهم -
سيدنا ، وهو ما لا يزال الى اليوم بالنسبة لأنبيائنا وأضرحتنا
ومزاراتنا .

وحين استقدم صنمه الكاهن الخرافي المداح الشاعر عمرو بن
لحي الجرهمي ، ونصبه حول الكعبة فيما قبل الاسلام ، سماه
هبل - بضم الهاء - أو هو بعل وهو ما تواتر الى هبل - بفتح الهاء -
بعد أن حطم صنمه أو تمثاله المسلمون وتحولوا عن ديانتهم ، فكان
أن أصبح اليوم هبلاً ، أو خيبة .

وبالنسبة للاسم - هاجر - الذي يرد في ملحمة أو مديحة
سارة وهاجر ، وهي الزوجة الثانية التي تزوجها الخليل ابراهيم
- ايل - وأنجب منها اسماعيل أبو العرب الشماليين في نجد
والحجاز ، فيبدو ان مشتقات الاسم تواترت فيما بعد الى هجرة
- الزوج - للزوجة الثانية ، أكثر من ارتباطه بالهجرة أي هجرة
هاجر وابنها اسماعيل بكر ابراهيم الى مكة أو أرض فاران ، بعد
أن غارت وطردهما الضرة - أو الضارة - سارة ، الآلهة الام لقبائل
ابراهيم المهاجرة .

لكن اسم هاجر يرتبط بكونها الزوجة المهجورة أو المضطهدة ،
سواء أكانت زوجة أو جارية ، فعلى هذا تعارف على - أيتم -
تصنيفها في الفولكلور العالمي .

ومن اشتقاقات اسم هاجر ، ما يزال يتواتر - نسائيا -
تعبير ان فلانة زوجها هجرها ، وانها أصبحت هجارة او هجالة
او مهجورة .

أما سارة ، فينسب لها الرداء النسائي المعروف بالساري
الهندي ، ومشتقاته من يسر ومره ، وسار وثائر وثار .

ويكنى عن الاسم ابراهيم ، بأبو خليل ، اي خليل الله او
صفي الله - ايل - بالسريانية . ابرا معناها صفي او خليل ، وايل
هو كبير الآلهة السامية ايل ، ويرد بهذا الاسم فعلا - كبير -
في حفائر بيلومي ، ورأس شمرا ، وقرطاجنة ، وكريت .

ولقد خلف كبير الآلهة السامية ، ايل هذا اسمه على كثير
من الاماكن التي ما تزال مقدسة في سوريا ولبنان وفلسطين
واسرائيل بـ « بيتل » وتعرف بشكل مضخم أو « بيتول » ومنه
تواتر تعريف مريم بالعدراء البتول ، اي التي تنتمي الى بيت ايل
او ايلات ، ومن اسمه كما ذكرنا جاءت تسمية اسرائيل ، وملائكة
العرش وأسماء الاعلام العربية والعبرية والمسيحية ، مثل صموئيل
وجبرائيل وميخائيل أو ميكائيل (انجلو) ودانيال أو دانييل ،
وسعدئيل وسعدية ، ووائل ، وكامل ، واميل .. الخ .

وكما ان - كبير - كانت تسمية لاله او صنم فأصبحت
صفة ، كذلك - ملك - كانت اسم لاله او صنم أو طوطم عند قبائل
ثمود البائدة أو المندثرة فيما قبل الالف الثالث ق.م . ، وكانت أنشاه
الآلهة او الكاهنة - المومس - موالك عند العمونيين سكان عمان .
ومن الاسم الاسطوري للاله أو الصنم أو الطوطم « ملك » تواترت
بالضرورة ملكية ، والملكية والتمليك والتوريث كانت الهدف الاول
للعالم القديم ، فهو « اما مباع أو مشترى » ، بل ان هذه القبائل
من عبدة القمر ، قد حفظت لها اشتقاقاتها اللغوية اتخذت صلات
القرابة والرحم وأطوار العمر المختلفة من أسماء قمرية مثل : قمر ،
ونجم ، وهلال ، وعم ، وجد ، وكهل ، وهي كلها كانت أسماء
للآلهة القمرية منذ العرب البائدة في الجزيرة العربية ، عند الآلاف

المؤلفة من قبائلها وعشائرها التي عرفت باسمه السومري « س »
واسم « شهر » .

كذلك حفظت لهم روافد اللغات السامية ، تقديس جهة
اليمين ، التي أطلقوها ليس فقط على اليمين ، بل على كل ما هو
واقع على يمين القبلي ، ولذلك شملت تسمية اليمين الشام
بأسره ، ومنها تواتر أهل اليمين ، واليمن ، والميمنة الخ . . .

ويذكر تيلور (١) ان تقديس الناحية أو القبلة التي يولي
الناس وجوههم شطرها وهم يمارسون أعمالا معينة لها أهميتها في
حياتهم ، ولهذه الطائفة من الشعائر رمزيتها الواضحة المميزة نظرا
لارتباطها الوثيق بالشمس وبرحلتها اليومية من الشرق الى الغرب ،
أي انها شعائر توجيه مرتبطة بعبادة الشمس .

ومن هنا فمعظم الشعوب البدائية تؤمن بأن عالم الموتى يقع
في الغرب . وجهة أو تسمية الغرب ، المشؤومة أو التابو هذه ،
قد تكون متواترة أو مرتبطة بالغراب - النوحى - المشؤوم أيضا .
والنطق الشائع عند رؤية الغراب ، هو غرب ، أي اذهب الى
الغرب .

وما أكثر الاسماء الاسطورية ، أو أسماء الآلهة والاصنام
والطواطم التي تواترت الى أسماء أماكن وأعلام مثل : هيبة ، ونسر
الذي حُرِّف الى نصر ، وصفر ، وجاد ، وهامان ، وهامام ،
وسعد ، وسعدية ، وود الذي تواتر الى وداد ، ونفيسة ، وديان ،
وأمون أو أمين ، وأدون أو أدونيس ، وعوض ، وخلف ، وسامي ،
نسبة الى سام بن نوح ، على عكس أخيه حام ابن اللعنة ، أو
- الجام - الادنى منزلة .



وكذلك تضمين اسم الاله أو الالهة لبناته أو طائره أو طوطمه
المقدس ، مثل شجرة الجميزه - المقدسة - (شجرة صخور)
والتي تنسب الى الالهة المصرية الام ايزيس التي تعارف عليها العرب

(١) تيلور - أحمد أبو زيد ص ١٧٩ .

باسم « ايزه » أي جم - ايزه أي شجرة ايزه . ومثل ليمون أو ليمون
بمعنى ماء - آمون ، زيت - أون أو زيتون .

كما ان أسماء الآلهة والآلهات القديمة من شمسية وقمرية
وطواطم ، ما تزال تتواتر حولنا ، مثل الاله القمري - القط - بس ،
اله مضر وغرب آسيا .

وكانت كعبة هذا الاله دبستس المعروفة الى اليوم بالقرب من
الزقازيق بوبسطه أو تل بسطه أي تل بس . ويذكر هردوت (القرن
الرابع ق.م .) احتفالات أو موالد - المصريين - بجميع أو بانثيون
قطط بوبسطه ، فقبل وصول الزوار اليها يعري النساء ثيابهن
« ويحتفلون بالعيد ، ويقدمون أضحيات عظيمة ، ويستهلكون من
الخبز أكثر مما يستهلكون في كل العام ، ويبلغ عدد الزوار ، وفقا
لقول أهل البلاد ، أكثر من سبعمائة ألف من الرجال والنساء
عدا الصبية » .

وقد وجدت تماثيل الاله بس ، بأعداد هائلة في فينيقيا
ومستعمراتها في جزر البحر الايجي واليونان ، وقرطاجنة فسي
تونس .

كما يذكر هردوت انه عندما كانت تموت قطة في منزل مصري ،
يخلق سكان المنزل حواجبهم فقط ، أما عندما يموت لهم كلب
فيخلقون شعر البدن كله حتى الرأس .

ومن اسم الاله الابن اليتيم حورس - ورمزه العين الحارسة
أو ان « العين عليها حارس » ، وما نزال الى اليوم نقول حور العين
أو حوراء العين . الخ .

ومن اسم الهة الاخصاب الجنسي للناس والبهائم عشتار ،
تواتر عشار وعشير ومعاشرة وعشرة وعشيرة .

كما ان من تسمية - فرج - المرأة ، ما يتوحد مع الفرج
والتفريج ، والفرجة .

فرغم ان مشكلة المشاكل في اللغات القديمة هي المعنى ،

الا أن لغتنا ما تزال حافظة لاصولها الاولى الطوطمية ، أو الانيمية
الروحية ، من ذلك كلمات تابوات ، حرم ، وتحريم ومحرمات ،
وحرام - الحج - ومحروم ، وحريم ، وحرملك في العصر التركي
الملوكي .

ومثل شعيرة أو أشعار وارتباطها بالشعر وقدسيتها عند
الساميين والآريين على السواء .

فالآريين تسموا باسم شعب بهارات ، نسبة الى الهند أرض
البهارات ، وكذلك تسمت ملحمتهم العظيمة - ١٠٨ ألف بيت من
أبيات الشعر الثمانية المقاطع - ملحمة الماهابهاراتا أي أهل أو بلاد
بهارات .

واستنادا الى نظرية سير ريتشارد تميل بالنسبة للقوانين
التي تحكم اللغة ومشتقاتها والاعراب الذي تخضعه قوانين وقواعد
محددة في معظم اللغات العالمية منذ عام ١٨٩٩ ، فان الاشتاقات
اللغوية تجيء تحت تأثير الاحتياجات النفسية أو العصبية ، -
والمادية ، والاجتماعية .

فالمعنى هو مشكلة المشاكل في اللغات القديمة . وكما يقول
مالينوفسكي فان معنى الكلمات يهدف الى وظيفتها أو منفعتها
أو استخداماتها . فقد اعتقد مالينوفسكي بأن هناك ارتباطا كبيرا
فعلا بين اللغة - السحرية أو الطوطمية - واشتقاقاتها ، وان
بنائية اللسان والتركيبات اللغوية تؤدي فعلا الى احتياجات أو منافع
عصبية ، الى جانب منفعتها لذاتها . ومعنى هذا ان قراءة الرقى
والتعاويد ، وترتيل النصوص الدينية والتجويد وأسابيه يلعب
بالضرورة دورا في أعصاب السامعين .

وكما يقول ارنست كاسيرر ، فقد تتغير العادات والافكار
الدينية بمرور الزمن ، أما كلمات هذه التراتيل وإيقاعها ، فانها
تبقى بغير تغير على الدوام ، وعادة ما تنشأ دون فهم لها .

ويلاحظ ان نصوص هذه التراتيل الشعائرية أو الدينية ،
تتحكم بنائية اعرابها اللغة برمتها ، وليس العكس . ومن هنا تظل

اللغة اسيرة قواعد أو بنائية النص الديني ، بدلا من أن يحدث العكس أيضا .

وكما هو معروف فإن الترتيلة الدينية ، هي الحارسة الاولى للاسطورة أو مجمل الاساطير .

وأرجع البعض هذا الى عبادة الموتى وتمثل حكمة الاسلاف ، الذين تعارف الساميون على عبادتهم ، فكانوا يدفنون موتاهم من الاجداد معهم في نفس منازلهم ، وتعاملوا مع جثثهم ورممهم بأساليب حياتية ، يحادثونهم ، ويشكون لهم ، ويعزون وجوههم مقبلين ومستشيرين في كل الامور وقبل اتخاذ أي قرار : زواج ، حرب ، هجرة ، قتل ، بيع ، شراء . الخ .

فالعرب والعبريين - خاصة - كانوا من أقدم عبدة - جثمان - الاسلاف أو التابوت ، تابوت العهد ، بل وربما كانت هناك اشتقاقية بين كلمة - تابو - أو الشيء المحرم أو الحرام ، وبين التابوت أو تابوت العهد ، بمعنى ان كلمة تابو ، كلمة أو اشتقاق سامي ، أكثر منه بولونزي ، وهو على ما تعارف عليه جميع الانثروبولوجيين الذين أرجعوا هذا التعريف الى أصله البولونزي .

ولا يمكن تصور مدى الصراعات والحروب القبائلية الطاحنة لدرجة الإبادة في النزاع على جثمان آدم ، أو رأس عيسو أو العيص ابن اسحاق ، أو عصا شعيب وموسى ويوسف - وهي شارة سلفية - على طول تاريخهم الطوطمي .

بل ان كلمة حرب أو سنحارب ، منحدره الى اليوم بنصها ومدلولها منذ أسرة أو مجموعة الملوك الاشوريين المحاربين القساة ملوك سوريا العليا الذين عرفوا بنفس هذا الاسم - سنحاريب - وقادوا سلسلة من الحروب الطاحنة ضد الامبراطورية الفارسية الايرانية منذ أن هزمهم سنحاريب الاول في ٧٠٣ ق.م . وتملك ايران ونصب ابنه سنحاريب الثاني بابل .

وتعارف الساميون من عرب وعبريين على تسمية فراعنة مصر ، باسم عون أو فرع عون ، واعتبروهم خارج النسل السامي ،

وما تزال الآلاف الكثيرة جدا من حكايات وخرافات الاعوان تتواتر شفاهيا الى أيامنا هذه على طول أقطار العالم العربي .

كذلك تعارف الساميون على تحقير ملوك العراق أو نماردة بابل ، ووجد اسم - بابل - في الآثار والمدونات التاريخية الفارسية الإيرانية ، منذ أن هاجمها قورش في سنة ٦١٥ ق.م .

وما يزال الاسم محفوظا الى اليوم في إحدى مقاطعات أو مديريات العراق المعروفة باسم نيمرود ، وفيها كشف الحفري بولسين ، آثار نيمرود وآشور المحفوظة بالمتحف البريطاني .

ويبدو ان الكريتيون والإيجيين اليونانيون عامة كانوا أول من اخترع الكفنة ، فلقد تعارف على تسميتهم المصريون القدماء منذ الدولة الحديثة - الكفتيو .

ومن المعروف ان الفينيقيين الشوام ، قد استعمروهم منذ أقدم العصور - الألف الثالث ق.م . - ويبدو انهم قد تعلموا منهم عمل الكفنة ، ولهذا تعارف الكتبة المصريون منذ العصر البطلمي على تسمية الفينيقيين أنفسهم بنفس الاسم « الكفتيو » .

كما انهم تعارفوا على تسمية ايطاليا وجنوب فرنسا باسم بلاد الغال ، أو الغول ، كما قد يكون الاسم تحريفا لبلاد - العال - على اعتبار ان اللغات السامية القديمة لم تكن تستخدم التشكيل أو التنقيط ، كذلك حرّفت حضارة أو عصر أرك - كما يسميها التوراة - الى الوركاء ، وكذلك حضارة ما قبل التاريخ المعروفة بسوس التي يرى البعض انها أقدم حضارات آسيا الغربية .

ومع اتساع رقعة وحجم الانكباب على دراسة علم الانسان الثقافي - الانثروبولوجيا - باستخدام المناهج البنائية في السنوات القريبة ، يبرز أول ما يبرز الاهتمام بدراسة اللغة ، فاللغة مجموعة مترابطة من الاوضاع الكلامية التي تراعيها وتتوارثها جماعة معينة في الكلام . فالجماعة أو المجتمع أو البلدان التي تتكلم لغة معينة، مثل الفصحى أو عامياتها ، يعتبران معا - الجماعة واللغة - من أهم ملامح البناء الاجتماعي ، فهناك علاقة حميمة أو متكافئة بين

البناء الاجتماعي واللغة . ذلك ان اللغة ما هي الا نسق أو بنية .
لها خصائصها العامة المشتركة ، وتخضع لابنية عقلية وقوانين
اللغويات . بل ان مظاهر الزمن تخضع أيضا الى التحليل اللغوي ،
وهو ما لفت اليه تومبسون عن طريق القوانين التي وضعها وتوصل
اليها وورف في دراسة اللغة في مجتمع الهوبي ، والنتائج التي
توصلت اليها الأنسة غلاديس ريتشارد عن قبائل النافاهو عام
١٩٥٠ ، وما أثبتته نادل عن وجود علاقة بين النظم الدينية والكهنوتية
والسحرية في مجتمع ما ، وبين مظاهر نموه النفسي واللغوي ،
أو اشاراته - الكلامية - التي اتفق عليها ب « الفونيمات » ، والتي
أمكن حصرها بدقة في حدود بضعة آلاف - مقطع أو فونيم - .

ومن هنا يصبح من المفيد جدا اهتمام مراكز الفولكلور
وهيئات جمع التراث ، بملاحقة الادوات والاجهزة التقنية المتقدمة
التي أصبحت تستخدم بالنسبة للتسجيلات والابحاث اللغوية .

واني لاتفق مع عبد الحميد خواس في ان حقول البحث في
الفولكلور والاساطير عندنا على مستوى بلداننا العربية ، ما تزال
خسبة ، خاصة من حيث هذا النسق اللغوي للعربية وأصولها
وروافدها وما انتهت اليه ، بمعنى انه ما يزال من الميسور بالنسبة
لنا في منطقتنا العربية التوصل الى نتائج أقرب الى الدقة العلمية،
بشكل أسرع وأقل مشقة مما أصبحت تعانيه مجتمعات ما فوق
التصنيع ، في الغرب عامة .

بل انه ليسرني أن أختتم ملاحظاتي حول أهمية دراسة اللغة
واعادة التعرف على جذور لغتنا العربية ، بالإشارة الى بحث قصير
أو فهرست نشر بمجلة « التراث الشعبي » العراقية بالعديدين
الثاني والثالث عام ١٩٧٥ ، حول أصول بابلية لكلمات عربية ،
متداولة ، ليوسف داود عبد القادر ، مستندا على ظهور الطبعة
الاخيرة للمحمة « اتراجاسس العراقية » أو ملحمة الطوفان البابلية
التي ترجمت من البابلية الى الانكليزية عام ١٩٦٨ ، وتولى ترجمتها
الاثريان الكبيران « جي . لامبرث » و « ميلارد » وألحقا بها فهرسا
بالكلمات البابلية التي وردت في نص الملحمة ، رتب حسب حروف
الساكنة ، أو حسب جذور الكلمات بالنسبة الى أصلها السامي .

وعن طريق مقارنة هذه الكلمات البابلية القديمة — آلاف عام — بما يشابهها من كلمات عربية فصحي أو عامية ، يمكننا القول بأن أية محاولة لغوية علمية لوضع معجم حديث اللغة العربية لا تستند الى دراسات مقارنة في اللغات السامية ، ومنها العربية ، ربما جاءت عقيمة لا مجدية .

بل انه يمكن ملاحظة ان معظم ما نستخدمه في حياتنا اليومية الآن وفي هذا المكان ، له أصوله البابلية والاكادية والكلدانية .

وممن ذلك : واو العطف ، وابن ، وأبو ، ويوم ، وعين ، وعش ، وأب ، وعباب — الطوفان أو السيل — وادان أو آذان بمعنى عين وقتا ، والاذن ، وأخذ ، والاخير ، وأكل ، وايل — أو الاله ايل ، وعلى أو فوق ، وبلد ، وعليل ، وأم ، وعم ، وعوم ، وأنا أكون ، وزمان ، وعسل ، ويشير ، وأقل ، وorman ، وباب ، وبعل — أوسع آلهة الشعوب السامية ، أو الزوج ، أو رب الشيء ومالكه — وأنشاه البعلة ، بمعنى ربة البيت ، وبشع ، وبيت ، ويبكي ، وبكر — بمعنى المولود الاول فاتح الرحم — ، وبانوا أو يبني ، وبينو أي ابن ، وبنيان ، وبشرى ، ويبرك ، وجيل ، ودق ، ويدلي — ينزل أو يذل — ، ودم ، ودمع ، ويزكي ، وذكر ، وزمار ، وذقن — أو لحية — ، وزري أو محتقر ، ويكسب ، ويطرد ، وكل — أو جمع — وقرب ، وقرص ، وكبس — بمعنى ملئ الشيء — ، وكرش ، وقصد ، وكتم ، ولا ، ولوى — لواه يلويه ليا — ، ولت — بمعنى اللت والعجن — ، ولب — بمعنى قلب أو لب الاشياء — ، وبيت ، وميت ، وملا ، وملك ، ومن ؟ ، ومما ، ومر ، ونون — أي السمكة النون — ، والحوث ، ونهر ، وقدم أو سم ، وريش ، ورب ، ورجم ، وركب ، وصلة — أو قرابة ومنها صلة الرحم — ، وناس ، ونشر ، وزق — زقاق — ونبا ، ونحر ، ونير — أي الظلم — ، وبلل — أي تبليل الاسنة — ، ودهر ، وداس ، وثنان ، وسرق ، وذباب ، وخلق ، وتكر — أي أنكر وتجاهل — الى آخر ما جاءت به هذه الملحمة البابلية من كلمات عربية فصحي أو عامية ، ما تزال تعيش على ألسنة شعوبنا العربية ، برغم الأربعة أو الخمسة آلاف عام التي تفصلنا عن البابليين .

الفصل الثالث عشر

هذا التراث الجبري الضام

واذا ما كان الهدف الاخير لهذا الكتاب وسابقه ، محاولة الدفع بدعوة إعادة تفهم هذا التراث - العربي والعبري - السامي ، الذي ما يزال يلعب دورا دافعا لحركة التاريخ ، لتحقيق أغراض ومصالح مؤكدة ، لعل أبسطها سلسلة القهر والاضطهادات والحروب المتوالية - تاريخيا ورياضيا - من اضطهادات عنصرية ، ونوعية ، وعرقية ، وتجيلية تتصل بالفواصل والمسافات بين أطوار العمر المختلفة . وهو ما نشهده أو نقرأ عنه عنيفا داميا على طول شرقنا العربي .

وقد يكون الاسترسال في التعرض لسلبيات هذا التراث هو في حد ذاته تابو أو مناطق لا يصح اجتيازها أو إخضاعها للتعرف والمناقشة . فكيف يمكن مناقشة المقدسات والتراث الخالد ، أو هو الحافظ والحارس والمهيمن على مصالح واضحة متسلطة لها تكاملها الطبقي السياسي .

وعلى هذا فلا مجال هنا للاخذ بنهج دفن الرؤوس في الرمال ، ونحن نتعرض لموضوع التعرف على موروثاتنا الثقافية بهدف عقلنتها ، وفي اتجاه الامتثال لاحتميات العصر العلمي التكنولوجي الذي نعيشه ، بشقيه الاشتراكي الشيوعي ، والاستعماري الإمبريالي .

فلعل أبسط وأجدي إيجابيات المعرفة وتفهم هذا التراث فيه
إنهاء لكافة أنماط وأشكال المزالق الحضارية وأزماتها في المحل
الأول بمفهومها العقلي الديموقراطي السلوكي ، منسدة علاقات
وممارسات الشارع على طول مجتمعاتنا العربية الإسلامية ، حتى
حروبها وأزماتها السياسية . ولعل أبسطها هنا على مدى السنوات
العشر الأخيرة - كمثال أقرب - هو سلسلة حروب وافتراقات
الشرق الأوسط منذ سنة ٦٧ تتقابل وتتعاصر معها حروب شبه
القارة الهندية - الإسلامية - للهند وباكستان وبنغلادش ، وهي
جميعها حروب أقرب إلى الهزات والتشكلات الإقليمية العنصرية ،
منها إلى الحروب التحررية ، ولنقل الطبقيّة . وبالطبع هناك
استثناء واحد ، هو حالة ردود أفعال التحرر الوطني واسترداد
الأرض .

وبالنسبة لاستخدام هذا التراث ، خاصة جانبه الانيزمي ،
على المستوى الداخلي ، فانه إذا ما أخذنا مثال واحد أقرب ،
ولتكن النتيجة المزرية المفقدة لانتخابات مجلس الشعب المصري
لعام ٧٦ ، والاستخدام - الدنيء - لاسلحة الإرهاب الديني ، إلى
جانب التحالفات العرقية والقبلية العرقية ، وما من مرشح في
ريف مصر ، لم يستهد بأشجار وفروع العائلة - والنسب القرابي -
من سلاسل نسب وعشائر وبطون مكونة للبنيان السكاني للدوائر
الانتخابية ، وبطرق تدعو إلى كل تهكم ، برغم النتائج السياسية .

فلعل من منافع إعادة تفهم تراثنا هذا ، فيه إنهاء واعادة
تصحيح للكثير من أنماط وأشكال القهر والادانة والتجبر الطبقي
والتعصب والاضطهادات بمختلف أشكالها .

من أهم هذه الاضطهادات بالطبع هو الاضطهاد النوعي ،
بمعنى تفوق وتسيّد الرجل الذكر على المرأة الانثى ، وما يستتبع
هذا من ارث وحقوق شرعية ، وحجر وتنكيل . والذي يلعب
بالتالي دوره في تخريب الأسرة ، مواصلاً توالده - الذاتي -
التخريبي ، بما لا نفع منه إلى ما لا نهاية .

كما ان من المفيد معرفة ان أي شكل من أشكال الثورة أو

الحركة النسائية لاستعادة تعقيل وضمع المرأة في بلادنا - بما يفيدها ويفيد الانتاج بعامة - سيؤثدا في المهد هذا التراث السامي - الذكرى - الضاغط المتجبر .

والملفت هنا ان معظم علماء المصريات ، يأسفون أشد الاسف ، للوضع المتقدم الذي كانته المرأة المصرية منذ الدولة القديمة ، والذي اخذ في التدهور التدريجي في العهد المتأخر نتيجة لانفتاح مصر على تخومها السامية الاسيوية . فيترحم د. فلاندرز بيتري ، أول من أنشأ فرعا خاصا لدراسة المصريات بجامعة لندن ، وهو مسا أصبح تقليدا في معظم جامعات العالم فيما بعد ، على ذلك المدى المتقدم الذي تكشف عنه برديات الدولة القديمة ، والذي واصل انحطاطه على مدى عصور اتصالات مصر بالساميين الى آخر مداه .

ولعله من الاليق تسجيل هذه الملاحظة الصحيحة بالنسبة لاحتفاظ المرأة المصرية بتفوقها النسبي على زميلتها وجارتها - العربية - سواء بالنسبة للتخلص من الحجاب ، أو المشاركة العامة في الحياة المعاصرة ، أو - حتى - بنسق التابو ، ومنه - تابو - الذبح ، من طيور وحيوانات ، وهو ما يحرم على معظم نساء مجتمعات العالم العربي ممارسته ، على اعتبار إنها - أي المرأة - كائن نجس .

ولعل ثاني هذه الاضطهادات التي قد ينهيا عقلنة هذا التراث القبلي الفاشي في مجمله ، هو اضطهادات أطوار العمر المختلفة بعضها لبعض ، في مجتمع يقدر الشيخوخة ، ويركل بالتالي ما عداها من أطوار ، من شباب ومراهقة وطفولة .

ويمكن هنا ملاحظة الاشتقاق اللغوي بين مشايخ وشيخ ، وهو ما يستوجب صفة القداسة . وقد تكون مئات الالوف من الاضرحة المنتشرة في قرى مصر والبلدان العربية بالملايين ، ما هي الا مقابر لرفات شيوخ قبائل وعشائر وعائلات سالفين ، يتبرك بهم أسلافهم الى اليوم . مع ملاحظة ان السلفية ، ومرادفاتها في الشعر العربي ، البكاء على الاطلال ، يضاف اليها أغاني أو مرثي ديبورا - أول شاعرة في العبرية - وارميا ودانيال ، بالنسبة للشق الثاني

من التراث السامي ، وهو العبري . هذه السلفية أو الآفة الحضارية نقيضة الواقعية والمستقبلية ، كانت على الدوام ملمحا تراثيا ساميا ، مثلها مثل القدرية والدهرية والوعيدية . وعن طريقها كان علماء ما قبل التاريخ ، الحفريون ، يتعرفون نوعياتهم الحضارية .

وعلى سبيل المثال ، يصل تقديس الساميون لموتاهم - أو أسلافهم - الى حد دفنهم معهم في بيوتهم وسكناتهم أو على مقربة منها ، وذلك حتى يتسنى لهم تعرية وجوههم واستشارتهم في كل ما يعنّ لهم من تصرفات مصيرية ، كالحرب والهجرة والزواج - وهكذا . وعن طريق هذه العادة بالطبع يتعرفهم الحفريون ، مثلما حدث بالنسبة لبعثة جامعة فيينا التي عملت في الدلتا حتى وقت قريب ، بحثا عن أصل الهكسوس ، ورجحت انهم خليط قبائلي سامي متحالف .

كما ان من سلبيات هذا التراث اضطهادات وقهر أطوار العمر بعضها لبعض على طول تاريخ العالم القديم ، وكيف كان - شيوخه - يتلذذون بمصمصة عظم الاطفال . وطبيعي وبالتالي اضطهاد المراهقة - بكسر العين - منذ الصغر ، ثم تجبر التراث عامة في طاعة الوالدين .

ولعل في احتفاظ اللغة بالمكونات الاسطورية لهذا النسق - أطوار العمر - في تسميات : جد وكهل وبعل - زوج وأب - وعم ، ما يغني عن الكثير ، ذلك انها كانت أسماء ونعوت لآلهة وأصنام وطواطم سالفة في منزلة الارباب ، وهو ما يتضح أكثر بالنسبة لتراث الجزيرة العربية ، وبالتحديد تراثها الحفري منذ الالف الثالث قبل الميلاد .

ويمكن طرح مفارقة ملفتة بين ما يملكنا عقائديا ، وما يحدث في العالم من ثورة شبابية مستقبلية ، تفرض اليوم علما جديدا تماما عن خصائص ومكونات واحتياجات أطوار العمر المختلفة من طفولة ومراهقة وشباب وشيخوخة يعرف بعلم الاجيال .

كما ان من ايجابيات هذا الاتجاه وهو إعادة تعرف أصول وخصائص تراثنا الفولكلوري ، وفي اتجاه عقلنته انهاء للاضطهادات

العنصرية والدينية ، التي تتحيز فرص انطلاقها الدموي على رقعة العالم العربي بين وقت وآخر معبرة عن مصالح وضغوط ، تجيء عبر دورات متناسقة ، وفي أوقات الحروب والكوارث القومية . بل هي ذاتها تشكل الكيان الكلي لمختلف إبنيتنا أو أنساقنا البنائية ، ودراسة مثل هذا النسق ، لا يمكن أن تتم وتكتمل بمعزل عن دراسة بقية الانساق التي تؤلف البناء الاجتماعي بعمامة .

وطبعا لا يمكن انكار مدى ثقل ما يشكله هذا التراث الغيبي اللاعقلاني كما عرفه د. فؤاد زكريا ، أو العاطفي كما عرفه للمرة الاولى مالمينوفسكي ، من اضطهادات عصبية سامية تتمثل عند اليهود ، في شعب الله المختار ، وعندنا في الاعتصام ، واعتبارنا خير أمة أخرجت للناس كما هو مكتوب بخطوط قبيحة عند مداخل مدن الدلتا بالذات ، واللافتات الخطية لتزيين البيوت والقاعات ، ومنها قاعة اجتماعات الجامعة العربية !

ولعل في توارث هذا التراث في تكامله البنائي ، المحكم التنسيق والدقة ، والحافظ في المحل الاول لمصالح الارث والميراث والتوريث ، يقابله من الجهة الاخرى ، تكامله المحكم التنسيق البنائي مع مجاوره وهو التراث الآري - في الهند وايران - وكلاهما واصل امتزاجه وسريانه أو تدفقه الى اوروبيا والعالم الجديد مع موجات وفتوحات العرب واليهود فيما بعد ، حاملا بذوره القبلية الفاشية التي اباحت شريعة - أو شعيرة - الحرب والاغارة والقتال ، دفاعا عن « التراث الخالد » وما يحرسه من مصالح ، بما يعيد الى الازهان بشكـل مؤكد عصر الحروب الدينية التي تكونت عبرها الدول والدويلات القومية ، التي فيها تشكلت النظم الرأسمالية والتي كانت تعبيرا عن تقلص وموت نظام هرم ، والالام المصاحبة لمولد نظام جديد ، لحين مجيء عصر التنوير - القرن ١٨ - وانحسار الكثير من هذا التراث الخالد ، لكن دون أن يتخلى كلية عن مكوناته الفاشية الملازمة للاغارة والحرب ، كما سنها وأباحها بل هو فرضها التراث السامي ، للحفاظ على كلا التركيبين السفلي والعلوي أو المادي الطبقي والعلوي الثقافي العقائدي .

ولعل في شرعية الحرب القبائلية ، والدود عن الحمى ، في مرحلة العشائر المتحالفة والمهاجرة المفيرة ، ما يبرره ، منذ الجاهلية - ه آلاف عام - وعصور الظلمات .

أما اليوم فلنا أن نتصور مدى التطور اللامحدود الذي صاحب تطور الاسلحة ، من عصا ومقلع وخيول وسيوف ، الى مدافع وذرة وهيدروجين وميكروبات وأجهزة اندار مبكر .

وبحسب نهج المنظمة الدولية للثقافة وشعاراتها ، فانه اذا ما كانت الحروب تنشأ أو تومض في مخيلة البشر ، فان في الامكان اقامة حصون السلام ، وهذا يستلزم بالطبع اعادة صيغ المخيلة ، خاصة السامية ، ونظيرتها الآرية التي ابلت العالم بشرور حربين عالميتين في مدى النصف الاول من هذا القرن ، الى أن انحسرت وانكسرت شوكتها ، مسلمة دورها ومخيلتها - القبلية - لتوأمها المتاخم والمتوازي - السامية .

بل كان للسامية والساميين - الذين يدعي اليهود انهم طلائعها - دورهم أيضا في مسببات ودوافع هاتين الحربين العالميتين الشنيعتين .

ويجيء اليوم الدور على السامية ، بعد افلاس النظريات الآرية القبلية الفاشية التي تبلورت في النازية الهتلرية ، التي كان احد بلاياها ومسبباتها المفهوم اللاهوتي الغيبي في تدوين وتفهم التاريخ - الثقافي - والتي لم تنظر أبدا للفرد على اعتبار انه كائن سياسي . وان الهدف الاخير للاهوت والمنزلات والمعتقدات - قد يكون - خلاص الفرد ، لا المجتمع والدولة ، كما يرى توفيق الحكيم ويحيى حقي ولويس عوض ، ومن مدخل ومفهوم ان الهدف الاخير للتاريخ هو التوصل الى طبيعة العقل ، فالتاريخ ما هو الا صراع دائم من أجل الحرية - مرادفة العقل - التي أدرك زعيمنا الراحل جمال عبد الناصر انها - الحرية - لا تتحقق بمعزل عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية ولقمة عيش الناس خاصة في مصر حيث مشاكل الانفجار السكاني العاتية المستعصية .

فيمكن استخلاص المسببات الفعلية التي اكتملت في النازية

الهلترية وبورتها هذا التراث المتزاوج الآري السامي - الانيزمي -
الروحي . وكما هو معروف فان نظرية « تحقيق الروح » ما هي
الا حركات مضادة مباشرة للعقل ، فالروحية والطوطمية اتخذت
من الدم والارض هدفا بلا معايير عقلية ، وهو ما كانته بالضبط
هذه القبائل - الآرية السامية - التي اعتبرت ان الوجود الانساني
الحق، ينحصر اول ما ينحصر في التضحية - الفداء والاستشهاد -
غير المشروطة ، وما أكثرها وأبشعها عند تلك القبائل ، التضحية
غير المشروطة بكل بكري أو فاتح رحم . بل لعله من الصعب تصور
مدى التهام هؤلاء الاسلاف لاولادهم بالحرب والواد والقتل
والاغراض ، من استجداء الحظ والمطر ، حتى اغراض تحديد
النسل البدائي ، وصراع الطعام (١) .

فهذه القبائل التي حملت ونشرت تراثها الطوطمي وخزعبلاتها
عبر كل مداخل أوروبا ، بدءا من جنوبها ، الى غربها وشمالها ،
حتى هولندا والسويد ، قد حملت بالطبع تراثها هذا الدامي .
وأورد فريزر حكاية أو خرافة عن ملك السويد الشيخ الذي أخبره
عرافوه بأنه سيموت بموت آخر أولاده التسعة ، فكان يضحى
بقتل ابن سنويا ، الى ان قتل أو هو اغتال آخر أبنائه التسعة ،
وبموته مات الملك الشيخ ، ودفن في « أبسالا » (وهي المدينة
الشهيرة حتى أيامنا في السويد) .

وهي حكاية عن قتل تسعة أبناء ، تتطابق مع ما حدث لسالفه
السامي العربي لقمان الحكيم مع نسوره التسعة الذين كانوا
بمثابة آلهته أو طواطمه ، فهو لقمان ذي نسور ، وكان يطلق على
اليمن - متضمنة الشام ولبنان وفلسطين - بلاد ذي نسور ،
فكانت أنسر لقمان في منزلة أبنائه كما يتضح من أسمائهم :
خلف - والمصون - وعوض - وآخرهم النسر لبد . وبموت آخر
نسوره - لبد ذاك - مات الحكيم لقمان .

والدين يموتون من مدى ثقل وخزعبلات هذا التراث السامي،
للشرق الأدنى القديم ، الذي حمل الى أوروبا موجات اثر موجات ،

(١) انظر « صراع الطعام » .

يمكنهم تعرف مدى هذا الثقل من آلاف المصادر الكلاسيكية العربية منذ ابن الكلبي - هشام ومحمد - والطبري ، والشهرستاني ، وابن حجر ، وابن وحشية الكلداني ، والهمداني ، وابن اسحاق ، ووهب بن منبه ، والقلشندي ، وابن قتيبة ، وابن ديسان ، والكندي ، والدميري .

فأنت تجد في خضم هذا التاريخ الاسطوري ، أو هذه الاساطير التاريخية ، ما يهم الحفري أو الاركيولوجي ، من اطلال وآثار بقايا الحضارات اليمنية الغابرة ، منذ حضارات قحطان أو يقطان التي يعتقد بأنها هي بداتها ما حملت فيما بعد الى اميركا اللاتينية منذ منتصف الالف الثاني قبل الميلاد الى المكسيكو وبيرو، وعرفت بنفس اسمها السامي يقطان الى اليوم .

تجد اماكن اطلال حضارات قحطان وحمير ، وعاد وثمود وجرهم والعماليق ورأثن، محددة بدقة تخدم الحفري الاركيولوجي موصوفة في اليمن والجنوب العربي في كتب الهمداني ووهب بن منبه . كما تجد نفس الشيء بالنسبة لتاريخ أبو الفدا حاكم حماه - في سوريا .

كذلك يجد الباحث في الاساطير ، خصائص كل اله من آلهة أو أصنام مكة وعددها ٣٦٠ بعدد أيام السنة القمرية موصوفة بكل دقة في مؤلفات هشام وابنه محمد الكلبي اللذين عاشا في القرن الثالث الهجري - العاشر الميلادي - ووضعوا موسوعتهما الهامة عن آلهة وطواطم الجزيرة العربية خاصة السعودية اليوم ، المعروفة بالأصنام .

وبالطبع يجد باحث الفولكلور ما يفنيه من حكايات وخرافات الجان والنداهات عند كل هؤلاء بلا استثناء ، بعائلاتهم وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم وأسمائهم - أقصد طبقات الجن - . أما في حالة تخصصه في حكايات الحيوان والطيور والزواحف مثل الضب والجراد المباح أكلهما - كتابو - في معظم المناطق الصحراوية في الشرق الاوسط - المعاصر - خاصة الجزيرة العربية ودويلات الخليج ، بينما يحرم أكلهما نفس الثابو في بعض المناطق الزراعية

والساحلية ، تجد معنا لا ينضب من أنماط هذه الحكايات
- الطوطمية - التي يقال بأنها أكثر قدما من الاساطير ، عند
الجاحظ ، والدميري ، عن حكايات الحيوان والطيور والنبات
والحشرات والهوام .

وبالطبع فانت محظوظ ، لو انك تبحث فيما انتهت اليه
الحضارات السامية من سومرية وبابلية وكلدانية المعاشة في
العراق ، حيث بقايا سومر وجلجاميش وبابل - وسورها الشهير -
ما تزال موجودة بأسمائها الى اليوم .

أما في سوريا فسيصادفك بقايا الاشوريين والكنعانيين
والفينيقيين ، في رأس الشمر ، وقادموس - اسم اله - وبانياس ،
- اسم شاعر أسطوري أسبق من هوميروس - ثم بقايا حضارة
أفاميا وتل مردوخ - أو الاله ماردوك - التي تثير باكتشافها الاخير
- عام ١٩٧٣ - التفاتا علميا ملحوظا في الاوساط العالمية .

ولماذا نذهب بعيدا ، وبقايا هذه الحضارات ما تزال تعيش
الى اليوم ، من اشوريين وفينيقيين وارانين وهورانيين وسريان ،
بلغاتهم وأبنيتهم الثقافية والفولكلورية في عالمنا العربي ، وما تفرع
منهم من ملل ونحل بالئات ، عددها القحطاني والشهرستاني
والنوابري وابن كمونة وابن النديم ، من مرجئية - ميدان المرجة
بقلب دمشق الحالية - وزورية بدير الزور ، وحرانية - أو كلدانية ،
واريوسية ، وهيلانية ، وبهانية ، واسحقية ، وبقورية ، ومثانية ،
وعنزوية ، وأمهرية ، وديصانية ، ومهاجرية ، وشيلية ، ومغتسلة ،
وغيرها من بقايا الحضارات والاقوام والاقليات التي ينظر اليها
اليوم ، كمواد طريفة لفرجة السياح والدارسين ، مثل السريان
النساطرة بالقرب من دمشق بسوريا ، والموارنة والدروز بלבnan ،
والحرانيون الكلدانيون بالعراق ، وهم أول من قسموا اليوم الى
٢٤ ساعة ، والساعة الى ٦٠ دقيقة ، كما انهم أول من سمو
ايام الاسبوع بتسمياته اللاتينية الفلكية الى اليوم نسبة الى الكواكب
السبع السيارة ، فجعلوا يوم الاحد للشمس وسموها ايليوس ،
ويوم الاثنين للقمر - واسمه سين ، ويوم الثلاثاء للمريخ واسمه

آريس ، ويوم الاربعاء لعطارد واسمه نابق ، ويوم الخميس
للمشتري واسمه بال ، ويوم الجمعة للزهرة واسمها بلتي ، ويوم
السبت لزحل واسمه - كرونس - قرونس .

والذين يهونون أو هم يتعامون عن مدى الاخطار التي قد
يقودنا ويعرضنا لها تراث ما قبل العلم هذا ، وهو التراث الذي
لم تنكسر شوكته ، بل لم يصبه ويعتريه التغير والتفهم الواقعي
- كبناء من التناقضات - بالقدر الذي يسمح بحل أحجيتيه
وطلاسمه ، وبالقدر - حتى - المتوائم أو المتقارب مع تغيير علاقات
الانتاج الذي اعتري عالمنا ، ولعل أبسطها التحول البترولي
الراسمالي ، الذي لا يستقيم أبدا مع محاولات طبع الماضي على
الحاضر ، خلال مجرى عمليات الخداع للحفاظ على ما يسمونه
- على أحسن الفروض - دعاة الجبرية التاريخية والثرائية ،
بروح التاريخ ، والذي ليس هو في حقيقته « سوى روح هؤلاء
السادة » (١) أنفسهم كما يقول غوته في تراجيديا فاوست .

واذا ما كانت « الارض الموعودة » أو الخلاص ، يكمن في
المستقبل ، بالنسبة لمفهوم المستقبلية عند توينبي وغيره مثل
د. مارجريت ميد .

فان مفهوم العالم السالف أو القديم وبؤرته شرقنا العربي عن
الخلاص والمستقبل ، يجيء بالضرورة غيبيا أسطوريا يوطوبيا أشبه
بانتظار جودو . وذلك حين « ينزل عيسى الى الارض ، وكان رأسه
يقطر ولم يصبه بلل ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفيض
المال ، وتقع الامنة في الارض ، حتى يرعى الاسد مع الابل ، والنمر
مع البقرة ، والدئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات » ، كما
يقول الديميري وغيره من الكلاسيكيين العرب .

واذا ما كانت الانسانية التي نحن جزءا من حركتها العامة ،
خاضعة تماما لقانون تطورها العقلي ، ولهذا حققت انتقالاتها - على
كلا العالمين الشرقي الشيوعي ، والغربي الامبريالي - من الفكر

(١) من ملوك البترول ومشايخه .

اللاهوتي الطوطمي - الانبيزمي - الى الفكر الميتافيزيقي الفلسفي ،
ثم من الفكر الميتافيزيقي الى الفكر الوضعي النفعي ، طمعا فسي
تحقيق أقصى منفعة ممكنة ، تعود بالنفع على الناس وواقعهم ،
وفي اتجاه تملك الانسان - العاقل - لواقعه وجدلية وجوده .

وعلى هذا يصبح من المفيد اعادة تفهم واقعنا والوقوف على
حقيقة متناقضاته ، بنفس النهج الذي حققته المجتمعات الصناعية ،
وما فوق الصناعية ، منذ عصر التنوير . فهدفي الواضح من هذه
الدراسات ، لا يقف بحال عند صدى لماضي وسحره وجاذبيته
الخارقة ، ممثلا في الموروثات والممارسات والمقولات الفولكلورية
والاساطير . او بمعنى تأصيل الحاضر بخلفية الماضي ، حيث مولد
الحضارات المصرية الفرعونية - خاصة الدولة القديمة - ونظيرتها
- تاريخيا - الحضارة السومرية اللسامية ، التي توارثتها الشعوب
السامية - اللغوية - التي اكتملت اليوم في العربية والعبرية .

وأعترف انه تراث شديد الغناء متدفق ، ذلك الذي ابتدعته
مخيلة تلك القبائل السالفة القديمة التي بورتها وبوتقتها شرقنا
الادنى القديم او الاوسط المعاصر ، ذلك الذي انصهرت عبر بلدانه
روافد كلتا المخيلتين الهائلتين ، السامية والآرية ، التي وهبت العالم
- المعاصر - عقائده الروحية الكبرى ، مثل اليهودية والمسيحية
والاسلام ، بالاضافة الى البوذية والى التراثين الفارسي المجوسي ،
والهيني - الاسطوري العقلي - وهو ما اقيمت على أشلائهما
الحضارة الرومانية والتي وجهها المعاصر أوروبا اللاتينية اليوم .

فالاغراق في سحر وجاذبية ذلك الماضي ، يقع الباحث
بالقطع ويقوده الى حيث برائن التعقب الشوفيني ، والنعرات
القومية .

وهي بالطبع تلك النظرة المثالية ، التي صاحبت مولد علم
الفولكلور وملازمته للطموحات القومية والاحساس العنصري والتفوق
القومي ، ذلك الذي اكتمل في الدعوات السلافية والآرية - الهندو
أوروبية - ووصل ذروته في النازية الهتلرية .

بل ان اهتمامي ينصبّ في المحل الاول على مدى انعكاس طرق وميكنزمات واحتياجات وحتميات الحياة السالفة ، على مفهوم الحياة والعالم في حياتنا المعاصرة .

ويمكن طرح السؤال على النحو التالي : الى اي مدى جاءت استجابة هذا التراث - لحتمية - التغير والتشكل بما يحقق التوافق والاستجابة للحتميات العلمية والعقلية ، وبما يوفر المزيد من الانتاج والتقدم ، ويتواءم مع عصر ما بعد العلم او فوق التصنيع كما يقولون ويعلنون ؟ وعلى الاقل ، ليكن هذا التساؤل مطروحا بالنسبة لعالم ما خارج - العالم الثالث او النامي . ليكن هذا التساؤل مطروحا بالنسبة للعالم المتحضر على كلا الصعيدين الديموقراطي الشعبي ، والامبريالي .

ذلك ان تكبيل تركة الماضي الغيبية البدائية القبائلية ، المتوارثة منذ عصور ما قبل العلم والعقل ، وتوارثها من جيل لجيل - تحت تأثير العادة - ما تزال تتحكم في مخيلة شعوبنا وتطبع حياتنا - حتى - المعاصرة .

ولنتذكر جيدا مدى احباط ولا جدوى العمل الثوري في ارض هذا التراث ، ما لم نعاود الالتفات الجاد المحايد اليه .

، وهو ذلك المنهج الذي بصرت به المدرسة التطورية الديمقراطية الثورية الروسية ، التي وان ركزت - او هي تمادت - في استخلاص عوامل الاحتجاج الاجتماعي والميول الثورية او الايجابية في الفولكلور ، الا انها بصرت بمدى عرقلة هذه الموروثات التي تمشي ، وتتوالد تحت تأثير وسلطة العادة مدعمة بخدمة أغراض طبقية ، في حجم الاستعمار بل هي كل الاستعمار اليوم . وهذا هو بعينه ما يشكل اظلام وشرور الموروث من فولكلور وأساطير ، خاصة شقها الغيبي البدائي التي قامت على اساس ما عرفه تيلسور بالانيمزم ، بمعنى اصفاء صفة الروحية على الظواهر الطبيعية المحيطة بالانسان وافعاله الشعائرية ، وفي اتجاه الامتثال لحتمية مسار التاريخ الانساني .

مع الاخذ في الاعتبار بأن تشابه المادة الخام - من بيئة

وظروف اقتصادية واجتماعية - يؤدي بالانسان الى الاستجابة
للتشكيل العقائدي والعقلي ، وبالتالي السياسي .

فمثل هذه الدراسات كما يقول لينين هامة وضرورية في
دراسة النفسية الشعبية في ايامنا .

**ولم يكن شغف ماركس - وانجلز بشكل خاص - ولينين ،
بالفولكلور ، والاساطير ، في دراساتهم عن العائلة وأصلها، لمجرد
المتعة ، بل على اعتبار انه سجل تاريخي حتمي للمعرفة بالعمل
السياسي وادراك مساره ووجهته الصحيحة .**

فمن طريق التحليل الجدلي - للواقع والموروث الثقافي -
نصل بالطبع الى توجيه العمل الثوري توجيها سليما ، فالقوانين
الطبيعية للمجتمع التي جاءت وعبرت عن غيبته ولاعقلانيته العمياء
لم تجيء اعتباطا او هي ولدت وتكاثرت ووجدت لمجرد الصدفة
العشوائية كما يرى - مثلاً - كراب ومعظم الدارسين الليبراليين ،
فهي انما جاءت وتكاثرت وازدهرت لتؤدي وتحفظ وتقدم خدماتها
لصالح الطبقة صاحبة السلطة وبالتالي أدوات - الانتاج - والثقافة،
حتى ولو اقتصرت هذه الادوات - الثقافية - في العصور الحجرية
والطوطمية على النص الحجري او الشفاهي المتواتر بدأب الحفظ
والتحفيظ والانشاد وسحر اللغة الشعرية - الشعائرية - التي
زاوجت او هي اشترطت توحد الكاهن بالملك بالمдах ممثلة ، وخادمة
لاوضاعه الطبقية ، منذ عصور الظلمات او الاظلام ، وهي بذاتها ما
تواصل سريانها وفرض سلطتها ، لخدمة أغراض طبقية جديدة
باستخدام - أدوات - الاعلام والثقافة - الجديدة - من راديو
وتلفزيون . والفرق هنا ليس غامضا او بعيدا بين شيوخ القبائل
العربية البائدة والقديمة ، وشيوخها الجدد من ملوك البترول ،
او بين دعاة الاغارة والابادة القدماء ، والمتشدددين - جدا - في
حروب اليوم - على كلا الجانبين - ودون فهم للواقع والبقاء
الموضوعي ، وما يستلزمه من توافق متواز ، بين وسائل الانتاج
من ناحية ، وعلاقات الانتاج وما تتطلبه من بنيان علوي يتمثل في
السياسة والتراث والفكر القائم عليهما من الناحية الاخرى .

فدفاعا عن المصالح التطبيقية ، تشرع الاسلحة دفاعا عن التراث - الانيمزمي - الذي سماه كافكا بالوهم ، او حراسة الوهم ، وبالطبع ، فان الهدف الاخير هنا هو حراسة مصالح الملوك الكهنة او السدنة الجدد ، وكيف يقومون بتأدية شعائرتهم تحت عدسات التلفزيون والصحف الصفراء ، في خدمة وكنس الكعبة سنويا ، بنفس ما عرف عن اول ملك كاهن مداح جاهلي ، وهو عمرو بن لحي الجرهمي . وكان شاعر أسطوري ينسب له : « ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة » .

ولا شك في اننا أصبحنا هنا في عالمنا العربي في ميسس الحاجة الى هجرة محققة من تقيض الى تقيض ، أو من السلفية الى المستقبلية ، أو كما يحدث في أوروبا نواصل تحولنا من الزراعة الى الصناعة ، أو من الماضي الى المستقبل . ذلك اننا ونحن ندخل مجتمع التصنيع في ميسس الحاجة الى حتميات ثقافية وعقلية موازية أو متعادلة مع مستلزمات وحتميات العصر الذي نعيشه . ربما بنفس المعدل الذي حدث بجزيرة مانوس ، في مواجهة غينيا الجديدة ، كما تقول العالمة الانثروبولوجية الاميركية د. مارجريت ميد ، وهي الجزيرة التي انتقلت من العصر الحجري الى القرن العشرين في جيل واحد .

ولما كانت الاساطير - في منشأها وغاياتها - تأليه لعناصر الطبيعة من برق ، ورعد ، ورياح ، وسحب ، ورغود جويسنة أي فيتومولوجية ، بما يشملها التعريف من ظواهر مناخية ، وحيائية بيئية أي تأثير الظواهر المحيطة في مخيلة الانسان البدائي ، الشبيه بولد يتفتح على العالم ، وهو ما يتبدى واضحا في تراثنا القديم ، وببقايا المسيرة في تراثنا المعاصر من اغراق في اصفاء مظاهر القدسية على الجبال وقممها ، والصحاري ومجاري الماء من بحور لآبار لعيون ماء راكدة عفنة ، لا تخلو منها مدينة أو قرية على طول مصر والعالم العربي ، ومشاع حول هذه - المزارات أو الاضرحة - من الآلاف المؤلفسة من الخرافات . بل ان الصعب تصور مدى ما تسببه هذه المزارات العطنة من تدمير للصحة العامة من بدنية بخاصة وعقلية .

فترتب على تأليه وتقديس الظواهر الطبيعية والبيئية المحيطة ، وما يستتبعه هذا من صراع النور أو الخير مع الظلام والشر ، وهو المنهج التطوري الذي اكتمل بعد الدارونية والذي أكدته ، بالنسبة للأنثروبولوجيا تيلور ومعاصره أندرو لانج ، وفريزر ، (خاصة تفسير تيلور أو سبغه الى اكتشاف مدى سيطرة العادة داخل هذه المجتمعات الغيبية ، بما يحقق ثوراتها لادق دقائق حياتها وطفولتها الاولى) ، حين أراد تفسير ظواهر الطبيعة القاسية من حولهم ، خاصة هنا في شرقنا الاوسط الحديث أو شرقنا الادنى القديم ، فلعل الاختلافات البيئية والظواهرية والجوية هي المخصب الرئيسي لهذا التراث الذي اكتملت فيه الاديان الثلاثة الرئيسية في عالمنا : اليهودية والمسيحية والاسلام .

فجغرافية المنطقة كما يشير د. جمال حمدان ، تجمع ما بين دالات الانهار في دلتا مصر والعراق ، أي المجتمع الزراعي ، الذي قدم تفسيره الازلي السائد الى اليوم عن الموت والقيامة ممثلا في اساطيره عن الآلهة الممزقة التي اكتملت في المسيحية .

والمجتمع الصحراوي المجذب القبلي ، مجتمع الاغارة واعتبار الحرب نوعا من الصيد ، وبالطبع يصل هذا المدخل القبائلي الفاشي عند الجبليين سكان الجبال .

الى حد ان تاريخ المنطقة ، قديمه وأوسطه ومعاصره ، لا يعدو أن يكون تاريخ حرب واغارة وتنكيل ممتد ، خاصة في بؤرة هذه المنطقة الشام وفلسطين ، وأينما وجدت موارد المياه أو «الايلات» - نسبة الى ايل أو كرونس - ، ومنها ميناء ايلات . وبالنسبة لميناء جبل أو جبيل بلبنان الذي يتعاضد دوره السلفي المتخلف في حالة الكتائب . فهي على طول تاريخها مجال نزاع دائم للمئات من القبائل والحضارات والاجناس المتطاحنة .

ويلاحظ ان اقتصاد غرب البحر المتوسط بعامة عبارة عن بنيان مقسم الاجزاء لاقاليم - أو مدن دول - يصل فيه الجبل حتى البحر الذي يصنع كثير من الاجزاء المنفصلة المعزولة التي يوجد فيها سهول صغيرة غارقة في الجبل ، فالماء بالضرورة كان هدف

الاغارة والحرب الاول . طالما ان الارض قد تتحول الى مستنقع ان لم توضع وسائل تصريف المياه ، او الى صحراء ان لم ترو بالماء ، وعلى هذا فأساس حياة الفرد والقبيلة في الشام وفلسطين هو البستان ، وليس الحقل .

وكما يقول الجغرافي الفرنسي فرناند موريت ، فهي بلاد تجبر فيها تضاريس الارض ، سكانها على العمل والصبر والدأب ، كما انها بلاد يعتبر البحر فيها الطريق الاسهل للتجارة ، والترحال ، فجغرافية الارض المقسمة الى دويلات متناحرة ، نتيجة لحدودها الطبيعية من سهول وجبال وصحارى ، أي مناطق جفاف ، وفيضانات ماء ورياح ، ومساحات شاسعة خربة ، كل هذا فرض نظام القبيلة والعشيرة وما يتبعهما من اغارة وابادة ، وفقدان للامن ، وهو ما تبدى واضحا في أساطير وفولكلور هذه المنطقة المفرقة في القبلية العصبية ، التي عرفت شارة الصليب المعقوف قبل ان تعرفه ألمانيا النازية الفاشية ، بأكثر من ٣٠ قرنا من الزمان .

وعلى هذا فأساطير وفولكلور منطقتنا هي في المحل الاول أساطير وفولكلور القبيلة .

وبالطبع يمكن القول بأن الجسد الفولكلوري لمختلف فولكلور العالم ، هو في أدنى أشكاله قبائلي ، او هو ما يزال الى اليوم يحتفظ بملح القبيلة . بمعنى ان القبيلة هي أدنى أشكال أي مجتمع بشري ، ومن تجمع عدة قبائل واصلت اتحادها ، تحت أقوى شعاراتها أو شعارها ، أو طواطمها أو آلهتها الى أن تصل في مجموعة القبائل - المتحدة أو المتحالفة - الى درجة الامة أو الحضارة .

ووصل البعض من أصحاب النظريات الطقسية أو الشمسية - مثل روبرت غريفز ورفائيل بتاي - الى حد الدفاع عن أن انقلابا تقويميا عاما قد صاحب معظم قبائل العالم القديم من خلال تحولها من عبادة القمر - أو الالهة الانثى القمرية - والسير بتقويمه - القمري أو الهجري - الى عبادة الشمس - أو الاله الاب الذكر -

والاخذ بتقويمها - الميلادي - فيما بعد واعتبار السنة ٣٦٥ يوما .

وذهب البعض الآخر من أصحاب النظرية الانثروبولوجية في تفسير الاساطير ، الى مدى اكثر عمومية تحت تأثير التطور - النوعي - الدارويني ، والاستفادة من المادية التاريخية ، على اعتبار ان معتقدات وأفكار الناس في تطورها التاريخي تجيء - مجبرة او حتمية - لتطور بيئتها ووسائل انتاجها وعلاقاتها الاجتماعية . أي ان تغير البناء التحتي - الاقتصادي والاجتماعي - يستوجب بالضرورة تغيير أفكار ومعتقدات واساطير وعادات وممارسات وأخلاقيات ونظم قرابة وتزاوج وشعائر وقوى غيبية أي كل ما يتحكم في حياتهم من ابنية اجتماعية .

وعلى هذا فمجتمعات العالم القديم ، في مراحل التكوين القبلي أو العشائري ، قد عاشت في مختلف البيئات والمناخات الجغرافية - من مجتمعات زراعة ورعي وجبل وبحر - والمقضود بالعالم القديم هنا هو مجموعة الحضارات والقبائل العربية أو السامية القديمة ، وهو ما يتضافر في الكشف عنه اليوم ، مجموعة مترابطة من العلوم ، أهمها طبعا علمي الانثوجرافيا ، والتاريخ .

وعن هذا الطريق يمكن تعريف الحضارات التي شهدناها شرقنا الاوسط وتحديد معالم وخصائص كل منها . ذلك ان الحضارة كما يعرفها عالم ما قبل التاريخ جوردون تشايلد ، تقوم على ما يستخلصه الانسان من غذائه ومجتمعه الانساني وكافة نواحي السلوك الانساني ، من لغة ودين وفلسفة وأخلاق وقانون ، بالإضافة الى أدوات الانتاج التي يستخدمها . فعن طريق التكيف مع البيئة أو قوى الانتاج أو مصادر الثروة الطبيعية تتحدد الحضارة ، ومن هنا وبالضرورة تدين سماتها ومعالمها للبيئة وطبيعة المكان .

وهذا هو هدفنا - البيئة واختلافاتها وتنوع مصادر القوى الانتاجية ، لعالمنا العربي ، أو منطقة الشعوب السامية .

وكما سبق أن أوضحنا فان الاختلافات البيئية وبالتالي المناخية ، تظهر بوضوح على طول هذا التراث وهذه البقعة من

العالم منذ فجر التاريخ ، من صراع بين الحضارة - الزراعية -
في دالات الانهار ، وبين البداوة ومجتمعات الرعي والصيد
والاغارة .

ويتركز هذا الصراع بأجلى معانيه في الاسطورة - الام -
التي حددت أجناس شعوب وقبائل المنطقة السامية ، حين قدم
ابني نوح حام وسام - بعد الطوفان - قربانهما الى الرب ، وكان
أحدهما وهو حام صاحب زرع ، والثاني وهو سام صاحب رعي ،
فتقبل الله قربان صاحب الرعي ، ولم يتقبل قربان صاحب الزرع،
فكان أن حقد الفلاح - قابيل - على شقيقه - هابيل - وأقدم على
اغتياله .

وهي تضمينة أو فكرة أسطورية تتوالى بكثرة شديدة جدا
في هذا التراث الطوطمي القبائلي .

ولعل أقدم أشكالها - ٣ آلاف سنة ق.م - جاء بها النص
السومري للحمة جلجاميش ، في صراعي جلجاميش - الفلاح
المتحضر - والكيكو ، الراعي الوحشي الذي تربى مع حيوانات
الغابة وشعر رأسه كشعر امرأة .

كما وردت بنصها في صراعي ابني اسحاق : يعقوب - الذي
سمي اسرائيل - وشقيقه توأمه عيسو أو العيص العربي السوري
الأردني ، وموطنه الأول أرض أدوم أو الصحراء الادومية - التي
اشتق منها تسمية آدم أبو البشر - بالأردن .

كما انها تتوالى متوارثة الى ما لا نهاية في ضواحي عرب الجزيرة
العربية ، بقسميها الشمالي الرعوي العدناني أو الاسماعيلي .
والجنوبي الزراعي - فيما قبل تخريب سدود اليمن - وهي ٣٠ سدا
أهمها سد مأرب - .

كما تطل برأسها على طول التاريخ القديم السابق للإسلام ،
وحتى فيما بعد مجيء الإسلام، مثل صراعي قبائل الأوس والخزرج،
من فلاحين ورعاة .

بل ان هذا الصراع حول الزراعة والبداوة يتبدى بشكل

واضح جلي في معظم الملاحم والسير والاساطير ، خاصة في سيرة
أو ملحمة بني هلال ، التي لا تعدو أن تكون امتدادا للصراع بين
الفلاحين والبدو أو اليمنيين - والسعوديين - الى اليوم .

فأبي زيد الهلالي بدوي رعوي عدواني ، بينما خصمه الزناتي
خليفة حميري أو قحطاني يماني .

لذا وعلى هذا لم يتمكن أبدا أبو زيد الهلالي - قاتل آلاف
الابطال - من قتل الزناتي خليفة ، ولم يتمكن من قتله - كما تحفظ
الملحمة أو السيرة - الا قحطاني أو حميري على شاكلته ، وهو
دياب بن غانم ، الذي تعارف عليه الشعب المصري ، بالزغبى .

كلمة اخيرة

ترددت لفترة في اصدار وجهة نظر ، او كلمة اخيرة ،
يمكن أن تحيط هذه المجموعة من الدراسات النظرية حول تراثنا
الفولكلوري والاسطوري المعاش اليوم ، والذي عن طريقه تتكيف
معاملتنا وحركتنا ومثلنا اليومية على طول هذه المنطقة العربية
التي يوحدنا الاصل اللغوي الواحد المتجانس ، وطبيعي وبالضرورة
تعيد اللغة تشكيل وصياغة الذاكرة والوجدان ، وبالتالي هذا
التراث .

ولا يمكن بحال الامساك بأفاننا وسليباتنا وما يفت في عضد
ماتنا ، من المحيط الى الخليج كما يقولون ، ما لم نعد النظر العاقل
الى الخلف او الوراء ، فما احوجنا الى اعادة النظر الهادى العاقل
الى الوراء . . في غضب .

ولا يمكن بحال تحقيق ما نرجوه ونأمله من انفتاح ، ما لم نعد
نعرف مواطن اقدامنا ، أين نقف من عالمنا الذي نعيشه بضروراته
وحتمياته العقلية العلمية التكنولوجية . أين نقف من اعادة تدخل
وصياغة العقول العلمية الاليكترونية والتكنولوجية الا بعد
الاجتهادات الادبية - مثل هذا التراث الطوطمي المنحدر من
الانتيكات .

وما ابلغ الثقافة الشعبية المضادة ، التي تسخر من كل ما هو فعلا
أنتيكي او أنتيكة او متحفى او تحفة .

يمعنى ان كل ما هو قديم ، او سالف أصبح اليوم مدعاة
للسخرية ، في عصر يحتم ممارسات وافكارا ومقولات وميكنزمات
جديدة .

ومن الصعب جدا تصور حجم الكم من موروثة العالم
القديم او عالم ما قبل العلم ، ومعاشتها لنا عبر أدق دقائق حياتنا
اليومية . وان القطاع الغالب من هذا الموروث العالق او المعاش
لنا يرجع الى آلاف مؤلفة من السنين . كما لا يمكن تصور مدى
السالب او العادم الذي يسببه هذا الاستمرار ، ومدى عرقلة
لطاقاتنا العقلية والابداعية والانتاجية بل والثورية .

ولنا ان نتصور ان هم أوروبا والعالم الجديد عامة الاول
ومعاباتها ، تكمن في محاولة التخلص من برائن وموروثة هذا
العالم القديم ، الذي نحن بؤرته الرئيسية . هنا على ارض شرقنا
العربي ، او الاوسط .

كما ان لنا ان نتصور ، وما اشقه من تصور ، انه بينما لم
نبدأ نحن بعد في نقل وهضم وتفهم ما أنجزه العالم المتحضر في
مجال حركة العلوم الانسانية التي هدفها الاول بناء واستثمار
الانسان ، بما يحقق توافقه وتكيفه مع حتميات العصر العلمي الذي
نعيشه وما يصطرع فيه من افكار اشتراكية ، وهي الانجازات التي
حدثت على مدى القرون الثلاثة الاخيرة .

فبينما يدخل العالم الجديد مراحله المذهلة في التوصل الى
مقدمات ونتائج اليكترونية في مجال دراسة الانسانيات ، لم نبدأ
نحن بعد .

ففي الوقت الذي خلع العالم من حولنا ارديته ممثلة في تراثه
وموروثاته الجمعية ، ووضعها في حجمها ومكانها وواقعها
الصحيح ، ربما منذ ما بعد عصر النهضة الاوروبية ، والثورة
الفرنسية ، وثورات عام ١٨٤٨ ، وعصر التنوير او العقل وهو
القرن ١٨ ، بظهور واكتمال الطبقة الوسطى ، والتحول من عالم
اقطاع القرون الوسطى الى عصر التنوير ، او من عصور ما قبل
العلم والعقل ، الى العقل واعادة النظر للانسان وتناوله ، على

اعتبار انه حيوان عاقل ، لكن جانبه الحيواني اعمق جذورا من جانبه العقلي .

فلقد جاء عصر التنوير أو القرن ١٨ ، بأكبر ثورة في اتجاه تسييد العقل ، والنظر للانسان على اعتبار انه نتاج طبيعي تطوري بعد دارون . ومنذ ذلك القرن الى اليوم اعتبرت العلوم الاجتماعية، متضمنة الفولكلور والاساطير فرعا من العلم الطبيعي ، بل ان البعض - ومنهم رادكليف براون - تعاملوا مع العلوم الاجتماعية، على انها العلم الطبيعي النظري للمجتمع الانساني ، او علم المجتمعات الانسانية - او علم دراسة الانسان وافعاله - او علم دراسة الثقافة ، بل وتوصلوا الى اعتبار الظواهر الاجتماعية ، ايا كانت سواء في السلوك اليومي للشارع ومطباته المقلقة لاصحاب السيارات - والاوتوبيس ، والدعارة ، او سلسلة النسب والقرابة او الرشوة او العلاقات العامة ، باختصار كل ما يمكن ان يشكل ظاهرة داخل المجتمع ، مثل الامية ، والانفجار السكاني ، وازمة المساكن ، وازمة التعليم ، والبطالة ، كل هذه الظواهر تجيء كنتيجة مترابطة للبناء الاجتماعي المعين .

باختصار أكثر فانه اذا ما كان لكل داء دواء ، فان دوائنا وشفائنا ، هو في اعادة التدقيق في تراثنا وعاداتنا ، في تركة الاسلاف الغيبية الطوطمية ، واعداد تعرفها - تفليتها - بنفس القدر والمعدل الذي حققه العالم المتقدم .

وطبعا توصل العالم المتقدم ، او المستهدف للعقل ، لمثل هذه النتائج بعد الجهود المصنية التي ارساها العلماء الاجتماعيون امثال تيلور ، ولانج ، وفريزر ، ومورجان ، وجوردون تشايلد ، ويوسف بيديه ، خاصة في موسوعته الكبيرة عن النواذر والنكت والفوازير .

فيلاحظ انه حتى النواذر والقفشات اليومية ، لها موسوعاتها ودراساتها المصنية منذ عصر التنوير . كما يلاحظ ان الاهتمام بمثل هذه العلوم الاجتماعية ، وتاريخ الثقافة ، ازدهر في أوروبا الاستعمارية ، كل هذا الازدهار، كنتيجة للدور الايجابي والتطبيقي وجانب المنفعة الذي اسدته هذه العلوم في علاج الظواهرات

الاجتماعية، واحكام تملكها والسيطرة عليها ، من ذلك كل ما يتصل
بآفات الامية ، والمساواة بين الجنسين ، وكذلك بالنسبة للجنس
وتأبواته أو محرّماته ، وقضايا العلاقة بين المرأة والرجل والتوصل
الى نتائج اكثر صحية ، واكثر ايجابية ، واكثر ارتباطا بالحضارة
واثراء لها . والتفوق في برامج التربية ، والانضباطات السكانية
البالغة الدقة . فمعظم الدول الاوروبية تحتفظ بأحجامها السكانية
بالقدر الذي تتطلبه بالضبط ، منذ مطلع القرن الاخير حتى اليوم .

كذلك استفاد العالم المتقدم من تملكه ومعرفته بهذه العلوم ،
في تفجير أقصى طاقاته الانتاجية ، وارساء القدر الكبير من
التسامح . كذلك التوصل الى ميكانيزمات وممارسات جديدة
متمشية مع الحتميات العلمية التكنولوجية - موازية لها في حركتها
وثنورتها العامة .

وبالطبع لا يمكن أنكار ، ان جانبا كبيرا من النشاطات والنتائج
التي توصلت اليها هذه العلوم ، قد سخر لخدمة الأغراض والمصالح
الطبقية والاستعمارية .

فمنذ مطلع هذا القرن ، أكثر الدول الاستعمارية من
استخدام الخبراء الاجتماعيين ، وتعيينهم مستشارين في اداراتها
الحكومية . ومن هنا استفادت الطبقات الاستعمارية من معارف
ومهارات أولئك الخبراء ، في دراسة العلاقات الاجتماعية ،
والصناعية ، والعرقية .

فمثلا عن طريق دراسة أحد علماء الانثروبولوجيا المعاصرين
وهو د. شتاين ، على الفروق العرقية في الاسنان وحجم وشكل
الفك ، استفلت الشركات التجارية الاميركية تصميم أطقم أسنان
مناسبة ، وحققت أرباحا هائلة ، كذلك بدأ الخبراء يدرسون
استعداد الجماعات البشرية المختلفة ، لتقبل أمراض معينة ، والوان
معينة ، وسلوك محدد ، وموسيقى محددة ، وأفلام سينما بعينها،
وكتب ، وسلع استهلاكية ، وهكذا .

ولعب الخبراء الاجتماعيون ، دورا هاما في الكشف عن

استعداد الجماعات المتباينة لتقبل سلع ومنتجات متلازمة ، مع استعداداتهم حتى لتقبل امراض بعينها .

أي ان في الاستفادة من هذه العلوم المترابطة ، تحقيقا لمنافع ومصالح تدخل حتما في الاستثمار العام ، كذلك لعبت هذه العلوم الدور الحاسم في التبصير بعنصري الطاقة والمبادرة وأهميتهما في نقل مراكز الحضارة . وهو نفس ما حدث بالنسبة لكل من الولايات المتحدة واليابان . ففي اميركا - لا يفتقد عن ذهن القارئ - انها قامت على فكرة او ايدولوجية اميركا ، أرض وموطن العالم الجديد ، وهي الفكرة التي لم تتخل عنها الى اليسوم ، وحاولت جاهدة خلق ارضية كل ما يربطها بالعالم القديم ، بهوروثاته وميكنيزماته وعاداته ومثله المكتسبة منذ عصور ما قبل العلم . وهذا بذاته هو موجز الحلم الاميركي او الايدولوجية الاميركية القومية ، ومثل هذا الفكر وهذا التصور هو بالتحديد ما جعل من اميركا اميركا ، حيث لا جاذبية تشدها نحو الماضي التاريخي ، حتى بالقدر والمعدل الذي تكونه أوروبا عبر الاطلنطي .

ولنا ان نتصور حجم ومعدلات الاندفاع نحو المستقبل بالنسبة لهذا العالم المستقبلي الجديد ، بالمقارنة مع العالم الثالث او العالم القديم او عالم السلف والانلاف .

فاستنادا على فهم شيخ المؤرخين ارنولد توينبي بالنسبة لعاملي الحضارة ، من مستقبلية يأخذ بها العالم الجديد ، فسي اميركا واليابان وصين ما بعد الثورة الثقافية ، ومن سلفية ، تفرق العالم القديم ، فتطفي ماضيه على حاضره ، وتحيل شعوبه الى سباحين ضد تيار ومسار الزمن .

ورغم ان توينبي - خاصة في آخر كتبه او مذكراته ((خبرات)) - قد عمم فهمه عن المستقبلية والسلفية ، بشكل أبعد من الايدولوجيات والنظم العقائدية ، على اعتبار ان كلا من الدول الاشتراكية والامبريالية تأخذ بالقطع بالمستقبلية وتفرقها احلامها ومخاطرها واقتحاماتها حتى للفضاء الخارجي .

أي انها راية واحدة موجزها عبادة المستقبل او التقدم ، يقف

تحت لوائها وياخذ بها العالم الذي تخلى عن رمم الاسلاف ، طمعا
في تحقيق اقصى نفع أو تقدم وصل الى حد انكار كل شيء فيما
عداه ، التقدم الذي يتغنى به الشاعر « تنيسون » :

« الا انني لا اشك ان غاية تجري متزايدة في جميع العصور
وان افكار الرجال تتسع كلما دارت الشمس

وما من عبث تلك الابعاد التي تفصلنا عن منارة الوصول
فلنسر قدما وليدر العالم العظيم في دروب التغير ذات الرنين
فان خمسين سنة في أوروبا أفضل من ألف في الصين » .

وطبعا كتب تنيسون أبياته هذه ، مبشرا الانفتاح الامبريالي،
عن ان خمسين سنة في أوروبا ، تفصل ألفا في الصين ، قبل
كلتا ثورتها العظيمتين ، السياسية الاجتماعية الاشتراكية ، ثم
ثورتها الثقافية ، التي انتزعت جذورها السلفية ، لتحيلها
الى الصين المستقبلية .

وهذا هو بالضبط مفهوم الثورة الثقافية : نفخ تراث العالم
السالف او القديم ، وهو طبعا ما لم تفعله أوروبا - بالقدر
الكافي - ، ومن هنا يمكن قلب مفهوم تنيسون رأسا على عقب ،
فان خمسين سنة في الصين اليوم ، تعدل ألفا في أوروبا .

ليس هذا صحيحا ؟

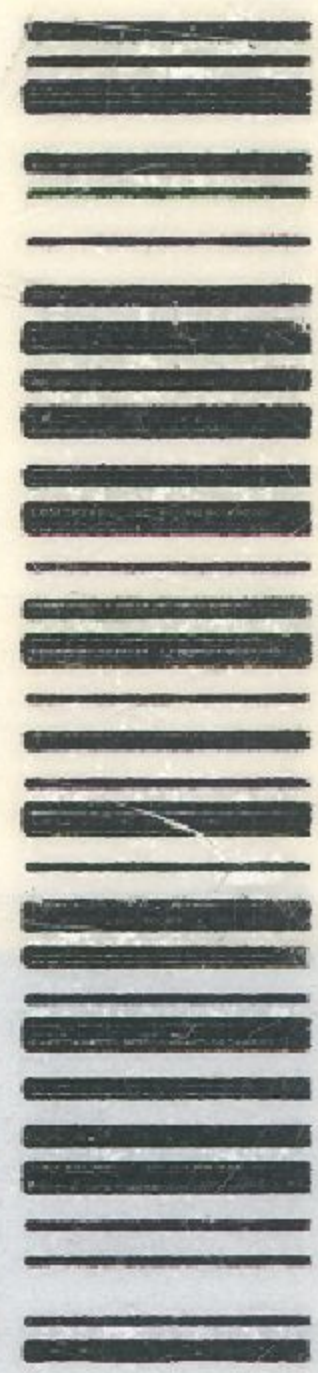
مراجع اجنبية

- 1 - Folklore and Anthropology - William . R . Bascom .
- 2 - Jewish Encyclopidia .
- 3 - Dictionary of Folklore .
- 4 - Brewer's Dictionary of Phrase and Fable .
- 5 - Judaism in Islam .
- 6 - Finnish Folklore -- J. and Kaarle Krohn .
- 7 - Dictionary of all Scriptures and Myths - G . A . gaskell .
- 8 - S . N . Kramer - sumerian Mythology .
- 9 - Semitic Mythology - New York . 1926 .
- 10 - The Golden Bough Sir . J . Frazer .
- 11 - Egyptian Tales . K . M . Flinders Petrie .
- 12 - The Dying God . Part II Frazer .
- 13 - The Ancient World . T . R . Glover .
- 14 - Malinowski Broniolaue , Science , Magic and religion .
- 15 - Evans Pritchard . Witchcraft , oracles and Magic .
- 16 - Radcliffe Brown , Structure and Function in Primitive Society.
- 17 - Frankfort , Henri . The Birth of Civilization in the near East.

فهرست

ص ٥	مقدمة
	الفصل الاول
٢١	مشاكل التراث العربي السامي
	الفصل الثاني
٣١	اساطير السومريين عند العرب الساميين
	الفصل الثالث
	اساطير وفولكلور بز الشام :
٣٩	سوريا - لبنان - فلسطين
	الفصل الرابع
٦٩	تدوين التراث
	الفصل الخامس
٩١	عبدة القمر
	الفصل السادس
١٠٥	الغيب والدر والقدر في هذا التراث
	الفصل السابع
١٢٩	خرافات الجن والشیاطین والعفاريت والرياح
	الفصل الثامن
١٤٧	حکایات فولكلورية سودانية ومصرية
	الفصل التاسع
١٥٩	الذاكرة الفولكلورية
	الفصل العاشر
١٦٩	البناء القبلي .. والفولكلور
	الفصل الحادي عشر
١٨٣	التابو والفولكلور
	الفصل الثاني عشر
٢٠٥	اللفة .. والفولكلور
	الفصل الثالث عشر
٢٢١	هذا التراث الجبري السامي
٢٤١	كلمة اخيرة

Bibliotheca Alexandrina



0658007

الضمن ١٢ ل.ل. او ما يعادلها